الفصل الرابع

السمات العامة لمنهج القرضاوي الدعوي

المبحث الأول :

التيسير

سمة من السمات التي عرف بها الشيخ القرضاوي ، وعلامة ظاهرة لاحت في أفق فتاويه كلما غدا أو راح ، ميزة عرف بها حتى عدها البعض عيباً ، وجعلها آخرون نقصاً، فهل كان الشيخ محقاً في ذلك ؟ أم كان مجحفوه على حق ؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه في هذه السطور .

ما المقصود بالتيسير في اللغة:

اليُسْرُ و اليَسارُ و المَيْسَرةُ و المَيْسُرَةُ، كله: السُّهولة والغنى؛ و اليُسْر: ضدّ العُسْرِ، و تَيَسَّر الشيء و اسْتَيْسَرَ تَسَهَّل. ويقال: أَخَذَ ما تَيَسَّر وما اسْتَيْسَر، وهو ضدّ ما تَعَسَّر والْتَوَى، والتيسير يكون في الخير والشر، والميسورُ: ما يُسِّرَ[1].

ماذا يعني الشيخ القرضاوي بالتيسير ؟

يظن البعض أن الشيخ القرضاوي حفظه الله إنما يبحث عن اليسر والتيسير من غير دليل ، أو أنه يلوي أعناق النصوص ليأً ليصل إلى مبتغاه ، وسؤال يطرح نفسه : وماذا يستفيد الشيخ من تيسيره للناس إن لم يكن معه الدليل ؟ هل إرضاؤه للحكومات ؟ أم إرضاؤه للأشخاص ؟ أم ماذا ؟

إن الشيخ لا يبحث عن رضا الحكومات؛ خصوصاً وأن مبدأه في التيسير واضح كل الوضوح منذ أن صدر له كتابه الأول «الحلال والحرام» في عام ١٩٦٠ م؛ فهل كان يبحث وقتها عن رضا الحكومة أم ماذا ؟ إن قارئ التاريخ يجد أن الشيخ لم يكن في يوم من الأيام في فترة صدور كتابه «الحلال والحرام»

---

(١) انظر: لسان العرب ج ٥ ص ٢٩٧ .

على حالة وفاق مع الحكومة المصرية أبداً ، بل كان شخصاً غير مرغوب فيه ، ثم لماذا يبحث عن رضا الأشخاص وهو لا يعود عليه نفع مادي منهم ولا معنوي ، إذن فلماذا هذه التهم ؟

ولا نملك إلا أن نقول مع الشيخ :

إذا محاسني اللائي أدل بها كانت ذنوبي فقل لي كيف أعتذر ؟

ولهذا فإن الشيخ يقول عن التيسير الذي يعنيه : التيسير الذي أعنيه هو الذي لا يصادم نصاً ثابتاً محكماً ، ولا قاعدة شرعية قاطعة، بل يسير في ضوء النصوص والقواعد والروح العامة للإسلام ، وليس معنى هذا أن ألوي أعناق النصوص رغماً عنها لأستخرج منها ـ كرهاً ـ معاني وأحكام تيسر على الناس[1].

هل التيسير في الدين بدعة قرضاوية؟

من العجب العجاب أن يحاول البعض إلزام الناس بما يشق عليهم ، وإجبار الخلق على ما فيه شدة عليهم ، وأعجب من هذا أن يكون ذلك باسم الدين .

إن التيسير على خلق الله هو روح هذا الدين ، وإن استقراء نصوص القرآن وصحيح السنة يؤكد على أن التيسير أمر مطلوب ، وقصد مشروع ، وكأن إخواننا هؤلاء لم يقرءوا قول الله تعالى : ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾ [البقرة: ١٨٥] ، أولم يقرءوا قول الله سبحانه : ﴿ **ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ** ﴾ [البقرة ١٧٨] .

أولم يسمعوا قوله جل شأنه : ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ** ﴾ [النساء :٢٨]

وقوله تعالى : ﴿ **مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ** ﴾ [المائدة:٦].

وقوله عز من قال : ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ [الحج: ٧٨]

ألم يقل النبي ﷺ لأبي موسى ومعاذ : « يسرا ولا تعسرا »[2].

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج١ ص ١٤ بتصرف .

(٢) متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان (١١٣٠) ، رواه البخاري في المغازي رقم (٦١٢٤) ، ومسلم في الجهاد (١٧٣٣) عن أبي موسى ومعاذ.

ألم يقل النبي ﷺ للأمة كلها : « يسروا ولا تعسروا »[١].

ألم تقل عائشة ـ رضي الله عنها ـ : « ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً »[٢].

ألم يقل ﷺ : « خير دينكم أيسره »[٣].

ألم يقل ﷺ في وصف هذه الشريعة : « إني أرسلت بحنيفية سمحة! »[٤].

هذا ما فطن إليه سلفنا الصالح ، وعمل به علماؤنا الأجلاء ، ولهذا قال الإمام سفيان الثوري : إنما العلم الرخصة من ثقة ، أما التشديد فيحسنه كل أحد .

إن التشديد إن جاز أن يأخذ به الإنسان على نفسه ، فإنه لا يجب عليه إلزام الناس به، ولذلك قالوا في وصف محمد بن سيرين : كان أرجى الناس لهذه الأمة ، وأشدهم أزراً على نفسه .

وأروع من هذا أن يحيل الإمام الناس إلى صاحب التيسير إن كان يرى هو غير ذلك، ولهذا قال الحسين بن بشار الحزمي : سألت أحمد بن حنبل عن مسألة في الطلاق . فقال : إن فعل حنث . قال الحسين : فقلت : يا أبا عبد الله اكتب لي بخطك، فكتب لي في ظهر الرقعة « قال أبو عبد الله : إن فعل حنث » . قال الحسين : فقلت : يا أبا عبد الله إن أفتاني إنسان ؟ يعني لا يحنث قال أحمد : تعرف حلقة المدنيين ؟ قال الحسين : قلت : نعم فإن أفتوني حل ؟قال : نعم[٥].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان (١٥٠٢) رواه البخاري في المناقب رقم (٣٥٦٠) ، ومسلم في الفضائل رقم (٢٣٢٧) عن عائشة.

(٣) رواه أحمد (٢٥٩٣٦) عن أعرابي ، وقال محققوه: إسناده حسن. وذكره الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٣٠٩).

(٤) رواه أحمد (٢٤٨٥٥، ٢٥٩٦٢) عن عائشة ، وقال محققو المسند : حديث قوي وهذا سند حسن .

(٥) انظر : طبقات الحنابلة ج١ ص ١٤٢ .

لماذا يتبنى القرضاوي التيسير ؟

والشيخ القرضاوي إنما ذهب إلى الدعوة بالتيسير على الناس لا التعسير ، لترجح ذلك عنده ، بل عده أولوية من الأولويات التي ينبغي أن يركز عليها الدعاة اليوم ، ومن ثم فهو يقول بأولوية التخفيف والتيسير على التشديد والتعسير[١] .

والشيخ إنما يتبنى ذلك لأمرين :

الأول : أن الشريعة مبنية على التيسير، ورفع الحرج عن العباد، وهذا ما نطق به القرآن الكريم وصرحت به السنة المطهرة[٢] .

ويؤكد الشيخ هذا في موضع آخر فيقول : وقد تبين لي بطول الدراسة والممارسة أن الرجوع المباشر إلى الكتاب والسنة يقترن دائماً بالتخفيف والتيسير، والبعد عن الحرج والتعسير[٣].

الثاني : طبيعة عصرنا الذي نعيش فيه، وكيف طغت المادية على الروحية، والأنانية على الغيرية، والنفعية على الأخلاق، وكيف كثرت فيه المغريات بالشر، والمعوقات عن الخير وأصبح القابض على دينه كالقابض على الجمر .

والفرد المسلم في هذه المجتمعات يعيش في محنة قاسية ، بل في معركة دائمة ، فقلما يجد من يعينه ، وإنما يجد من يعوقه[٤] .

ويشد الشيخ على هذا الأمر بنواجذه فيقول : ولهذا ينبغي لأهل الفتوى أن ييسروا ما استطاعوا ، وأن يعرضوا على المسلم جانب الرخصة أكثر من جانب العزيمة ، ترغيباً في الدين ، وتثبيتاً لأقدامه على طريقه القويم[٥] .

ويقول في موضع آخر : وعلينا نحن معلمي الدين أن نشحذ أسلحتنا لجهاد الشيطان ومطاردته ، وننفر أتباعه من بضاعته ، وإغرائهم ببضاعتنا ، وجذبهم إلى سوقنا ، ولن يكون ذلك أبداً بالتعنت والتزمت ، والإحراج والتشديد والتعسير والتنفير[٦].

---

(١) انظر : في فقه الأولويات ص ٧١ .

(٢) انظر هذه الأدلة في فقه الأولويات ص ٧١ ـ ٧٤ ، وفتاوى معاصرة ج١ ص ١٢ .

(٣) انظر : فتاوى معاصرة ج١ ص ٦ .

(٤) انظر : المرجع السابق ج١ ص ١٤ بتصرف .

(٥) انظر : المرجع السابق ج١ ص ١٣ .

(٦) انظر : العبادة في الإسلام ص ٣٢٧ .

وقد يتوهم البعض أن الشيخ إنما يدعو للتيسير استجابة لضغط الواقع، أو نزولاً على رغبات الناس، أو تماشياً مع أهوائهم ، فيرفع الشيخ هذا الوهم بقوله: وأود أن أقرر في بداية الأمر أن التيسير أمر مطلوب شرعاً في ذاته ، وليس مجرد استجابة لضغط الواقع ، أو تناغماً مع روح العصر ، كما يتصور بعض الناس (١).

الشيخ القرضاوي وتيسير الفقه .

وقد كان لعمق ظاهرة التيسير لدى الشيخ أن دعا إلى تيسير الفقه ، ويعني الشيخ بتيسير الفقه أمرين :

الأول : التيسير في الفهم .

الثاني : التيسير في الأحكام للعمل والتطبيق .

أما النوع الأول وهو التيسير في الفهم إنما يتحقق في نظر الشيخ بأمور منها :

١ ـ توخي السهولة والتوسط : بأن يكتب بلغة سهلة وأسلوب مبسط بعيد عن وُعُورة المصطلحات ، مع التوسط بين الإيجاز الملغز الذي عرفت به المتون ، والإطناب الممل الذي يتسع في الشرح والتفصيل .

٢ ـ مخاطبة العقل المعاصر بلغة عصره ، فإنسان القرن الخامس عشر الهجري غير الإنسان منذ قرنين أو ثلاثة .

٣ ـ استخدام معارف العصر ومقاديره ومصطلحاته .

٤ ـ ربط الفقه بالواقع وحذف ما لا يتصل به .

٥ ـ بيان الحكمة من التشريع حتى يقتنع به العقل ويطمئن به القلب .

٦ ـ ربط الأحكام بعضها ببعض وبالمقاصد الكلية للشريعة .

٧ـ التخفف من كثرة الزوائد والتشعيبات والتعقيدات التي أضافتها العصور المختلفة.

٨ ـ الاستفادة من كتابات العصر من العلماء الثقات ، ومن قرارات المجامع الفقهية والعلمية ، ومن الرسائل الجامعية .

---

(١) انظر : تيسير الفقه للمسلم المعاصر ص ١٣ .

٩ ـ عرض مستويات مختلفة من الكتب ، فليس الناس على مستوى واحد .

١٠ ـ الالتزام بالترقيم ووسائل الإيضاح والفهرسة الدقيقة [١] .

وأما النوع الثاني وهو التيسير في الأحكام للعمل والتطبيق فيتحقق بجملة أمور :

١ – مراعاة جانب الرخص .

٢ – مراعاة الضرورات والظروف المخففة .

٣ – اختيار الأيسر لا الأحوط في زماننا .

٤ – التضييق في الإيجاب والتحريم .

٥ – التحرر من العصبية المذهبية .

٦ – التيسير فيما تعم به البلوى .

٧ – رعاية المقاصد .

٨ – تغير الفتوى [٢] .

نموذج من تيسير الشيخ في فتواه :

ومن الفتاوى التي جنح الشيخ فيها إلى التيسير أسوق هذا النموذج، يقول الشيخ: ومن اللهو الذي يمارسه كثير من الناس: اللعب بالورق (الكوتشينة) ويسأل الكثير عن حكمه.

ومما لا شك فيه: أن اللعب إن كان بمال، بحيث يحتمل الكسب أو الخسارة، فهو قمار (مَيْسِر) محرم بلا نزاع.

وأما إذا لعب لمجرد التسلية، فقال البعض: إنه حرام. لأنه يقوم على الحظ والنصيب، فأشبه النَّرْد.

ولكن الواقع: أن في لعب الورق جانبين: جانبا للحظ، وجانبا للنظر والمهارة، فهو يشبه النرد من ناحية، ويشبه الشطرنج من ناحية أخرى. على أنا قد

---

(١) انظر: المرجع السابق ص ١٦ ـ ٢٣ بتصرف .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٢٤ ـ ٣٧ بتصرف.

ناقشنا قضية اعتماد النرد على الحظ وحده، وقلنا: إن هذا غير مسلّم، فهو يعتمد على الحظ في جزء من اللعب، ثم يعتمد على التفكير بعد ذلك. ولهذا أرى الاكتفاء بكراهته، إذا لم يبلغ حد الإسراف والانهماك، بحيث تضيع معه الواجبات الدينية والدنيوية.

لعبة (الدومينو):

ومثل اللعب بالورق في الحكم فيما أرى: لعبة (الدومينو) المعروفة ففيها شبه من النرد يقوم على الحظ، وشبه بالشطرنج يقوم على المهارة في الحساب وإعمال الفكر. وكثيرا ما يتبارى فيها الأذكياء: أيهم يغلب الآخر. لهذا أرى أن الحكم عليها بالكراهة هو الأقرب، ما لم يكن اللعب على مال، فهو قمار محرم بلا نزاع، أو يسرف فيها حتى تشغل عن واجب ديني أو دنيوي، فتحرم أيضا، فهذا ضابط عام في كل لهو ولعب[1].

* * *

(١) انظر: فقه اللهو والترويح ص ١٢٥.

المبحث الثاني

التبشير لا التنفير

هذه السمة مكملة للسمة السابقة وهي التيسير لا التعسير ، وقد تبنى الشيخ التيسير في الفتوى كما أشرنا سابقاً ، وهنا نراه يتبنى التبشير في الدعوة ، وإذا أعطي العبد هذا فإنه في نظر الشيخ : قد آوى إلى ركن ركين وهُدِيَ إلى صراط مستقيم[1].

التبشير عند القرضاوي ، ولماذا؟

ويرى الشيخ القرضاوي أن التبشير هو: كل دعوة تحبب الله تعالى إلى عباده، وترغبهم في عبادته وطاعته ، وتقودهم بحب ورفق إلى اتباع صراطه المستقيم [2].

وإذا كان هذا هو التبشير فإن التنفير في نظر الشيخ : يكون باتباع النهج الذي ينفر الناس من شرع الله مثل منهج الترهيب الدائم ، والتخويف المستمر من الله تعالى ، بذكر آيات الوعيد والعذاب والبطش من الله ، دون آيات الوعد والتنعيم والرحمة منه سبحانه [3].

وقد عُرِف الشيخ بهذه السمة؛ ولعل كتابه «المبشرات بانتصار الإسلام» أوضح دليل على ذلك، ففيه وضح الشيخ سبب تبنيه مبدأ التبشير وذكر عدة أسباب وهي :

١ ـ أن التبشير مطلوب لأننا مأمورون بصفة عامة أن نبشر ولا ننفر .

(١، ٢، ٣) انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ١٦٠ .

٢ـ أن المسلمين عامة والعاملين للإسلام خاصة يمرون بمرحلة عصيبة من مراحل تاريخهم المعاصر ، وتكاد تغلب في هذه المرحلة عوامل اليأس ومشاعر الإحباط؛ وهذا الشعور إذا استسلمت له الأنفس قتل فيها الهمم ، وخدَّر العزائم، ودمر الطموحات .

٣ـ أن القوى المعادية للإسلام ، تريد أن تعلن ـ بل قد أعلنت بالفعل ـ على الإسلاميين حرباً نفسية ، تيئسهم من الأمل في غد أفضل ، والرجاء في مستقبل مشرق ، وبدأت حملات مسعورة ، تحركها قلوب موتورة ، وتقودها أقلام مأجورة ، وأبواق مأمورة، تتهم وتلطخ وتشوه كل ما هو إسلامي .

٤ـ أن كثيراً من المتدينين يشيع بينهم فكر مغلوط عن «آخر الزمان» وبعبارة أخرى: عن مستقبل أقرب إلى السواد ، إن لم يكن أسود حالكاً .

لهذا كنا في حاجة إلى تجلية حقيقة «المبشرات» الغائبة عن كثيرين [١].

مظاهر التبشير عند القرضاوي :

هذا وقد سجل الشيخ في كتاباته مظاهر التبشير ويحسن بنا أن نشير إليها باختصار:

١ ـ تغليب الأمل والتفاؤل .

٢ ـ تغليب جانب الرحمة والمغفرة والعفو الإلهي على جانب البطش والعقوبة والانتقام .

٣ ـ التركيز على المبشرات بانتصار الإسلام وحسن مستقبله وعدم التركيز على أحاديث الفتن وأشراط الساعة .

٤ ـ اتساع الصدور لكل الناس وإن لم يكونوا على المستوى المنشود .

٥ ـ الرفق بالإنسان إذا وقع منه الخطأ ، فمن شأن الإنسان أن يخطئ وينسى .

٦ ـ التدرج بالناس في الدعوة والتعليم[٢] .

---

(١) انظر : المبشرات بانتصار الإسلام ص ٥ ، ٦ .

(٢) تراجع هذه المظاهر بالتفصيل في كتاب: الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ١٦١ ـ ١٧١ ، وانظر المبشرات بانتصار الإسلام .

مظاهر التنفير عند القرضاوي :

وإذا كان للتبشير مظاهر عند الشيخ فإن للتنفير مظاهر أهمها :

١ – الغلْظة والفظاظة في التعامل مع الناس .

٢ – سوء المظهر في الصورة واللباس والسمت للداعية .

٣ – تقديم الإسلام في صورة منفرة ، حيث يقدم بعض الناس الإسلام في صورة تقشعر من هولها الجلود وترتعد من قسوتها الفرائص ، وتوجل من ذكرها القلوب .

٤ – إساءة الظن بالناس[١] .

رأي الشيخ في تفسير أحاديث الفتن وأشرط الساعة والتعلق بها :

وإذا كان التركيز على المبشرات بانتصار الإسلام مظهراً من مظاهر التبشير فإن الشيخ يرى التركيز على أحاديث الفتن وأشراط الساعة يعد مظهراً من مظاهر التنفير، خصوصاً إذا شرحت هذه الأحاديث بشرح مغلوط ، أو فهمت بفهم مقلوب ، أو وضع منقوص .

وفي تعليق الشيخ على حديث « بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً »[٢] ، يقول الشيخ : ومن المؤسف أن كثيراً من الأحاديث المتعلقة بـ« آخر الزمان » أو ما يسمى « أحاديث الفتن » و« أشراط الساعة » يفهمها بعض الناس فهماً يوحي باليأس من كل عمل للإصلاح والتغيير . ولا يتصور أن يدعو الرسول الكريم ﷺ الأمة إلى اليأس والقنوط، وترك الفساد يستشري في الناس ، والمنكرات تنخر في عظام المجتمع ، دون أن يصنع الناس شيئاً ، يُقوِّم ما اعْوَجّ ، أو يصلح ما فسد[٣] .

---

(١) يراجع في التفصيل لهذه الظاهرة كتاب : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ١٧٢-١٨٧ .

(٢) رواه مسلم في باب الإيمان رقم (١٤٥) عن أبي هريرة .

(٣) انظر : المبشرات بانتصار الإسلام ص ١٢١ .

ويذكر الشيخ رؤيته وفهمه لهذا الحديث بقوله : والذي أراه أن الحديث يتحدث عن دورات أو موجات تأتي وتذهب ، وأن الإسلام يعرض له ما يعرض لكل الدعوات والرسالات من القوة والضعف ، والامتداد والانكماش ، والازدهار والذبول ، وفق سنن الله التي لا تتبدل ، فهو كغيره خاضع لهذه السنن الإلهية ، التي لا تعامل الناس بوجهين ، ولا تكيل لهم بكيلين ، فما يجري على الأديان والمذاهب يجري على الإسلام، وما يجري على سائر الأمم يجري على أمة الإسلام[1].

* * *

(١) انظر : المرجع السابق ص ١٢٣ .

obeikandl.com

المبحث الثالث

الوضـــوح

الإسلام هو دين الفطرة ومن سمات هذا الدين الوضوح ، قال تعالى : ﴿ قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر : ٢٨]، وقال ﷺ : « قد تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها ولا يزيغ عنها إلا هالك . . »(١) .

واسمع إليه ﷺ وهو يرد على أحد المتكلفين المتشدقين: عن المغيرة بن شعبة قال: ضربت امرأة ضرتها بعمود فسطاط وهي حبلى فقتلتها، قال: فجعل رسول الله ﷺ دية المقتولة على عصبة القاتلة وغرة ، فقال رجل من عصبة القاتلة: أنغرم دية من لا أكل ولا شرب ولا استهل فمثل ذلك يطل؟! فقال رسول الله ﷺ : أسجع كسجع الأعراب »(٢) .

وقد ابتليت الأمة في كثير من الأوقات بأناس تنطعوا في ألفاظهم وكلماتهم ومصطلحاتهم، ظهر هذا التنطع عند الفلاسفة المتكلمين ، وبعض الفقهاء والمتصوفين ، حتى غدت كلمات هؤلاء ألغازاً تحتاج إلى حل ، وأقفالاً تحتاج إلى مفتاح ، وقد حمل الإمام ابن القيم على هؤلاء حملة قوية في كتابه مدارج السالكين فقال :

فأين في كتاب الله أو سنة رسوله أو كلام الصحابة؛ الذين نسبة معارف من بعدهم إلى معارفهم كنسبة فضلهم ودينهم وجهادهم إليهم ما يدل على ذلك أو يشير إليه؟ فصار المتأخرون أرباب هذه الاصطلاحات الحادثة بالألفاظ المجملة، والمعاني المتشابهة أعرف بمقامات السالكين، ومنازل السائرين وغاياتها، من أعلم الخلق بالله بعد رسله ؛ هذا من أعظم الباطل ، وهؤلاء في باب الإرادة والطلب والسلوك نظير أرباب الكلام من المعتزلة والجهمية، ومن سلك

---

(١) رواه أحمد (١٧١٤٢) عن العرباض بن سارية ، وقال مخرجو المسند : حديث صحيح بطرقه وشواهده ، وهذا إسناد حسن، ورواه الحاكم (١ / ٩٦) وابن ماجه (٤٣)، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٩٣٧) .

(٢) رواه مسلم في القسامة رقم (١٦٨٢) عن المغيرة.

سبيلهم في باب العلم والخبر عن الله وأسمائه وصفاته، فالطائفتان بل وكثير من المصنفين في الفقه من المتكلفين أشد التكلف، وقد قال الله تعالى لرسوله: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا يؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا.

فلا تجد هذا التكلف الشديد، والتعقيد في الألفاظ والمعاني عند الصحابة أصلا، وإنما يوجد عند من عدل عن طريقهم، وإذا تأمله العارف وجده كلحم جمل غث، على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل، فيطول عليك الطريق ويوسع لك العبارة، ويأتي بكل لفظ غريب ومعنى أغرب من اللفظ، فإذا وصلت لم تجد معك حاصلاً طائلاً، ولكن تسمع جعجعة ولا ترى طحنا.

فالمتكلمون في جعاجع الجواهر والأعراض، والأكوان والألوان، والجوهر الفرد، والأحوال والحركة والسكون، والوجود والماهية والانحياز، والجهات والنسب والإضافات، والغيرين والخلافين، والضدين والنقيضين، والتماثل والاختلاف، والعرض هل يبقى زمانين؟ وما هو الزمان والمكان؟ ويموت أحدهم ولم يعرف الزمان والمكان، ويعترف بأنه لم يعرف الوجود هل هو ماهية الشيء أو زائد عليها؟ ويعترف أنه شاك في وجود الرب هل هو وجود محض، أو وجود مقارن للماهية؟ ويقول: الحق عندي الوقف في هذه المسألة.

وكذلك كثير من المنتسبين إلى الفقه، لهم مثل هذا التكلف وأعظم منه، فكل هؤلاء محجوبون بما لديهم موقوفون على ما عندهم خاضوا بزعمهم بحار العلم وما ابتلت أقدامهم، وكدوا أفكارهم وأذهانهم وخواطرهم وما استنارت بالعلم الموروث عن الرسل قلوبهم وأفهامهم، فرحين بما عندهم من العلوم، راضين بما قيدوا به من الرسوم، فهم في واد ورسول الله وأصحابه في واد، والله يعلم أنا لم نتجاوز فيهم القول بل قصرنا فيما ينبغي لنا أن نقوله، فذكرنا غيضاً من فيض وقليلاً من كثير[1].

---

(١) انظر: مدارج السالكين ابن القيم ج ٣ ص ٤٣٦ - ٤٤٠ بتصرف.

الوضوح في منهج القرضاوي:

والشيخ القرضاوي يتسم منهجه الدعوي بالوضوح ، وقد اقتبس الشيخ هذه السمة من سمات الدين الخالد ، ومن ثم فقد كانت دعوة الشيخ واضحة كل الوضوح وسوف ألقي الضوء على وضوح دعوة الشيخ كالتالي:

١ – في الألفاظ والكلمات .

٢ – في الأهداف والغايات .

٣ – في الأساليب والوسائل .

٤ – في المواقف الحاسمة .

أولاً : دعوة الشيخ واضحة في الألفاظ والكلمات :

الشيخ القرضاوي في ألفاظه وكلماته الدعوية واضح كل الوضوح فهو يبتعد كل البعد عن المصطلحات الغامضة ، والكلمات المشتبهة ، والألفاظ الوعرة ، والمسالك المطولة ، والتقسيمات الشائكة ، تقرأ هذا في كتابات الشيخ في العقيدة كما في الفقه، وتراها في الدعوة كما تراها في السياسة ، وتلحظ ذلك في كتابات الشيخ ومقالاته ، كما تلحظها في خطبه وكلماته .

إنه صريح كل الصراحة واضح كل الوضوح ، يصل إلى ما يريد بغير ما لف ولا دوران ، لذا ترى الشيخ حين يدعو إلى تيسير الفقه يؤكد على توخي السهولة والتوسط وأن هذا إنما يكون بما يلي:

١ ـ أن يكتب بلغة مبسطة، وأسلوب سهل، بعيد عن الإغراب في الألفاظ، والتكلف في العبارات .

٢ ـ تجنب وعورة المصطلحات التي فيها كثير من الغموض لدى القارئ غير المتخصص ، وترجمتها إلى عبارات سلسة مفهومة للشخص العادي .

٣ ـ التوسط بين الإيجاز الملغز ، الذي عرفت به «المتون» في المذاهب المتبوعة، والتي كان المقصود منها تسهيل الحفظ ، ثم احتاجت المتون إلى شروح، والشروح إلى حواش ، والحواشي أحياناً إلى تقريرات...[1]

ويحمل الشيخ على دعاة الغموض والتكلف ، ويجعل هذا الغموض إنما هو

---

(١) انظر : نحو فقه ميسر معاصر ص ١٦ .

دليل على البعد عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يقول الشيخ : فالقرآن « كتاب مبين » يسره الله للذكر ، وجعله هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان ، وفيه قال سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً** ﴾ [النساء : ١٧٤].

والسنة ـ كالقرآن ـ قدمت أجل الحقائق ، وأشرف المعارف ، وأسمى التوجيهات ، في وضوح رائع ، وبساطة فائقة ، وسهولة مشرقة . لا تكلف فيها ولا تعمل ، ولا تعمق ولا تعقيد ، وقد قال الله لرسوله : ﴿ **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ** ﴾ [ص: ٨٦] .

ومن عاش مع النبي ﷺ في سنته وسيرته ، تبين له هذا الوضوح واليسر كالصبح لذي عينين . وكذلك كان أصحابه رضوان الله عليهم .

وفرق بين أن تقرأ في الاستدلال على وجود الله تعالى قول القرآن الكريم : ﴿ **أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ** ﴾ [الطور: ٣٥ ، ٣٦] وبين أن تقرأ قول المتكلمين في نفس الموضوع : « العالم بجميع أجزائه محدث ، إذ هو أعيان وأعراض ، فالأعيان ما له قيام بذاته . وهو إما مركب وهو الجسم ، أو غير مركب كالجوهر ، وهو الجزء الذي لا يتجزأ . والعرض ما لا يقوم بذاته ، ويحدث في الأجسام والجواهر ، كالألوان والأكوان والطعوم والروائح . والمحدث للعالم هو الله !! اهـ من العقائد النسفية . وفيه ـ مع تكلفه ـ إشكالات واعتراضات، وهو ما كتب في علم الكلام ، فكيف بغيرها ؟!

وفرق بين قوله ﷺ لمن سأله أن يدله على أمر يعتصم به ، فقال « قل آمنت بالله، ثم استقم »(١) وقوله : « البر حسن الخلق . والإثم ما حاك في الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس »(٢).

فرق بين هذا التوجيه الرباني الواضح السهل المنير للعقل والقلب معاً ، وبين تعمقات الفلاسفة ، وتدقيقات المتكلمين ، وتشقيقات بعض الفقهاء ، وتمتمات

---

(١) رواه مسلم في الإيمان رقم (٣٨) عن سفيان بن عبد الله .

(٢) رواه مسلم في البر والصلة برقم (٢٥٥٣) عن النواس بن سمعان .

كثير من الصوفية ، في الأحوال والمقامات، والتقاسيم والتعاريج، التي أكثرها أحاج وألغاز ، لا يتصورها أكثر الناس إلا بصعوبة ، ولا يفهمها إلا بترجمة[1] .

وإذا كان الشيخ يكره الغموض على بعض المنتسبين إلى الإسلام فإنه ينكر كذلك الغموض وعدم الوضوح على الأيدلوجيات الحديثة ودعاتها فيقول : ومن العجيب أن الذين يحاولون التنقص من هذه الخصيصة من خصائص الإسلام ، بالتهويل أو التضخيم في أمر الاختلاف الذي حدث في تاريخ المسلمين ، وإلصاق كل فئة شاذة مارقة بصميم الأمة المسلمة ، هؤلاء يتعامون عن الغموض البيِّن ، والاختلاف البارز ، الذي يراه ويلمسه كل دار للأيديولوجيات الوضعية المعاصرة التي أصبحت « أصنام » هذا العصر ، وغدا هؤلاء ، وأمثالهم من الكتاب « الكهنة » الجدد لهذه الأوثان .

إن هذه الأيدلوجيات الحديثة البراقة ، تفتقر إلى مجرد تعريف دقيق – أو كما يقول المناطقة : جامع مانع - يحدد مدلولها ، ويوضح طبيعتها ومفاهيمها الأساسية ، فإن هذا التعريف المجرد مفقود ، ولهذا يختلفون حولها في كل شيء ، حتى في معناها : ما هو ؟

خذ مثلاً : الديمقراطية ...

فنحن لا نكاد نجد القرن العشرين أيدلوجية اجتماعية ، ولا تنظيمية سياسية ، من الليبرالية ، إلى الاشتراكية ، إلى الشيوعية ، أو حتى الفاشيستية ، أو النازية ، إلا وتدعي كل منها أنها هي « الديمقراطية » الحقة ، وأن ما عداها ديمقراطية زائفة ، وبات الناس حائرين ، أي هذه الديمقراطيات هو الأصيل ، وأيها المدعي ؟

ولا يخرج من هذا الغموض وهذه البلبلة الاحتكام إلى معايير خلقية أو روحية ، لأن الجميع يدعون الحرص على الحرية والمساواة وكرامة الإنسان .

ولا الاحتكام إلى « معايير اجتماعية وضعية » لأن كل فئة ستقدم لنفسها معياراً تبرر به منهجها وأسلوبها ، فمفكرو الديمقراطية الغربية يعتمدون المعيار

---

(١) انظر : كيف نتعامل مع التراث ص ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ .

السياسي ، ويميزون ديمقراطيتهم بالحرية السياسية . على حين يعتمد الماركسيون المعيار الاقتصادي، فيميزون ديمقراطيتهم بالحرية الاجتماعية والاقتصادية .

ويتحدى الصينيون المعيارين معاً خلال ما يسمونه « الديمقراطية الجديدة » . ويتحداها أيضاً الثوريون الآسيويون والإفريقيون من خلال ما يدعونه « الديمقراطية الاشتراكية » .

بل وجدنا من يجمع الضدين ، من خلال ما يسمونه « الدكتاتورية الديمقراطية »[1].

ثانياً : الوضوح في الأهداف والغايات :

ووضوح منهج القرضاوي الدعوي في الأهداف والغايات إنما يستمده من وضوح الإسلام ، أو من الإسلام الواضح ، الإسلام الواضح الذي قال عنه الشيخ : الإسلام الذي ندعو إليه : إسلام واضح وضوح الشمس في رابعة النهار ، إسلام القرآن والسنة ، مصادره واضحة ، أصوله بينة [2].

والأهداف والغايات الدعوية التي ظهرت في دعوة الشيخ القرضاوي ، هي أهداف وغايات شيخه البنا رحمه الله وهذه الأهداف الواضحة للشيخ وشيخه تتمثل في أمور سبعة وهي :

١ – الرجل المسلم في تفكيره وعقيدته ، في خلقه وعاطفيته و في عمله وتصرفه.

٢ – البيت المسلم في تفكيره وعقيدته ، في خلقه وعاطفيته ، في عمله وتصرفه.

٣ – الشعب المسلم في تفكيره وعقيدته ، في خلقه وعاطفيته ، في عمله وتصرفه.

٤ – الحكومة المسلمة التي تقود الشعب إلى المسجد وتحمل الناس على هدي الإسلام .

---

(١) انظر : الخصائص العامة ص ١٩٥- ١٩٧ بتصرف .

(٢) انظر : الإسلام الذي ندعو إليه ص ٩ .

٥ – ضم كل جزء من الوطن الإسلامي الذي فرقته السياسة الغربية وأضاعت وحدته المطامع الأوربية .

٦ – أن تعود راية الله إلى كل البقاع التي سعدت بالإسلام جبناً من الدهر.

٧ – عالمية الدعوة ونشرها في كل آفاق الأرض [١].

ثالثاً : الوضوح في الوسائل والأساليب :

وهذا ما عرف به الشيخ القرضاوي منذ نعومة أظفاره ، فلم يكن غامضاً في وسائله وأساليبه الدعوية ، وهذه وسائله المقروءة، والمسموعة، والمرئية، كلها تشهد بالوضوح .

ولعل قائلاً أن يقول : وأين الوضوح وشيخكم ظل فترة طويلة جندياً بل قائداً في جماعة «الإخوان المسلمون» ودعوتها ؟

ولهؤلاء نقول : وما العيب في انضمام الشيخ إلى جماعة ما ؟

وما الخطأ في انضمامه إلى جماعة ما ؟

وما المحرم في انضمامه إلى جماعة ما أيّاً كانت هذه الجماعة ؟

أو ليس العمل لنصرة الإسلام من أجل الأعمال ؟

أو ليس التعاون على البر والتقوى من آكد الفروض ؟

أو ليس الشيطان قريباً من الواحد أشد من قربه من الاثنين أو الثلاثة، فضلاً عن الجماعة ؟

ولهذا حمل الشيخ على من يقول بعدم شرعية العمل الجماعي فقال : ومما يجب التنبيه عليه، ولا يحسن السكوت عنه هنا : ما يشيعه بعض الأفراد وبعض الفئات التي تحمل النسب الإسلامي، من أفكار تتعلق بهذا الجانب .

ومن ذلك ما صدر لبعضهم من حكم أو فتوى تجعل أي تكوين لجماعة ، أو انتساب إليها عملاً محرماً ، وابتداعاً في الدين لم يأذن به الله ، سواء سميت هذه المؤسسة جماعة أو جمعية أو حزباً ، أو ما شئت من الأسماء والعناوين .

وهذه جرأة غريبة على دين الله ، وتهجم على الشرع بغير بينة ، وتحريم

---

(١) انظر : مجموع الرسائل الإمام البنا ص ١٧٧ ، ١٧٨ باختصار ، والإخوان المسلمون القرضاوي ص ٨٦ ، ٨٧ ، والخصائص العامة للإسلام القرضاوي ص ١٨٢ وما بعدها .

لما أحل الله بغير سلطان . فالأصل في الأشياء والتصرفات المتعلقة بعادات الناس ومعاملاتهم الإباحة . وتكوين الجماعات العاملة للإسلام منها .

بل الصواب أن تكوين هذه الجماعات مما توجبه نصوص الشرع العامة، وقواعده الكلية . فالله تعالى يقول: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ [المائدة: ٢]. ويقول: ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]

والرسول ﷺ يقول : «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً»(١) ، «يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ في النار»(٢).

إن العمل الجماعي لنصرة الإسلام ، وتحرير أرضه ، وتوحيد أمته ، وإعلاء كلمته فريضة وضرورة . فريضة يوجبها الدين ، وضرورة يحتمها الواقع ، والعمل الجماعي يعني تكوين جماعات أو أحزاب تقوم بهذا الواجب (٣).

والحق أن جماعة «الإخوان المسلمون» خصوصاً وأي جماعة من الجماعات التي تعمل للإسلام لم تذهب إلى السرية في عملها إلا حين ألجأتها الحكومات إلى هذا وإلا فإن هذه الجماعات بأكملها لو أعطيت لها الفرصة ، وفتحت لها أبواب الحرية ، لما لجأوا إلى السرية في عملهم أبداً .

وقد عد الشيخ الوضوح من أهم ملامح وقسمات الحركة الإسلامية في الغد فقال: أن تتجنب الثنائية في القيادة والعمل ، فلا تسمح بوجود قائد سري ، وآخر علني ، ونظام في النور، وآخر تحت الأرض ، وقادة رسميين ظاهرين في «الفترينة» وآخرين أخفياء يعملون في «الورشة» ! وإنما جماعة واحدة ، وقيادة واحدة ، وعمل مشترك ، يتحمل الجميع مسئوليته »(٤).

---

(١) متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان (١٦٧٠)، رواه البخاري في الصلاة رقم (٤٨١)، ومسلم في البر والصلة رقم (٢٥٥٨٥) عن أبي موسى.

(٢) رواه الترمذي في الفتن (٢١٦٧) والحاكم (٢٠٠١) وذكره الألباني في صحيح الترمذي برقم (٣٨٢).

(٣) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص ٦٦٣ ، ٦٦٤ بتصرف.

(٤) انظر : الحل الإسلامي فريضة وضرورة ص ٢٢٨ .

رابعاً : الوضوح في المواقف الحاسمة :

في بعض الأوقات يؤثر الإنسان السلامة لنفسه، حرصاً على البقاء، أو خوفاً على الرزق؛ وإن استساغ الناس هذا الأمر، فإن للدعاة موقفاً مغايراً، ورأياً مخالفاً.

والشيخ القرضاوي يعرف بالوضوح كل الوضوح، وخصوصاً في المواقف الحاسمة التي تحتاج إلى بيان، وتنتظر الأمة فيها أن تسمع كلمة العلماء .

إنه لا يحب في المواقف الحاسمة اللف ولا الدوران ، ولا يلجأ إلى التمييع ولا الإرجاء، ولكنه يعلنها صريحة وإن كلفه الأمر ما كلفه مردداً قول أمير الشعراء:

قف دون رأيك في الحياة مجاهداً إن الحياة عقيدة وجهاد

وعلى نحو ما قال الشاعر :

فإما حياة تسر الصديق وإما ممات يغيظ العدا

إن الوضوح من الشيخ في المواقف الحاسمة مطلوب لأنه عالم من أبرز علماء الأمة، وإذا لم يظهر العلماء بمواقفهم الحاسمة فعلى الدنيا السلام ، وقد قال القائل :

يا أيها العلماء يا ملح البلد ما يصلح الملح إذا الملح فسد ؟

إن الشيخ القرضاوي لا يسعه السكوت إذا احتاج الموقف إلى الكلام، ولا يسعه الصمت إذا احتاج الموقف إلى حديث ،ولا يسعه التنحي إذا احتاج الموقف إلى مواجهة، وكثيراً ما ينتظر الناس كلمة الشيخ في هذه المواقف الحاسمة.

وفي أزمة العراق الأخيرة تغيب الشيخ عن منبره في الدوحة مدة طويلة ، من منتصف شهر شعبان ١٤٢٣ هـ حتى أوائل المحرم ١٤٢٤ هـ ، حتى ظن الناس بالشيخ الظنون، وتوهموا الأوهام ، وأشاعوا الأقاويل ، فمنهم من قال : منع الشيخ من الخطابة ، ومنهم من قال : إن الشيخ لم يمنع ولكنه آثر السلامة لحساسية الموقف فانسحب مختاراً ، وقد أساءوا بالشيخ الظن ، وهنا رد الشيخ على هؤلاء بقوله في خطبته الأولى التي كانت بتاريخ ٧ / ٣ / ٢٠٠٣ م :

سألني من سألني: ما موقفك في هذه القضية ؟ وأنا قد أعلنت موقفي أيها الأخوة، لم أخبئ موقفي ولم أخرس لساني أبداً، أعلنت موقفي في أكثر من مرة في برنامج «الشريعة والحياة»، وأعلنت موقفي للصحف، وأعلنت موقفي للإعلام في بريطانيا وفي بعض البلاد الأوروبية، وأعلنت موقفي لصحفيين أمريكيين زاروني هنا في قطر وسألوني ما موقفي ؟

موقفي موقف معروف غير مجهول، مكشوف غير مستور، لأنه لا يمكن إلا أن يكون موقف الشرع الإسلامي من هذه القضية، ما موقف الشرع من غزو بلد إسلامي؟ هل يجهل أحد هذا الموقف؟ هل هذا الحكم الشرعي مجهول لأحد؟ إن جميع الفقهاء من جميع المذاهب كلهم يقولون: إذا غزا الكافر بلداً مسلماً فإن على جميع أهله أن يخرجوا وينفروا لمقاومته وطرده من ديارهم، هذا يعتبر فرض عين على أهل البلد جميعاً رجالهم ونسائهم، كل من يقدر على المقاومة لابد أن يقاوم حتى قال الفقهاء: تسقط الحقوق الفردية في هذه الحالة فتخرج المرأة بغير إذن زوجها، ويخرج الولد بغير إذن أبيه، ويخرج الخادم بغير إذن سيده، لأن حق الجماعة وحق الأمة فوق حقوق الأفراد، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، على أهل البلد أن يقاوموا الغزاة خفافاً وثقالاً، مجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، فإن قدروا على طردهم وإخراجهم من ديارهم فبها ونعم، وإلا انتقلت الفرضية إلى جيرانهم ومن يليهم من المسلمين، فيجب عليهم أن ينضموا إليهم ويقاوموهم بما يستطيعوا من الرجال والمال والسلاح، ويصبحوا جماعة واحدة في مقاومة الغزاة المحتلين، فإن عجز من يليهم انتقل الواجب إلى من يليهم، ثم من يليهم، حتى يشمل المسلمين كافة.

* * *

المبحث الرابع

الوسطية

من أبرز خصائص الإسلام خصيصة الوسطية، والوسطية تعني التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير، ويطرد الطرف المقابل[1].

والحق أن الكون كله إنما قام على التوسط والاعتدال، ولا يكاد شيء في الكون كله يخرج عن هذه الخصيصة، قال تعالى: ﴿ **وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ** ﴾ [الرحمن: ٧ - ٩].

وللإمام الشاطبي كلام رائع يوضح فيه ميزة الوسطية فيقول رحمه الله: المفتي البالغ ذروة الدرجة هو الذي يحمل الناس على المعهود الوسط فيما يليق بالجمهور، فلا يذهب بهم مذهب الشدة ولا يميل بهم إلى طرف الانحلال، والدليل على صحة هذا: أنه الصراط المستقيم الذي جاءت به الشريعة؛ فإنه قد مر أن مقصد الشارع من المكلف الحمل على التوسط من غير إفراط ولا تفريط، فإذا خرج عن ذلك في المستفتين خرج عن قصد الشارع، ولذلك كان ما خرج عن المذهب الوسط مذموما عند العلماء الراسخين، وأيضا فإن هذا المذهب كان المفهوم من شأن رسول الله ﷺ وأصحابه الأكرمين، وقد رد عليه الصلاة والسلام التبتل[2]، وقال لمعاذ لما أطال بالناس في الصلاة: «أفتان أنت يا معاذ؟»[3]، وقال: «سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا»[4]

---

(١) انظر: الخصائص العامة للإسلام القرضاوي ص ١١٥.

(٢) رواه البخاري في النكاح برقم (٥٠٧٣) ومسلم في النكاح رقم (١٤٠٢) عن سعد بن أبي وقاص بلفظ «رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل ولو أذن له لاختصينا».

(٣) رواه البخاري في الأدب رقم (٦١٠٦) ومسلم في الصلاة رقم (٤٦٥) عن جابر بن عبد الله.

(٤) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٦٣) عن أبي هريرة..

وقال: «عليكم من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا »[1] وكثير من هذا .

وأيضا فإن الخروج إلى الأطراف خارج عن العدل ولا تقوم به مصلحة الخلق؛ أما في طرف التشديد فإنه مهلكة، وأما في طرف الانحلال فكذلك أيضا؛ لأن المستفتى إذ ذهب به مذهب العنت والحرج بغض إليه الدين، وأدى إلى الانقطاع عن سلوك طريق الآخرة وهو مشاهد، وأما إذا ذهب به مذهب الانحلال كان مظنة للمشي مع الهوى والشهوة ؛ والشرع إنما جاء بالنهي عن الهوى، واتباع الهوى مهلك والأدلة كثيرة .

فعلى هذا يكون الميل إلى الرخص في الفتيا بإطلاق مضاد للمشي على التوسط كما أن الميل إلى التشديد مضاد له أيضا، وربما فهم بعض الناس أن ترك الترخص تشديد فلا يجعل بينهما وسطا وهذا غلط ، والوسط هو معظم الشريعة وأم الكتاب[2] .

والشيخ القرضاوي من دعاة الوسطية ، بل يعد من أبرز دعاتها، وقد اتسمت دعوة الشيخ بالوسطية، كما عرف منهجه الدعوي بالاعتدال ، يقول حفظه الله موضحاً خصائص منهجه في الفتوى: ومن خصائص المنهج الذي سرت عليه: التزام روح التوسط دائماً، والاعتدال بين التفريط والإفراط. بين الذين يريدون أن يتحللوا من عرى الأحكام الثابتة بدعوى مسايرة التطور من المتعبدين بكل جديد ، وبين الذين يريدون أن يظل كل ما كان على ما كان من الفتاوى والأقاويل والاعتبارات، تقديساً منهم لكل قديم[3].

ويرى الشيخ بأن الوسطية هي الطابع العام والسمة الأصلية لثقافتنا وحضارتنا الإسلامية ـ بصفة عامة ـ على امتداد القرون [4].

ولقد ظهرت هذه الوسطية في كتابات الشيخ كما هو واضح في أولويات الحركة الإسلامية وفي فقه الأولويات ، والصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي،

---

(١) رواه البخاري في الصوم رقم (١٩٧٠)، ومسلم في صلاة المسافرين رقم (٧٨٥) عن عائشة وهذا لفظ البخاري.

(٢) انظر : الموافقات الشاطبي ج ٤ ص ٢٥٨- ٢٦٠ .

(٣) انظر : فتاوى معاصرة ج١ ص ٢١ .

(٤) انظر : الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد ص ١٥ .

ومستقبل الأصولية الإسلامية ، والصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ، وأوليات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة .... وغيرها .

ووسطية الشيخ تظهر حتى في عناوين كتبه ، فهو يتخذ موقفاً وسطاً بين طرفين، بين الغاليين والمقصرين ، بين المتشددين والمتساهلين ، وقد زادت هذه الكتب « البينية » عن العشر كتب وهي :

١ – الفتوى بين الانضباط والتسيب .
٢ – الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد .
٣ – الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط .
٤ – الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة .
٥ – الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف .
٦ – الصحوة الإسلامية بين الآمال والمحاذير .
٧ – الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم .
٨ – الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه .
٩ – النقاب للمرأة بين القول ببدعيته والقول بوجوبه .
١٠ – الجويني إمام الحرمين بين المؤرخين الذهبي والسبكي .
١١ – ثقافتنا بين الانغلاق والانفتاح .

وقد لاحظ بعض الدارسين هذا على كتابات الشيخ ، بل إن الشيخ يسعى إلى تكوين جمعية ثقافية أسماها « جمعية الأمة الوسط في الفكر والثقافة » (١).

لماذا اختار القرضاوي الوسطية ؟

والشيخ القرضاوي في تبنيه لمنهج الوسطية في الدعوة إنما اختاره لعدة أسباب :

١ ـ أن هذه الأمة هي الأمة الوسط بنص كتاب الله ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ [البقرة : ١٤٣](٢).

٢ ـ أن الوسطية السمة الأصلية للحضارة الإسلامية على مرِّ القرون .

---

(١) انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ٢٦١ .

(٢) من اللطائف أن هذه الآية تتوسط سورة البقرة حيث أن رقمها ١٤٣ ، وسورة البقرة آياتها ٢٨٦ .

٣ ـ أن الكون كله قائم على الوسطية والاعتدال .

٤ ـ أن طبيعة الإنسان قائمة على الوسطية بين المادية والروحية ، وبين الجماعة والفردية .

٥ ـ أن الوسطية تمثل منطقة الأمان والبعد عن الخطر ، فالأطراف عادة تتعرض للخطر والفساد بخلاف الوسط فهو محمي ومحروس بما حوله؛ وفي هذا قال الشاعر:

كانت هي الوسط المحمي فاكتنفت بها الحوادث حتى أصبحت طرفاً[١]

٦ ـ أن الوسطية هي إحدى السمات الظاهرة والخصائص الواضحة في الإسلام؛ فهو وسط في الاعتقاد والتصور ، وسط في التعبد والتنسك ، وسط في الأخلاق والآداب، وسط في التشريع والنظام [٢].

٧ ـ أن الوسطية أطول عمراً وأكثر بقاءً ، وأشد نفعاً من التفريط أو الإفراط.

٨ ـ أن الوسطية هي طوق النجاة للدعوة الإسلامية؛ بل للأمة الإسلامية كلها[٣] .

٩ ـ أن الإعراض عن الوسطية هو الهلاك بعينه والضياع في الدين والدنيا معاً سواء كان هذا الإعراض جنوحاً إلى جانب التسيب والانفلات ، أم كان الإعراض عن الوسطية جنوحاً إلى جانب الغلو والتنطع والتشدد [٤].

وقد أبرز الشيخ أهم ثلاث نقاط قادته إلى الوسطية فقال :

العامل الأول : عامل أساسي: أنه هذا الطريق الذي اسمه الوسطية الإسلامية ، وهو طريق لم نبتدعه ، فهو يعبر عن روح الإسلام ، وهو التيار الذي أعبر عنه ، وجندت نفسي في السنوات الأخيرة ، ومنذ فترة للعمل من أجله ، وهو تيار الوسطية الإسلامية .. وهذه الوسطية ليست ابتداعاً من عندي إنما هي روح الإسلام الحقيقي ، الذي عبر عنه القرآن بقوله : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً** ﴾ [البقرة: ١٤٣] . فالقرآن يدعونا إلى هذه الوسطية حيث يقول الله

(١، ٢) انظر : الخصائص العامة للإسلام ص ١٢١، ١٢٢ .

(٣) انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ٢٤١ .

(٤) انظر : المرجع السابق ص ٢٤٢ .

تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ *أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٨، ٩]. والطغيان في الميزان الزيادة عن الحد، والاخسار نقص عن المطلوب .. لا إفراط ولا تفريط، هذا هو المنهج الإسلامي الصحيح، والنبي ﷺ يقول: «إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين»(١).

العامل الثاني: عامل التجربة: فهو أني نشأت في مدرسة تعمل في خدمة الإسلام، هذه المدرسة قام عليها رجل يتميز بالاعتدال في فكره وتحركه وعلاقاته، وذلك هو الإمام الشهيد حسن البنا .. فقد كان هذا الرجل أمة واحدة في هذه الناحية، حيث كان يتعامل مع جميع الناس حتى كان بعض مستشاريه من الأقباط،، وأدخلهم اللجنة السياسية، وكان يصطحب بعضهم في المؤتمرات، ورأى التقارب مع الشيعة ولذلك استقبل زعمائهم في المركز العام في القاهرة «المركز العام للإخوان المسلمين» .. فهذا الاعتدال عندي من تأثري أيضاً من اتجاه حسن البنا ومدرسته.

العامل الثالث: عامل شخصي: وهو أنني شخصياً ممن وهبهم الله فطرة الاعتدال والتوازن في النظر إلى الأمور: فأحب دائماً ألا أكون من المغالين إلى اليمين، ولا المتطرفين إلى اليسار وهذه موهبة إلهية .. وبعض الناس يميلون إلى التشدد، وبعضهم يميل إلى التحلل والتسيب، وأنا أجد نفسي دائماً في الموقف الوسط ..(٢).

المعالم المميزة لتيار الوسطية عند القرضاوي:

والشيخ القرضاوي حين دعا إلى الوسطية وقاد تيارها، كانت هذه الوسطية ذات معالم واضحة عند الشيخ، لأن هذا التيار الوسطي هو المخلص والملاذ للأمة من تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين(٣).

---

(١) رواه أحمد (١٨١٥) ابن عباس، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، ورواه أبو يعلي (٢٤٧٢) وابن ماجه (٣٠٢٩)، والحاكم (٤٦٦١). وذكره الألباني في صحيح النسائي رقم (٢٨٦٣).

(٢) انظر: لقاءات ومحاورات ج٢ ص ٤٩-٥٠.

(٣) انظر: الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ٢٥٤.

وأهم معالم هذا الفكر الوسطي كما يراه الشيخ هي أنه :

وسط بين دعاة المذهبية الضيقة ، ودعاة اللامذهبية المنفرطة .

وسط بين أتباع التصوف وإن انحرف وابتدع ، وأعداء التصوف ، وإن التزم واتبع .

وسط بين دعاة الانفتاح على العالم بلا ضوابط ، ودعاة الانغلاق على النفس بلا مبرر.

وسط بين المحكمين للعقل : وإن خالف النص القاطع، والمغيبين للعقل : ولو في فهم النص .

وسط بين المقدسين للتراث، وإن بدا فيه قصور البشر ، والملغين للتراث ، وإن تجلت فيه روائع الهداية .

وسط بين المستغرقين في السياسة على حساب التربية ، والمهملين للسياسة كلية بدعوى التربية .

وسط بين المستعجلين لقطف الثمرة قبل أوانها ، والغافلين عنها حتى تسقط في أيدي غيرهم بعد نضجها .

وسط بين المستغرقين في الحاضر الغائبين عن المستقبل ، والمبالغين في التنبؤ بالمستقبل كأنه كتاب يقرءونه .

وسط بين المقدسين للأشكال التنظيمية كأنها أوثان تعبد ، والمتحللين من أي عمل منظم كأنهم حبات عقد منفرط .

وسط بين الغلاة في طاعة الفرد للشيخ والقائد كأنه الميت بين يدي الغاسل، والمسرفين في تحرره كأنه ليس عضواً في جماعة .

وسط بين الدعاة إلى العالمية دون رعاية للظروف والملابسات المحلية ، والدعاة إلى الإقليمية دون أدنى ارتباط بالحركة العالمية .

وسط بين المسرفين في التفاؤل متجاهلين العوائق والمخاطر ، والمسرفين في التشاؤم فلا يرون إلا الظلام ، ولا يرقبون للظلام فجراً .

وسط بين المغالين في التحريم كأنه لا يوجد في الدنيا شيء حلال ، والمبالغين في التحليل كأنه لا يوجد في الدنيا شيء حرام .

وسط بين الذين ينكرون الإلهام مطلقاً ، فلا يعترفون بوجوده ولا بأثره ... والذين يبالغون في الاعتداد به ، حتى جعلوه مصدراً للأحكام الشرعية .

وسط بين دعاة التشدد ولو في الفروع والجزئيات .. ودعاة التساهل ولو في الأصول والكليات .

وسط بين فلسفة المثاليين الذين لا يكادون يهتمون بالواقع .. وفلسفة الواقعيين الذين لا يؤمنون بالمثل العليا .

وسط بين دعاة الفلسفة «الليبرالية» التي تعطي الفرد وتضخمه على حساب المجتمع.. ودعاة الفلسفة الجماعية « الماركسية» التي تعطي المجتمع وتضخمه على حساب الفرد .

وسط بين دعاة الثبات ولو في الوسائل والآلات .. ودعاة التطور ولو في المبادئ والغايات .

وسط بين دعاة التجديد والاجتهاد وإن كان في أصول الدين وقطعياته .. ودعاة التقليد وخصوم الاجتهاد وإن كان في قضايا العصر التي لم تخطر ببال السابقين .

وسط بين الذين يهملون النصوص الثابتة بدعوى مراعاة مقاصد الشريعة .. والذين يغفلون المقاصد الكلية باسم مراعاة النصوص .

وسط بين دعاة الغلو في التكفير حتى كفروا كل المسلمين المتدينين .. والمتساهلين فيه ولو مع صرحاء المرتدين .

هذه هي الوسطية التي تبناها هذا الفكر ، وإن كان الغالب على مجتمعاتنا اليوم : السقوط بين طرفي الإفراط والتفريط ، إلا من رحم ربك ، وقليل ما هم[1] .

وتتلخص معالم هذا الفكر الوسطي عند الشيخ في عدة نقاط :

١ – فقهه للدين فقهاً يتميز بالشمول والاتزان والعمق .

٢ – فقهه لواقع الحياة دون تهوين ولا تهويل : لواقع المسلمين، وواقع أعدائهم .

---

(١) انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، وانظر : الشيخ يوسف القرضاوى شخصية العالم ص ١٤٥ وأولويات الحركة الإسلامية ١٠٧ .

٣ – فقه سنن الله وقوانينه التي لا تتبدل، وخصوصاً سنن الاجتماع البشري.

٤ – فقه مقاصد الشريعة وعدم الجمود على ظواهرها.

٥ – فقه الأولويات، وهو مرتبط بفقه الموازنات .

٦ – فقه الاختلاف وأدبه مع الفصائل الإسلامية الأخرى (التعاون في المتفق عليه والتسامح في المختلف فيه) .

٧ – الجمع بين السلفية والتجديد (أو بين الأصالة والمعاصرة) .

٨ – الموازنة بين ثوابت الشرع ومتغيرات العصر.

٩ – الإيمان بأن التغيير الفكري والنفسي والخلقي أساس كل تغيير حضاري.

١٠ – تقديم الإسلام مشروعاً حضارياً متكاملاً لبعث الأمة ، وإنقاذ البشرية من الفلسفات المادية المعاصرة .

١١ – اتخاذ منهج التيسير في الفتوى ، والتبشير في الدعوة.

١٢ – إبراز القيم الاجتماعية والسياسية في الإسلام ، مثل : الحرية والكرامة والشورى والعدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان .

١٣ – الحوار بالحسنى مع الآخر ، أي المخالفين من غير المسلمين ، أو من المسلمين المغزوين عقلياً، والمهزومين روحياً.

١٤ – اتخاذ الجهاد سبيلاً للدفاع عن حرمات المسلمين وديار الإسلام[١].

ولما تحدث الشيخ عن جيل النصر المنشود وصف هذا الجيل بالوسطية والتوسط والتوازن والاعتدال في كل شيء فقال : وهم ـ مع صلابتهم وقوتهم وجهادهم وغيرتهم ـ متوازنون معتدلون، على صراط مستقيم، لا يميلون إلى اليمين، ولا ينحرفون إلى الشمال ، لا يَغْرَقون في الماديات ، ولا يُغْرِقون في

---

(١) انظر : فقه الأولويات ص ١٩٠ ، ١٩١ ، و للتوسع في شرح هذه المعالم انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ٢٦٦ وما بعدها ، والصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي ص ٤٢ وما بعدها .

الروحانيات، يعلمون أن لربهم عليهم حقاً، وأن لأنفسهم عليهم حقاً، ولأسرهم عليهم حقاً، ولمجتمعهم عليهم حقا، فهم يعطون كل ذي حق حقه، غير جانحين إلى الإفراط، ولا مائلين إلى التفريط ، لا يطغون في الميزان ولا يخسرون، بل يقيمون الوزن بالقسط ولا يخسروا الميزان [١].

ويقول أيضاً : لا يهملون الجسم من أجل تصفية الروح، ولا يغفلون الروح من أجل متاع الجسم. يمزجون بين الروح والمادة ، ويربطون بين الدنيا والآخرة، ويجمعون بين العلم والإيمان ، بين الواقعية والمثالية، بين العقل الذكي والقلب النقي، بين الثبات على الغايات والتطور في الأساليب ، بين أداء الواجبات وطلب الحقوق،، بين الحرص على القديم والاستفادة من الجديد ، لا ينقطعون عن الماضي، ولا ينعزلون عن الحاضر، ولا يُفرِّطون في قديم نافع، ولا يضيقون بجديد صالح [٢].

ومن شعر الشيخ في ذلك وهو يدعو شباب الإسلام إلى التوسط والاعتدال فيقول في قصيدته «ابن الإسلام »:

يا ابن الحنيفة دين الحق، ها هو ذا يدعوك، فانهض وشمر عاملا نشطا
خير الأمور سبيل القصد، فامض به ولا تمل عنه ، لا وكساً ولا شططا
بين المغالاة والتقصير منزلة هي التي جعلتنا أمة وسطا
فاثبت على منهج الإسلام في ثقة مستعلياً يتحدى ضغط من ضغطا
والزم طريق رسول الله في صبر وفي اعتدال، وجانب خلط من خلطا[٣]

* * *

(١) انظر : جيل النصر المنشود ص ٤٥ ، ٤٦ .
(٢) انظر : المرجع السابق ص ٤٨ ، ٤٩ .
(٣) انظر : المسلمون قادمون ص ٣٦ ، ٣٧ .

المبحث الخامس
التجميع لا التفريق

من أعجب المفرقات أن هذه الأمة أراد الله لها أن تكون أمة واحدة ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الأنبياء: ٩٢] . وأراد أعداؤها أن تكون أمماً متناحرة ، أو أمماً متناثرة، والأعجب أن هذه الأمة اختارت ما أراده الأعداء لا ما أراده الله ، وآثرت الوحدة والفرقة على الجماعة والالتئام .

ولعل من آفات العمل الإسلامي والحركة الإسلامية ، التناحر فيما بينها ، حتى بدا اعتزاز كل فصيل بنفسه ، وازدرائه لغيره أمراً واضحاً لكل ذي عينين ؛ وكأنهم لم يسمعوا قول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٣] .

إن الوقت الذي تعيشه الأمة الآن ليس وقت الخلافات والتشاجر، ولا وقت الخصومات والتناحر، وهذا ما نوه عليه الشيخ الغزالي رحمه الله لأحد الشباب المتحمسين: اسمع يا بني لماذا تحبون الخصومات العلمية القديمة؟ كانت هذه الخصومات ودولة الإسلام ممدودة السلطة، خفيفة الضرر، إنكم اليوم تجددونها ودولة الإسلام ضعيفة، بل لا دولة له، فلم تعيدونها جذعة، وتسكبون عليها من النفط ما يزيدها ضراماً ؟[1].

ضرورة التجميع:

والشيخ القرضاوي حفظه الله من أشد الدعاة إلى توحيد الكلمة ، ومن أبرز الدعاة إلى توحيد الصف ، وهو في دعوته للتجميع إنما يرى أن ذلك التجميع ضرورة لأنه :

أولاً : أمر دعت إليه آيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ .

---

(١) انظر : هموم داعية محمد الغزالي ص١٧ ط الأولى دار الحرمين للطباعة والنشر ١٩٨٣م.

ثانياً : أمر عاشه السلف الصالح .

ثالثاً : أن واقع الأمة وظروفها وضروراتها تقتضي ذلك [١].

والشيخ يرى بأن التجميع أمر واجب على الأمة وأنه : لو لم يكن منطق الدين يفرض عليهم أن يجمعوا صفهم ولا يتفرقوا ، لكان منطق الحياة ومنطق الواقع يفرض عليهم ذلك ، فإن الأهداف الكبيرة لا تتحقق إلا بتكاتف القوى ، والأعمال العظيمة لا تتم إلا بتضافر الجهود ، كما قال ذو القرنين للقوم الذين طلبوا منه أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سداً، ويدفعوا له مبلغاً من المال، فعرض عليهم ما هو أجدى وأرشد من ذلك ﴿ **قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً** ﴾ [الكهف: ٩٥] . فبالتعاون بينه وبين القاعدة الشعبية ـ مع عون الله تعالى وتمكينه ـ أمكنه أن يبني سده العظيم .

يؤيد هذا المنطق ويؤكده : أن أعداء الأمة يتكتلون بعضهم مع بعض ، ويوالي بعضهم بعضا ، ويتفقون على الكيد للمسلمين رغم اختلافهم فيما بينهم ، يشير إلى ذلك القرآن حين يقول : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ** ﴾ [الأنفال :٧٣][٢] .

ولهذا فإن الشيخ القرضاوي أصّل قاعدة المنار الذهبية التي قال فيها شيخه العلامة «رشيد رضا» : نتعاون فيما اتفقنا فيه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه ؛ ومما قاله الشيخ القرضاوي في هذا الصدد : وهل يمكن لعالم مسلم يرى تعاون اليهودية العالمية ، والصليبية الغربية ، والشيوعية الدولية ، والوثنية الشرقية ، خارج العالم الإسلامي ـ إلى جوار الفرق التي انشقت عن الأمة ومرقت عن الإسلام ، داخل العالم الإسلامي ـ إلا أن يدعو أهل القبلة الذين التقوا على الحد الأدنى من الإسلام ، ليقفوا صفاً واحداً في وجه هذه القوى الجهنمية التي تملك السيف والذهب ، وتملك قبلهما المكر والدهاء والتخطيط ، لتدمير هذه الأمة مادياً ومعنوياً ؟! [٣]

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج ٢ ص ١٣١ بتصرف .

(٢) انظر : أمتنا بين قرنين ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٣) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص ١٣١ .

وقد كان الشيخ القرضاوي شديد الإعجاب بشيخيه «البنا» و«رشيد رضا» رحمهما الله؛ وكان من أسباب إعجابه هو محاولة التجميع التي عرف بها كلا الشيخين، فهو يقول عن «الشيخ رضا» وقاعدته الذهبية : ولم يضع «السيد رشيد» هذه القاعدة من فراغ، بل الذي يظهر للمتأمل أنه إنما استنبطها من هداية الكتاب والسنة وهدي السلف الصالح ، وإملاء الواقع وظروفه وضروراته [١].

ويقول عن شيخه «البنا» : وقد كان التكوين العقلي والنفسي لحسن البنا يتجه إلى البناء لا الهدم وإلى الجمع لا التفريق[٢] .

ويقول في موضع آخر: فالرجل يريد أن يجمع الأمة على الأهداف الكبرى، وأن يحشد صفوفها على اختلاف وجهاتها في مقابلة القوى المعادية للإسلام جهراً والمتربصة به سراً ، ويحرص على أن تتناسى الخلافات الجزئية فيما بينها لتقف أمام أعدائها صفاً كأنهم بنيان مرصوص [٣].

والذي يؤلم الشيخ أن يرى أهل الباطل يتقاربون ، وأهل الضلال يتحدون، إنه يتألم حين يرى تقارب الكنائس والمذاهب النصرانية وتباعد المسلمين ، ويتألم أكثر حين يرى تقارب النصرانية العالمية مع أختها الكبرى اليهودية العالمية ، على ما بينهما من دماء وحروب ، وفي المقابل يرى اختلاف المسلمين في الكليات لا في الفروع وتقاتلهم على الجزئيات قبل الأصول ، يقول الشيخ حفظه الله : لقد رأينا الكنائس والمذاهب النصرانية يتقارب بعضها مع بعض ، رغم أن كل مذهب يعتبر ديناً مستقلاً بذاته ، وإن انتسبوا جميعاً إلى المسيحية ، فالكاثوليكية غير البروتستانتية ، وكلتاهما غير الأرثوزكسية ، وقد وقع بين هذه المذاهب من الصراعات والحروب ما انتفخت به بطون الكتب ، وما سجله التاريخ بمداد من الدم الأحمر ، ثم وجدوا المصلحة في تناسي هذا كله، والاتفاق على الحد الأدنى .

بل رأينا المسيحية تتقارب مع اليهودية، برغم العداء التاريخي بينهما ، وبرغم ما صنعه اليهود بالمسيح عليه السلام ، رأينا ذلك في الفاتيكان وتبرئة

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج ٢ ص ١٣١ .

(٢، ٣) انظر : شمول الإسلام ص ٣٠ ، ٣١ .

اليهودية من دم المسيح، ورأينا ذلك في المسيحية الأصولية ومساندتها المتحمسة والمتعصبة لدولة إسرائيل. رأينا ذلك أخيراً في اعتذار بابا الفاتيكان «يوحنا بولس الثاني» بصراحة عما وقع لليهود على يد الكنيسة المسيحية.

ورأينا اليهودية والوثنية الهندوسية تتعاونان وتتحالفان سراً وعلانية، ورأينا الشيوعية الروسية السوفيتية والرأسمالية الأمريكية الغربية ـ في زمن الحرب الباردة ـ تتعايشان سلمياً، بل تعقدان سياسة الوفاق من أجل المصلحة المشتركة.

فلماذا يكون المسلمون دون غيرهم، هم الاستثناء الوحيد في العالم، ليظلوا مناكرين غير متعارفين، متباعدين غير متقاربين، متخاذلين غير متناصرين، متفرقين غير مجتمعين ؟[1].

ويقول في موضع آخر: ونحن نرى خصوم الإسلام يعملون في صورة تجمعات و تكتلات كبرى، وبذلك يتمكنون من تحقيق أهدافهم الإقليمية والعالمية، بتكاتفهم وتساندهم، وفناء بعضهم في بعض.

وهم بذلك يطبقون ما أوجبه ديننا، فلو لم يكن هذا ديناً مفروضاً من الله علينا لوجب علينا أن نقتبسه، حتى لا نختلف عنهم.

وإذا جاز لبعض الناس أن يتفرقوا ويختلفوا في أوقات العافية والرخاء والنصر، فلا يجوز لهم بحال أن يتفرقوا في ساعات الشدة والعسرة والمحنة، فالمفروض أن المحن تجمع المتفرقين، وأن المصائب يجمعن المصابين، وقديماً قال الشاعر:

عند الشدائد تذهب الأحقاد .....[2]

ويؤكد الشيخ على ضرورة الالتحام وخصوصاً بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ م فيقول: ونحن الآن نعاني محنة قاسية، وقوارع شديدة، في كل وطن من أوطاننا، وفي أمتنا بصفة عامة، وخصوصاً بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، دخلت الأمة من مشرقها إلى مغربها في امتحان عسير، وموقف خطير، يستوجب منها عامة، ومن علمائها ودعاتها وفصائل صحوتها خاصة: أن ينسوا

---

(١) انظر: أمتنا بين قرنين ص ٢٢٢.

(٢) انظر: الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ٣٤١.

خلافاتهم الجانبية ، ومعاركهم الهامشية ، ويقفوا في جبهة واحدة متراصة في المعركة التي يواجهها الإسلام وأهله، فعند المعركة يجب أن يتلاحم الجميع ، ويتساند الجميع ، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ [الصف: ٤].

نعم لقد كان الشيخ ومازال حريصاً كل الحرص على التعاون والتقارب والتجميع والتأليف :

* تعاون على المتفق عليه .
* وتجميع في الغايات والأهداف .
* وتقارب في الوسائل والأساليب .
* وتأليف للقلوب والعزائم .

المتفق عليه كبير :

ومن ثم فإنه يرى أن المتفق عليه فيما بيننا أكثر من المختلف فيه، وأن التعاون في المتفق عليه يؤدي إلى نتائج نحسد عليها إن نزلنا بها إلى أرض الواقع؛ يقول الشيخ : وأعتقد أن ما نتفق عليه ليس بالشيء الهين ولا القليل ، إنه يحتاج منا إلى جهود لا تتوقف، وعمل لا يكل ، وإرادة لا تعرف الوهن ، يحتاج منا إلى عقول ذكية، وعزائم قوية ، وأنفس أبية، وطاقات بناءة .

ألسنا متفقين على أن القرآن كلام الله، وأن محمدا رسول الله ؟

فلنتعاون على غرس معاني الإيمان الجملي في أنفس الناشئة.

ألسنا متفقين على أن الإلحاد أعظم خطر يهدد البشرية ؟

فلنتعاون على تحصين الشباب من وباء الإلحاد .

ألسنا متفقين على أن الإيمان بالدار الآخرة ركن في كل دين ؟

فلنتعاون ـ إذن ـ على تقوية الإيمان بالآخرة ، واليقين بالجزاء .

ألسنا متفقين على أركان الإسلام العملية الخمسة ؟

ألسنا متفقين على دعائم الإيمان الست ؟

فلماذا لا نتعاون على تجليتها وتثبيتها، وإيصالها إلى عقول المسلمين وقلوبهم .

ألسنا متفقين على مكارم الأخلاق التي بعث الرسول ليتممها ؟

فلنتعاون ـ إذن ـ على إشاعة هذه الفضائل ، وترسيخ هذه القيم .

ألسنا متفقين على مجموعة طيبة من الأحكام الشرعية القطعية الثابتة بحكم القرآن والسنة ؟

فلنتعاون على رعايتها والعمل على حسن تطبيقها.

ألسنا متفقين على أن الصهيونية اليوم خطر داهم، وأنها تطمح في المدينة وخيبر ، وأنها تخطط وتعمل ، وأنها تحاربنا من منطلق ديني، تستثير به إيمان اليهود بتوراتهم وتلمودهم ، ونبوءات أنبيائهم ؟

فلماذا لا نتعاون على أن نحاربهم بمثل ما يحاربوننا به .

ألسنا متفقين على أن الغرب لم يتحرر حتى اليوم من روح الحروب الصليبية ؟

فلنتعاون ـ إذن ـ على التصدي لهذه الحروب الجديدة .

ألسنا متفقين على أن التنصير ، يغزو عالمنا الإسلامي ؟

فلنتعاون كلنا على الوقوف في وجه هذا الغزو الديني الموجه إلى دين هذه الأمة وصميم عقيدتها .

ألسنا متفقين على أن الشيوعية تحاربنا في العقيدة ، وتحاربنا في الفكر ، وتحاربنا في الأرض ؟

فلنتعاون جميعاً على أن نقاوم الغزو الماركسي الشيوعي .

ألسنا متفقين على أن مئات الملايين من المسلمين في أنحاء العالم يجهلون أولويات الإسلام المتفق على فرضيتها وضروريتها ، ولا يكادون يعرفون من الإسلام إلا اسمه ، ولا من القرآن إلا رسمه .

فلنتعاون على تعليم هذه الشعوب ألف باء الإسلام ، والأركان الأساسية للدين .

ألسنا متفقين على أن المليارات الأربعة من سكان هذه الكرة لا يعرف أكثرهم عن الإسلام شيئاً يذكر ، وإذا عرف فإنه يعرف صورة مبتورة أو مشوهة؟

فلماذا لا نتعاون على هذا العمل الكبير ، ونجند له من الرجال والأموال ما هو جدير به ، وما يعادل أهميته .

ألسنا متفقين على أن القوى العلمانية تبذل جهوداً مستميتة لإيقاف تطبيق الشريعة الإسلامية ؟

فلماذا لا يتعاون الإسلاميون بمختلف مدارسهم وفصائلهم للوقوف صفاً واحداً أمام هذا التكتل العلماني المؤيد [1].

الصحوة الإسلامية بحاجة إلى التجميع :

ولقد كان الشيخ شديد اللهجة في حديثه إلى الصحوة الإسلامية ، وتوجيهها إلى التجميع والاتفاق لا التفارق والاختلاف ، حتى عد موقفها هذا موقفاً محرماً ، فقال لهم جميعاً : لماذا لا يتناسى الإسلاميون خلافاتهم الجزئية في المسائل الاجتهادية ، والأمور الفرعية ، لتتضام جهودهم ، وتلتئم صفوفهم ، وتتوحد جبهتهم ، في مواجهة القوى الضخمة المعادية لهم ، والمتربصة بهم ، والكائدة لهم ، والتي تختلف فيما بينها وتتفق عليهم .

إن المتفق عليه ليس بهين ولا قليل ، وهو يحتاج من الجبهة الإسلامية العريضة إلى جهود وجهود ، تشغل كل تفكيرهم ، وكل أوقاتهم ، وكل إمكاناتهم ، ومع هذا لا تكفي لملء الفراغ ، وتحقيق الآمال ، وإصابة الهدف المنشود .

حرام على الجبهة الإسلامية أن تعترك فيما بينها على اللحية ، والثوب والنقاب والحجاب ، والسدل والقبض ، والتأويل والتفويض و تحريك الإصبع في التشهد ، وتدع تلك الثغرات الهائلة دون أن تسدها بكتائب المؤمنين الصادقين[2].

---

(١) انظر : الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم ص ١٤٩ ـ ١٥٦ بتصرف .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ١٥٧ .

التيار الوسطي أحوج:

ويخص الشيخ في دعوته إلى التجميع تيار الوسطية من شباب الصحوة فيقول لهم : وأعتقد أن على تيار الوسطية واجباً كبيراً ، يجب أن يسعى إليه ، ويحرص عليه ، ويجاهد من أجله ، وهو العمل بصدق وإخلاص لتجميع الصف الإسلامي ـ صف العاملين للإسلام ـ على الأصول التي لا ينبغي الخلاف عليها ، أي على أركان العقيدة الستة : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر ، وعلى الأركان العملية الخمسة : الشهادتين، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان ، وحج البيت ، وعلى أصول الفضائل وأمهات الأخلاق، وعلى اجتناب أصول الرذائل والمحرمات ، وبخاصة الكبائر والموبقات[1].

ويؤكد الشيخ على ضرورة الاجتماع ولو على الكليات والأصول فيقول : وبحسبنا اللقاء الإجمالي على هذه الكليات ، ولا بأس أن نختلف في الجزئيات والتفاصيل ، لا بأس أن نختلف في الفروع ، ونختلف في المواقف ، ونختلف في الاجتهادات ، فهذا اختلاف تقتضيه طبيعة الدين ، وطبيعة البشر ، وطبيعة الكون والحياة ، كما فصلت ذلك في كتابي «الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم».

وقد ذكرت في أكثر من كتاب لي : أنه لا مانع من أن تتعدد الجماعات العاملة للإسلام ، ما دام تعددها تنوع وتخصص ، لا تعدد تضارب وتناقض ، فتعدد التنوع يؤدي إلى المزيد من الإثراء والنماء ، وتعدد التناقض إنما يؤدي إلى التآكل والفناء .

لابد من جهد يبذل لتجميع العاملين لخدمة الإسلام ، و نصرة دعوته ، وتحكيم شريعته، وتوحيد أمته ، جهد فكري ، وجهد عملي ، لتقريب الشقة ، وزرع الثقة ، وغرس روح التسامح وحسن الظن ، وتنقية الأنفس من آفات العجب والغرور، واتهام الآخرين واحتقارهم: « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»[2].

(١، ٢) انظر : في فقه الأولويات ص ١٩٣، ١٩٤ .

ويعد الشيخ هذا التجميع إحدى أولويات الحركة الإسلامية فيقول : وفي رأيي أن هذا العمل من الأولويات المهمة والمقدمة في الساحة الإسلامية اليوم . وإذا لم ينتبه الإسلاميون لخطر التمزق الذي يعيشونه، فسيؤكلون جميعاً، ستفترسهم المخالب والأنياب الحادة للقوى المعادية للإسلام وأمته ، سيُضربون تياراً بعد تيار ، ومجموعة بعد مجموعة ، حتى يُقضى عليهم جميعاً [١].

تقارب على الأقل :

وأقل ما يطلبه الشيخ هو تقارب الفصائل الإسلامية الكبرى على الأقل فيقول : وإذا كنا لا نملك اليوم القدرة على تجميع قوى أمتنا الكبرى من المحيط إلى المحيط ، فلنجتهد ـ على الأقل ـ في تجميع قوى الفصائل الكبرى في الصحوة الإسلامية ، القابلة للحوار والتفاهم ، وذلك بإزالة النتوءات ، وتقليص التطرفات، وتقريب المفاهيم ، وتنسيق المواقف ، والوقوف صفاً واحداً في القضايا المصيرية، يتعاون الجميع في المتفق عليه ، ويتسامحون في المختلف فيه ، فهذا التفاهم والتعاون والتجمع : فريضة دينية ، وضرورة حيوية ، فإذا لم تجمعنا الفكرة الواحدة ، فلتجمعنا المحنة المشتركة . على نحو ما قال شوقي :

فإن يك الجنس يا ابن الطلح فرقنا إن المصائب يجمعهن المصابينا [٢]

إن الذي يزعج الشيخ ويؤرقه ويذيب قلبه حسرات هو : أن تعادي الصحوة نفسها ، وأن يكون عدوها من داخلها ، كأن يضرب بعضها بعضاً، ويكيد بعضها لبعض ، وأن يكون بأسها بينها [٣].

غير أن الشيخ لا يمانع من تعدد الجماعات والفصائل الإسلامية ولا يرى ذلك أمراً مذموماً ، بل يراه ظاهرة صحية لا مرضية ، وشيئاً مفيداً غير مضر ، يقول الشيخ : إن اختلاف مناهج العمل للإسلام ، وتعدد الجماعات العاملة لتجديده ، ليس ظاهرة مرضية ، ولا أمراً مذموماً عند الله ، ولا عند الذين آمنوا؛ بشرط أن يكون اختلاف تنوع وتخصص، لا اختلاف تضاد وتناقض ، بمعنى أن

(١، ٢) انظر : في فقه الأولويات ص ١٩٤ .

(٣) انظر : الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع ص ٥ .

يكون هناك تكامل وتناسق وتعاون بين هذه الأنواع من العمل ، بحيث يكمل بعضها بعضاً ، ويشد بعضها أزر بعض ، وتجمعها القضايا الكبرى ، والمواقف المصيرية ، لتواجه العدو المشترك صفاً واحداً كالبنيان المرصوص [١].

إن هذا التعدد أمر لا يزعج الشيخ ولا يقلقه فيقول : لا يزعجني أن يكون في الصحوة مدارس أو فصائل أو جماعات ، لكل منها منهجه في خدمة الإسلام، والعمل على التمكين له في الأرض ، وفقاً لتحديد الأهداف وترتيبها ، وتحديد الوسائل ومراحلها ، والثقة بالقائمين على تنفيذها من حيث الأمانة والقوة ، أو الكفاية والإخلاص[٢] .

بل إن الشيخ يعد محاولة جمع الحركة الإسلامية في جماعة واحدة ضرب من السذاجة فيقول : ولست من السذاجة بحيث أدعو إلى جماعة أو حركة واحدة ، تضم جميع العاملين للإسلام في نظام واحد ، وتحت قيادة واحدة ، فهذا تقف دونه حوائل شتى ، وهو طمع في غير مطمع .[٣]

أو هو على الأقل حلم جميل بعيد التحقيق: يقول الشيخ : ولهذا أرى أن الحلم بالحركة التي تستوعب كل الحركات ، أو الجماعة التي تضم كل الجماعات حلم جميل ولكنه ـ بمنطق الواقع ـ بعيد التحقيق [٤].

ومن شعر الشيخ في ذلك :

أدعوه والدمع بالعينين مختنق ... والقلب محترق مما شهدناه
في كل أرض أرى الإسلام في خطر ... من أهله وبنيه قبل أعداه
تفرقوا شيعاً والكفر مجتمع ... واليوم يبدو الذي قد كان أخفاه
فاجمع إلهي شمل المسلمين على ... هداك وانصر لمن للدين والاه[٥]

* * *

(١) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ٢٢ .
(٢، ٣) انظر : الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع ص ٦ .
(٤) انظر : شمول الإسلام ص ٣٤ .
(٥) انظر : نفحات ولفحات ص ١٠٢ .

المبحث السادس
التحرر من التعصب والمذهبية

من أكبر الأدواء التي منيت بها أمتنا في عصور التخلف والانحطاط داء وبيل اسمه «التعصب»؛ هذه الكلمة البغيضة التي جاء الإسلام ليحاربها شكلاً وموضوعاً، وكان من روائع توجيهات المصطفى ﷺ «ليس منا من دعا إلى عصبية، أو قاتل على عصبية، أو مات على عصبية»(١).

وقد كان من الكلام الخالد للفاروق عمر رضي الله عنه في وصيته لأبي موسى الأشعري: ولا يمنعنك قضاء قضيت فيه اليوم، فراجعت فيه رأيك فهديت لرشدك أن ترجع فيه الحق، فإن الحق قديم لا يبطله شيء، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل (٢).

إن عمر يربي أبا موسى على عدم التعصب لرأيه أو الإصرار عليه إن بدا له خطؤه، وكيف لا وهو الذي راجعته امرأة فقال: أصابت امرأة وأخطأ عمر (٣).

وإذا كان هذا المرض العضال قد عرفت به الجاهلية؛ فإنه لايزال ينخر في جسم أمتنا إلى يومنا هذا، فترى ظاهرة التعصب طافحة بين الناس، هذا متعصب لجنسه وذاك لوطنه، وثالث للغته، ورابع للونه، وخامس. وسادس.... وهكذا.

ورحم الله ابن القيم حين قال: فالبصير الصادق يضرب مع كل قوم بسهم ويعاشر الناس على أحسن ما عندهم.

وأخطر من هذا كله أن ينخر هذا المرض في جسد الصحوة الإسلامية كما ينخر السوس في الخشب، ويسري فيها كما تسري النار في الهشيم، حتى رأينا لافتات ترفع، وولاءات تنصب، وبيعات تؤخذ، لفكر، أو لرأي، أو لجماعة، أو لحزب، كلها باسم الإسلام، ولقد رأينا من يقصر الإسلام على جماعته،

---

(١) رواه أبو داود. في الأدب (٥١١١) وذكره الألباني في ضعيف أبي داود رقم (١٠٩٥).
(٢) الاستذكار لابن عبد البر (١٠٣٧). (٣) انظر: القرطبي (٩٥٥).

والصواب في رأيه ، والإمامة في مشايخه ، والتُّقى في من أخذ عنهم ، وأما غير هؤلاء فهم الهالكون أبناء الهالكين ، وقد قرأت كلمة رائعة لعبد السلام البسيوني في مقالة له في مجلة المنار الجديد تحت عنوان « السلفية الملطشة » يقول فيها : إذا جاءت أحدهم الفتوى من الشيخ فلان ، أو صدر رأي من الأخ علان كانت برداً وسلاماً ، وإذا جاء الكلام من غيرهما كان (زفتاً وسخاماً) لأن الآخرين – ببساطة – أغبياء ، يغلب عليهم ضيق الأفق، والرداءة والخبث والتخلف والكيد للإسلام !!

أهذا معقول .. لقد رأيت أقواما إذا جاءتهم الفتوى من العالم العظيم ابن باز عظموها ورفعوها .. وإذا جاءتهم من غيره سخروا وتنقصوا ..

ورأيت غيرهم إذا جاءتهم الفتوى من القرضاوي (حفظه الله وأدامه) جعلوها راية ومناراً، وإذا جاءت من غيره استسخفوها وازدروها !

رأيت من يقول ابن جاز .. ومن يقول : الأرضاوي !

من يقول : أعمى البصر والبصيرة .. ومن يقول الضال المبتدع !

ومن يقول : الألباني (حمار في الحديث) – هكذا والله – ومن يقول (مثلما كانت تقول المعتزلة في الماضي) : نحن أهل العدل والتوحيد ، وغيرنا جهال جامدون !

ما هذا السخف ؟! أف والله وأف وأف !

أليس هذا إفكًا وسوء منهج ؟

ثم أليس هذا تحجيرا للإسلام وتنميطًا للفكر ؟

كيف أحصر الإسلام المعاصر في الألباني وابن باز وابن عثيمين ، أو القرضاوي والغزالي وأبي شقة ، أو شيخ الأزهر أو إمام الحرم ، في السلفيين أو الإخوان !؟

كيف أُحنبل الإسلام أو أُؤَخْوِنه .. وبس ؟

هذا هو الواقع .. للأسف الشديد .. عند كثيرين من الطيبين ![1]

---

(١) انظر : مجلة المنار الجديد .

التعصب والمتعصب عند القرضاوي :

والشيخ القرضاوي حاول جاهداً أن يبعد نفسه عن التعصب لأنه يرى أن المتعصب: إنسان لا يرى إلا ذاته ، ولا يسمع إلا قول نفسه ، ولا يؤمن بأحد غيره ، أو غير فرقته وجماعته التي ينتمي إليها ، فمنها يبدأ ، وإليها ينتهي، فهو مغلق الذهن والنفس عن « الغير» ، وكل الناس «غير» ما عداه وفرقته التي منحها عقله وشعوره وولاءه ، فهي التي تفكر له وتحدد له من يحب ومن يكره، وعمن يرضى وعمن يسخط ، دون أن يعطي نفسه حق التأمل في هذه المقولات أو الامتحان لها ، أو مناقشتها فهذا كفر ، أو سبيل الكفر المؤدي إلى البوار ، جهنم يصلاها وبئس القرار [١].

ولهذا فقد عدَّ الشيخ التعصب الجامد المظلم من أشد ما يطمس العقل البشري ، ويرجع الشيخ ذلك لكون التعصب : يحبس صاحبه في قمقم القديم الذي كان عليه الآباء ، أو الواقع الذي عليه الأكثرية أو الرؤساء، كما أنه ـ أي التعصب ـ يعمي المرء ويصمه، ويجعل عقله كأنما هو منحوت من حجارة صماء[٢].

وإذا كان هذا هو المتعصب ، فإن التعصب في نظر الشيخ يعني : أن يغلق الإنسان عقله على فكرة معينة ولا يسمح لنفسه بفتح أي نافذة للحوار مع مخالفيه في العقيدة أو الفكر، أو في الرأي الفقهي أو السياسي ، ولا يسمح بنقد نفسه ، أو مراجعتها مرة واحدة بل رأيه دائماً هو الصواب، الذي لا يحتمل الخطأ، ورأي غيره هو الخطأ الذي لا يحتمل الصواب[٣].

وليس معنى هذا أن الشيخ يرضى بأن يتنازل المرء عن رأيه ؛ لا بل هو يقر بأن لكل إنسان أن يلزم رأيه ومعتقده؛ شريطة أن يترك لغيره ما وصل إليه

(١، ٣) انظر الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ٢١٥ ـ ٢١٦ .

(٢) انظر : الناس والحق ص ٥٨ .

اجتهاده، وألا يفرض رأيه على غيره، لذا يقول الشيخ: ليس من التعصب إذن أن يثبت المرء على دينه، وأن يعتصم بحبله المتين، وإلا لكان كل متدين متعصباً، وقد قال الله لرسوله ﷺ: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣][١].

وقد دعا الشيخ القرضاوي إلى عدم التعصب للرأي مهما كان قائله، ما لم يكن معصوماً، وهو في هذا يؤكد ما قاله الإمام مالك رحمه الله يوم أن قال: كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا صاحب هذه الروضة، وهو ما قاله أيضاً الإمام البنا في أصوله العشرين حيث قال في الأصل السادس: وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ وكل ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم موافقاً للكتاب والسنة قبلناه وإلا، وإلا فكتاب الله أولى بالاتباع[٢].

وقال أيضاً رحمه الله: والخلاف الفقهي في الفروع لا يكون سبباً للتفرق في الدين ولا يؤدي إلى خصومة ولا بغضاء ولكل مجتهد أجره، ولا مانع من التحقق العلمي النزيه في مسائل الخلاف في ظل الحب في الله والتعاون على الوصول إلى الحقيقة من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب[٣].

وقد وضح الشيخ القرضاوي حفظه الله قواعد ودلائل للتحرر من التعصب وأهمها:

١ ـ النظر إلى القول لا إلى قائله.

٢ ـ الاعتراف بالخطأ والرجوع عنه جهرة بشجاعة وصراحة..

٣ ـ ألا يضيق صدره بالنقد يوجهه إليه الآخرين.

٤ ـ النقد الذاتي: وهو مراجعة داعية قاصدة للذات.

٥ ـ طلب النصح والتقويم من الآخرين، ولله در عمر حين قال على المنبر: رحم الله امرءا أهدى إلى عيوب نفسي، مرحبا بالناصح أبد الدهر، مرحبا بالناصح غدوا وعشيا.

---

(١) انظر: الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ٢١٧.

(٢، ٣) انظر: مجموعة الرسائل رسالة دعوتنا ص ٢٦٨، ٢٦٩.

٦ ـ التنازل عن بعض الآراء الجزئية لتجميع الكلمة .

٧ ـ الاستفادة مما لدى الآخرين من علم نافع أو عمل صالح أو تجربة مفيدة[١] .

واقع القرضاوي العملي والتعصب :

وقد امتاز الشيخ القرضاوي بعدم تعصبه لشيخ بعينه ، أو فرقة بعينها، أو مذهب بعينه، فهو يدور مع الحق حيثما دار ، إمامه الدليل ، وبغيته الحق ، ومن ثم فتراه يخالف من أحب ، وأعز من أحب . ومن ذلك :

القرضاوي و الأزهر :

والشيخ القرضاوي بالرغم من أنه أزهري النشأة ، وهو ممن يعتز بأزهريته، لكن حبه للأزهر لم يجعل منه متعصباً له ؛ بل وقف الشيخ ناقداً للأزهر كما بدا ذلك واضحاً في كتابه رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد[٢] .

القرضاوي والإخوان :

وكما أن الشيخ القرضاوي ابن الأزهر فهو ابن الإخوان ؛ نشأ وترعرع في هذه الجماعة، وأحبها واستفاد من منهجها، ودعا إليها، وعمل لها ، لكنه لم يتعصب لها ليجعلها جماعة معصومة ؛ بل انتقد الجماعة في أكثر من موضوع، وفي أكثر من كتاب، يقول الشيخ : ولا أنكر أن في حركة الإخوان في بعض الأحيان ، وفي بعض الأقطار ، ولدى بعض الأفراد والقيادات أحيانا ميلاً إلى التشدد ، تأثراً بالمدارس الأخرى التي لها وجود في الساحة الإسلامية ، ويظهر هذا في الإبقاء على القديم ، ومقاومة التجديد ، أو الميل إلى الآراء المتشددة ، التي تنظر إلى النصوص الجزئية ، وتغفل المقاصد الكلية ، أو التي تأخذ دائماً

---

(١) راجع هذه الدلائل بالتفصيل في كتاب : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص٢١٥-٢٤٠ .

(٢) انظر : الفصل الأول ما كتب تحت عنوان « القرضاوي مصلحاً في الأزهر » .

بالأحوط ، ولا تأخذ بالأيسر ، رغم حاجة الناس إليه ، ولكن هؤلاء لا يمثلون – اليوم – التيار الغالب في الحركة [1].

ومن مآخذ الشيخ القرضاوي على جماعة الإخوان : الجمود في بعض الأحيان على بعض المناهج أو الوسائل أو الأنظمة التي وضعها الإمام البنا رحمه الله، إذ أن الشيخ يرى أن هذه الوسائل والأنظمة ليست خالدة ولا ثابتة ومن ثم فإن التجديد فيها أمر وارد شرعاً وعرفاً ومقبول منطقاً وعقلاً ، يقول الشيخ : فهذه المناهج والوسائل والأنظمة ليست خالدة خلود الإسلام نفسه ، وليس لها ثبات المبادئ والأصول الإسلامية بل هي أدوات أثمرها الاجتهاد البشري لإحياء الإسلام وتجديده في الأنفس والحياة [2].

ولذلك فإن الشيخ يرفض جمود بعض دعاة جماعة الإخوان على وسائل شيخهم البنا لأن الإمام البنا رحمه الله لم يكن كما يقول القرضاوي : رجلاً جامداً ، بل كان رجلاً متجدداً متطوراً ، وكان يستفيد من كل ما يستجد من حوله ، ويطور نفسه ، ويطور دعوته، وما يدرينا ـ لو امتد به الأجل ـ ماذا كان يصنع ؟ [3].

ولهذا فإن القرضاوي ينادي إخوان البنا و أتباعه بالتجديد، فيهمس في آذانهم قائلاً : لا يجوز من إخوانه وأتباعه : الجمود على كل وسائله ومناهجه وجميع جزئيات أفكاره ، ولا سيما أن فقهاء الأمة مختلفون في جواز تقليد مذاهب الأموات من الأئمة ، وأكثرهم لا يجيز تقليد الميت ، إذ ما يدريك أنه لو كان حياً لربما غير اجتهاده ، كما غير الأئمة كثيراً من اجتهاداتهم ، وكما غير أصحابهم من بعدهم كثير من أقوالهم .

وكثير من الإخوان : يعز عليهم أن يخالفوا شيخهم وإمامهم ، ولو في جزئية من الجزئيات ، وكأنما يضفون على أفكاره شيئاً من القداسة والعصمة ، مع

---

(١) انظر : الإخوان المسلمون ص ٢٤٨ .

(٢) انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ٢٠٨ .

(٣) انظر : المرجع السابق ص ٢٠٧ .

أنهم يحفظون من أصوله العشرين التي تركها لهم (وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك ، إلا المعصوم ﷺ) . ولكن ما يحفظ شيء ، وما يطبق ويمارس شيء آخر .

كما أغفل الإخوان شيئاً آخر مهماً ، وهو أن شيخهم مات في سن مبكرة نسبياً من عمره ، في الثانية والأربعين ، وقد شعر في أواخر حياته : أن إخوانه تنقصهم « الثقافة المعمقة »، فأنشأ مجلة « الشهاب » لتسد هذه الثغرة ، ولم يصدر منها إلا خمسة أعداد ، ثم جاءت المحنة واستشهد الشيخ الإمام[1] .

وإذا كان الإخوان بدا فيهم نوع من التطور كما يرى الشيخ القرضاوي ، فإنه ينقصهم أمور ينبغي عليهم أن يراعوها وهي :

١ ـ أن يقدموا الولاء للإسلام ، على الولاء للجماعة .

٢ ـ أن يقدموا العمل للدعوة ، على العمل للتنظيم .

٣ ـ الترحيب بالأفكار الجديدة ، وإن لم يكن للجماعة سابق عهد بها .

٤ ـ زيادة التفاهم مع التيارات الأخرى ، و إن كانت مخالفة .

٥ ـ أن يفكروا بجدية في تجديد الوسائل بحسب ظروف المرحلة.

٦ ـ ألا يتقوقعوا على أنفسهم ، وتستغرقهم الأفكار المحلية ، وقد أصبحوا حركة عالمية .

٧ ـ ألا يستهلكهم العمل السياسي ، ففي مجالات العمل الاجتماعي والثقافي والتربوي والاقتصادي وغيرها متسع للجهود والطاقات الموجودة ، والتي لا تكاد توظف فيما ينفعها وينفع أمتنا .

٨ ـ أن يضعوا من المناهج ما يعمق ثقافة أفراد الجماعة الشرعية والعامة ، ويقيمها على أصول راسخة ، ويغرس فيهم حب التجديد ، وروح المحاسبة والنقد للذات ، والحوار مع الآخر ، والتسامح مع المخالفين[2].

الشيخ والحركة الإسلامية :

والشيخ من أبرز دعاة الصحوة ورجالاتها ومع هذا فلم يمنعه حبه للحركة

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٢١٢ .

أن ينقدها ليس في كتاب واحد بل في عدة كتب ، ومن مآخذ الشيخ على الحركة الإسلامية :

١ ـ أن بعض المخلصين من أتباع الحركة الإسلامية يخافون من فتح باب النقد الذاتي أن يلجه من يحسنه ومن لا يحسنه ، فقد يفسد أكثر مما يصلح .

٢ ـ ويخافون كذلك أن يصور النقد لأفكار بعض قادة الحركات الإسلامية بصورة الاتهام لهم ، أو الوقوف مع خصومهم ضدهم، فمن نقد رأياً لمثل « حسن البنا » أو « أبي الأعلى المودودي » أو « سيد قطب » أو « مصطفى السباعي » أو غيرهم من القادة الفكريين والحركيين . فكأنه يوجه اتهاماً إلى هؤلاء، أو يطعن في إمامتهم وبطولتهم .

القرضاوي والإمام الغزالي [١]:

وبالرغم من حب الشيخ للإمام الغزالي إلا أنه لم يكن متعصباً له ، بل أنكر عليه بعض المواقف ، وأظهر ملاحظاته على ما في كتب الغزالي فيقول عن كتاب « منهاج العابدين »: وقد وجدت متعة كبيرة في قراءة هذا الكتاب ، واستعنت به في دروسي ووعظي في تلك المرحلة ، وإن كان لي عليه مآخذ وملاحظات وخصوصاً في باب التوكل والزهد ، وما فيه من توجيهات حكايات تتسم بالمبالغة والإفراط[٢] .

ويقول عن الإحياء : كتاب الإحياء الذي أمسى غذاءنا وفاكهتنا عصر كل يوم في إجازات الصيف وخصوصاً ربع « المهلكات » وربع « المنجيات » منه، مع تحفظي شخصياً على بعض ما فيه من غلو لم يكن ملائماً لطبيعتي[٣].

ويقول أيضاً مؤكداً إصابة الغزالي ببعض آثار الفلاسفة : ومع هذا لم يسلم الغزالي بعد خوض هذه اللجج العميقة ، ومصارعة هذه التيارات والأمواج المتلاطمة ، من أن يصيبه بعض الآثار ، أو بعض الجراحات ، وإن لم يعترف هو بشيء من ذلك ، ولكن شأن الإنسان أن يتأثر ويؤثر ، شعر أم لم يشعر ، وإن

---

(١) راجع ما ذكرناه في الفصل الأول عن شيوخ القرضاوي.

(٢، ٣) انظر : الحياة الربانية والعلم ص ٨ .

لم يكن بطريقة مباشرة ، وهذا ما جعل تلميذه ابن العربي يقول : شيخنا أبو حامد ابتلع الفلاسفة وأراد أن يتقيأهم فما استطاع[1].

القرضاوي والبنا[2] :

وكذلك مع شيخه البنا خالفه ولم يدع له العصمة ، بل يقول الشيخ : وفي حركة الإخوان المسلمين أناس لهم وزنهم وقدرهم ، لا يقبلون من أحد مخالفة الإمام حسن البنا في أي جزئية من الجزئيات .. ومن فعل ذلك نظر إليه بعين غير عين الرضا، وإن كان من أخلص أبناء الحركة وأقدرهم على فهم روح حسن البنا.

وفي أحد الدروس يوماً مع بعض الإخوة ، وضحت لهم رأيي في جواز تعدد الأحزاب في الدولة الإسلامية ، وذكرت لهم أدلتي على هذا الرأي من أصول الإسلام ، ومن التراث ، ومن الواقع .

ولكن بعضهم لم يعجبه ذلك ، لأنه مخالف لرأي الإمام الشهيد الذي أعلن فيه أن لا حزبية في الإسلام .

وقلت لهؤلاء الإخوة ما قاله أبو يوسف حينما خالف شيخه أبا حنيفة : لو رأى صاحبي ما رأيت ، لقال بمثل ما قلت !

الشيخ والمذهبية :

وتعد المذهبية المطلقة نوع من العصبية المذمومة ، أو التعصب المقيت ، هذا إن انتصر الإنسان لمذهبه وإن عدم الدليل ، والتحرر من المذهبية عند الشيخ يعني ألا يقيد الفقيه نفسه بغير ما قيده الله به ورسوله ، فيأخذ من أي مذهب كان ما يراه أقوى حجة ، وأرجح ميزاناً ، في ضوء المعايير الشرعية، وفي هذا توسعة للأمة ، وتيسيرا كبيرا عليها، وإعطاؤها مجالاً رحبا للانتقاء والترجيح ، وفق مقاصد الشرع ومصالح الخلق[3] .

لذا فقد بدا الشيخ متحرراً من المذهبية ، غير متقيد بمذهب بعينه ، إلا ما صح دليله، ووافق الكتاب والسنة ، وقد عرف الشيخ بذلك في أول كتاب

---

(١) انظر : ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق ص ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) راجع ما ذكرناه في الفصل الأول عن شيوخ القرضاوي.

(٣) انظر : نحو فقه ميسر ص ٣١ .

من كتبه وهو «الحلال والحرام»، فيقول فيه : وغير لائق بعالم مسلم يملك وسائل الموازنة والترجيح أن يكون أسير مذهب واحد ، أو خاضعاً لرأي فقيه معين ، بل الواجب أن يكون أسير الحجة والدليل ، فما صح دليله وقويت حجته ، فهو أولى بالاتباع ، وما ضعف سنده ، ووهت حجته ، فهو مرفوض مهما يكن من قال به، وقديماً قال الإمام علي رضي الله عنه : «لا تعرف الحق بالرجال ، بل اعرف الحق تعرف أهله»(١).

وإنكار الشيخ على دعاة المذهبية إنما لكونهم جعلوا من مذهبهم كله بما صح دليله أو ضعف ؛ جعلوه كأنه وحي يوحى أو قرآن يتلى ، وحين رفض الشيخ العصبية المذهبية رفضها للأسباب الآتية :

١ ـ أن التقيد بالمذاهب ، التزام بما لا يلزم ولا يجب ديناً وشرعاً ، إذ لا واجب ـ ديناً وشرعاً ـ إلا ما أوجبه الله ورسوله ، ولم يوجب الله ورسوله اتباع مذهب معين من مذاهب الأئمة .

٢ ـ أن الأئمة المتبوعين أنفسهم نهوا عن تقليدهم .

٣ ـ أن العلماء عامة ـ ومنهم المقلدون أنفسهم – قد رجحوا : أن العامي لا مذهب له ، وأن مذهبه مذهب من يفتيه من العلماء .

٤ ـ أننا مطالبون أن نقدم أحكام الإسلام للناس لنرغبهم في هذا الدين ، ونحبب إليهم أصوله وتعاليمه . فهل من المقبول أن نقدم لهؤلاء نماذج أربعة – أو سبعة أو ثمانية – تمثل المذاهب المتبوعة ، ونقول لهم : إن كل نموذج يمثل التعاليم الإسلامية في رأي مدرسة أو مذهب من مذاهب فقهائه ؟

٥ ـ ومثل ذلك ما يقال لمن دخلوا في الإسلام بالفعل ، وهم يكثرون ، والحمد لله ، ومثلهم الأقليات الإسلامية ، والجاليات الإسلامية في شتى أقطار الدنيا ، ما الذي ينبغي أن يقدم لهم ؟ وعلى أي مذهب ؟ وهل من الملائم أن نقول للمسلم الداخل حديثاً في الإسلام : إن أمامك عدداً من النماذج ، فاختر واحداً منها ؟(٢).

---

(١) انظر : الحلال والحرام ص ١٢ .

(٢) انظر : نحو فقه ميسر معاصر ص ٣٢ ، ٣٣ .

وتحرر الشيخ من المذهبية ونبذه لها لا يعني أنه منكر لفضل الأئمة الكرام ، أو أنه ذام لهذه المذاهب أبداً ؛ بل الشيخ يكن لهؤلاء الأعلام كل فضل، ويوقن بأنهم كانوا كالعافية للأبدان وكالشمس للناس ؛ لذا يقول: وتحررنا من صرامة التقليد والعصبية لمذهب معين لا يعني أن نذم المذاهب، أو ننال من شأن الأئمة الكبار رضي الله عنهم ، فهذا لا يقوله مسلم شم رائحة العلم ، وقد ألف شيخ الإسلام ابن تيمية كتاباً قيماً شهيراً سماه «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» بين فيه أعذار الأئمة في ترك ما تركوه من الحديث ، ووضح أن أحداً منهم لم يتعمد مخالفة رسول الله ﷺ ، أو الإعراض عن سنة ثابتة عنه.

كما أن هذا التحرر لا يعني الاستغناء عن فقه المذاهب وكتبها ، وما حفلت به من تعليلات، وتخريجات، وتفصيلات ، ومناقشات ثرية ، لا يشك في قيمتها دارس ينشد الحق ويبحث عن الصواب بأدلته [1].

ويقول حفظه الله في موضع آخر: هذا مع التوقير الكامل لأئمتنا وفقهائنا ، فعدم تقليدهم ليس حطاً من شأنهم؛ بل سيراً على نهجهم [2].

* * *

(١) انظر : المرجع السابق ص ٣١ .

(٢) انظر : فتاوى معاصرة ج١ ص ١٠ .

المبحث السابع

الرجوع إلى الحق

تعد هذه السمة مكملة أو متممة للسمة السابقة وهي التحرر من التعصب والمذهبية، ومن دلالات التحرر من التعصب عدم الاعتداد بالرأي ، والرجوع إلى الحق ، وقد قعد عمر بن الخطاب ﷺ قاعدة رائعة في رسالته التي أرسلها لأبي موسى الأشعري ﷺ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل .

والشيخ القرضاوي عرف بانتصاره للحق لا لرأيه ، وللدليل لا للهوى ، ومن ثم فقد يتبنى الشيخ رأياً يراه هو الحق يوماً ، فإذا تبين له غيره ، وقوي عنده دليل غيره رجع الشيخ إلى الحق والتزم الدليل ، وهو في هذا يقتدي بالفقيه عبيد الله ابن الحسن العنبري يوم أن تبين له الخطأ في مسألة فقال : إذن أرجع وأنا صاغر ، ولأن أكون ذنباً في الحق خيراً من أن أكون رأساً في الباطل[1] .

والقارئ لتراث الشيخ يرى أن له بعض الاجتهادات التي ذهب إليها في الماضي ثم تراجع عنها ، أو بعض الآراء التي انتصر لها سابقا ثم عدل إلى غيرها ، والملاحظ لفتاوى وآراء الشيخ في بداية حياته يرى فيها حماسة الشباب ، بينما يرى في تقدم عمره حكمة الشيوخ ، وهذا ما أكده الشيخ حين قال في تقديمه لتغيير فتواه في شراء بيوت السكن في الغرب عن طريق البنوك الربوية فقال : لعل الإنسان في شيخوخته يكون أكثر إشفاقاً على خلق الله تعالى ، وأكثر رغبة في التيسير عليهم ، وإيجاد المخارج لهم من مازق حياتهم .

أو لعل الإنسان بعد النضج يكون أكثر شجاعة في تبني الرخص

---

(١) انظر : تهذيب التهذيب ابن حجر ط مؤسسة الرسالة ج١ ص ٧ .

والتخفيفات ، والإعلان عنها ، ولا يخاف عواقبها ، بعد أن أصبح قريباً من لقاء الله تعالى[1] .

وللشيخ في تغيير الفتوى سلف ، ومن من الناس يجهل تغاير الفتوى عند الشافعي بعد ذهابه إلى مصر حتى غدا للشافعي رأيان : الأول وهو القديم بالعراق ، والثاني وهو الجديد بمصر .

وتغير الفتوى كما يقول الإمام ابن القيم : يكون بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد[2] .

أسباب تغير الفتوى عند القرضاوي :

و التغير في الفتوى عند الشيخ له أسباب منها :

* ترجح دليل .
* اتساع أفق .
* مراعاة مصلحة .
* رفع ضيق .

وهذا هو الملاحظ في تغير فتوى الشيخ القرضاوي في عدد من المسائل يقول الشيخ : ولكن دماغ العالم المسلم ، ليس قطعة من الفولاذ ، ولا من جلمود الصخر ، إن عقله يظل يتحرك ، ويبحث ويقارن ويوازن ، وهو لا يقف في العلم عند حد ، ولا يأتي وقت يقول فيه : قد بلغت غاية العلم ، ولا طمع في الزيادة ، بل المسلم يطلب العلم من المهد إلى اللحد ، ولا يزال المرء عالماً ما طلب العلم ، فإذا علم أنه علم فقد جهل ، وقد قال الله تعالى لخاتم رسله وأفضل خلقه : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ [طه: ١١٤] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥] .

وما دام العالم يطلب العلم ، فلا يستغرب منه أن يغير رأيه ، بناء على أدلة

---

(١) انظر : في فقه الأقليات المسلمة ص ١٦٩ ـ ١٧٠ .

(٢) انظر : أعلام الموقعين عن رب العالمين (ابن القيم تحقيق عبد الرحمن الوكيل) ط مكتبة ابن تيمية ج٣ ص٥ .

شرعية جديدة بدت له ، لم تظهر له من قبل ، من فقه النصوص ، أو فقه المقاصد ، أو فقه الواقع[1].

والشيخ في كلا الأمرين مأجور إما بأجرين أو بأجر واحد ؛ فهو إما مأجور وإما معذور ، وهذا ما دفع الشيخ ليجهر ببعض الفتاوى التي غير رأيه فيها دافعاً الحرج عن نفسه فيقول حفظه الله : وقد ظللت متحرجاً فترة من الزمن من إعلان هذا الرأي وكنت أفتي به لمن سالني خاصة ، ثم رأيت الإعلان عنه ، لأنني أصبحت أسأل على الملأ ، وفي المحاضرات واللقاءات العامة ، ثم في القنوات الفضائية بعد ذلك ، ولا يسعني أن أكتم ما انتهى إليه رأيي في المسألة ، والفقيه المسلم لا يجوز له أن يفتي الناس بغير ما اقتنع به عقله، وانتهى إليه اجتهاده وعلمه ، و إلا كان خائناً لأمانة العلم ، بل خائنا لله ولرسوله ولجماعة المسلمين .

وهب أن رأيه هذا كان خطأ ، فهو معذور كما علمنا الله تعالى أن نقول : ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وقد جاء في الصحيح أن الله تعالى قال : « قد فعلت » أي أنه استجاب الدعاء[2]،[3].

نماذج من رجوع الشيخ إلى الحق :

المسألة الأولى : إسلام المرأة دون زوجها [4]

هذه الفتوى كان للشيخ فيها رأي قديم وأصبح له فيها رأي جديد ، وكان رأي الشيخ القديم هو وجوب المفارقة بين الزوج والزوجة في الحال أو بعد انقضاء

---

(١) انظر : في فقه الأقليات المسلمة ص ١٥٥ .

(٢) رواه مسلم في الإيمان رقم (١٢٦) عن أبي هريرة .

(٣) انظر : في فقه الأقليات المسلمة ص ١٥٦ .

(٤) وأذكر أن الشيخ حين نشرت له هذه الفتوى ثارت عليه الثائرة ، وجاءني أحد الإخوة يقول لي : هل حقاً قال الشيخ بهذه الفتوى ؟ قلت له: نعم ، فقال لي : إن عدداً من إخواننا السلفيين يشنعون بالشيخ لهذا الرأي ، فقلت له فليشنعوا بالإمام ابن القيم وشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية ؛ فإن الشيخ القرضاوي إنما هو ناقل عن الإمام ابن القيم تسعة آراء في هذه المسألة ولئن كان الإمام ابن القيم رحمه الله رجح أحد الآراء فإن الشيخ القرضاوي رجح آخر ، فما يضيره في هذا الترجيح إن كان يرى أن دليله أرجح ومصلحته أظهر ، والعمل به أوقع ؟!!

وقد أعطيت لهذا الأخ فتوى الشيخ، ونقله عن الإمام ابن القيم وشيخه شيخ الإسلام ، فلما رأى الإخوة السلفيون كلام شيخ الإسلام وتلميذه لانوا ، وتلك مصيبة أن يعرف الحق بالرجال بدلاً من أن يعرف الرجال بالحق .

العدة ، وقد ظل الشيخ على رأيه هذا أكثر من ربع قرن ، بل كان الشيخ ممن ثار على الدكتور حسن الترابي في مؤتمر اتحاد الطلبة المسلمين بأمريكا ، وكانت عمدة الشيخ القرضاوي ومن معه من الموجبين لمفارقة الزوجة زوجها أن هذا خروج عن الإجماع المقطوع به ، المتصل بعمل الأمة ، وأنه إذا كان لا يجوز للمرأة أن تتزوج غير المسلم ابتداء ، فكذلك لا يجوز لها الاستمرار معه بقاءً[1].

وبعد ما يزيد عن ربع قرن عدل الشيخ فتواه ، وغير رأيه لا عن هوًى ولكن عن دليل .

ولم يأنف الشيخ من أن يغير فتواه، فهو وإن طال عمره، وكبر سنه، فما يزال يطلب العلم ، يقول الشيخ : ثم إن المسلم يظل يطلب العلم من المهد إلى اللحد ، وليس هناك أحدٌ أحاط بالعلم كله ، وقد قال الله لرسوله: ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً** ﴾ [طه: ١١٤] ، وقال: ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٨٥][2].

لقد كان كلام ابن القيم في هذه المسألة في كتابه القيم « أحكام أهل الذمة » كان هذا الكلام بالنسبة للشيخ « فتحاً » في هذه المسألة . ومن هنا فقد أعاد الشيخ النظر في هذه المسألة فوجد أن ابن القيم قد ذكر فيها تسعة أقوال :

١ – انفساخ النكاح بمجرد الإسلام .

٢ – انفساخ النكاح إذا أبى الزوج الإسلام .

٣ – انفساخ النكاح عند انقضاء عدة المدخول بها .

٤ – عكس الثالث . وتقع الفرقة في الحين إن أسلمت قبله، وإن أسلم قبلها فأسلمت في العدة فهي امرأته وإلا وقعت الفرقة بانقضاء العدة.

(١، ٢) انظر : فتاوى معاصرة ج٣ ص ٦٠٥ ، ٦٠٦ بتصرف ، وانظر : في فقه الأقليات المسلمة ص ١٠٥ ، ١٠٦ بتصرف .

٥ – اعتبار العدة لكل من الرجل والمرأة .

٦ – تنتظر المرأة وتتربص ولو مكثت سنين إن اختارت ذلك .

٧ – هو أحق بها ما لم تخرج من مصرها .

٨ – هما على نكاحهما ما لم يفرق بينهما سلطان .

٩ – تقر عنده ويمنع عن وطئها .

بين ابن القيم والقرضاوي في هذه الفتوى :

وقد رجح الإمام ابن القيم القول السادس وانتصر له وهو قول شيخه كذلك، لكن القرضاوي لام الإمام ابن القيم لأنه كما يقول الشيخ القرضاوي : وعد بأن ينظر في مآخذ هذه الأقوال ولم يف بوعده ، بل ركز على القول السادس وانتصر له [١].

ولكن الشيخ القرضاوي مع هذا يرى أن كلام الإمام ابن القيم وشيخه له وزنه ، ولكنه تظل فيه مشكلة عملية ، وهي: أن تبقى المرأة مع زوجها تنتظر إسلامه ، ولو مكثت سنين ولكن لا تمكنه من نفسها ، والمشكلة العملية هنا هي: هل يصبر كل منهما على هذه الحالة : أن يعيشا تحت سقف واحد سنين ولا يقرب أحدهما الآخر ؟[٢]

وقد رأى الشيخ أن في المسألة ثلاثة آراء معتبرة يمكن الأخذ بها ، خصوصاً وأن هذه المسألة تتعلق بكثير ممن يدخلن في الإسلام ، وهذه الآراء المعتبرة هي :

١ – أن زوجها أحق بها ما لم تخرج من مصرها . وهو قول علي رضي الله عنه .

٢ – أن للإمام فسخ عقد النكاح أو تخيير المرأة وفق ما تكون المصلحة، وهو قول عمر رضي الله عنه .

٣ – أنهما على نكاحهما ما لم يفرق بينهما سلطان أي ما لم يصدر حكم قضائي بالتفريق[٣].

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج٣ ص ٦٠٦ ، وانظر : في فقه الأقليات ص ١٠٦ .

(٢) انظر : فتاوى معاصرة ج٣ ص ٦١٩، وانظر : في فقه الأقليات ص ١١٩ .

(٣) انظر : فتاوى معاصرة ج٣ ص ٦٢١، وانظر : في فقه الأقليات ص ١٢١ .

هذه هي المسألة الأولى التي غيّر الشيخ فيها رأيه ، متبنياً رأياً غير رأيه الأول ، غير آبه لرأي المخالف ما دام أن الدليل قد صح عنده، وترجح لديه .

وأكتفى هنا بهذه المسألة وأذكر عدداً من المسائل دون تفصيل مخافة الإطالة.

المسألة الثانية : جوائز السحب للمشتركين[١] .

المسألة الثالثة: شراء بيوت السكن في الغرب عن طريق البنوك الربوية[٢].

المسألة الرابعة : زكاة الأسهم [٣].

المسألة الخامسة : إباحة الشيخ للحائض دخول المسجد [٤].

* * *

(١) انظر: فتاوي معاصرة (٣٨٦٣) وما بعدها.

(٢) انظر: المرجع السابق (٦٢٥٣) وما بعدها. وانظر: في فقه الأقليات المسلمة ١٥٤ وما بعدها.

(٣) راجع زكاة الأسهم والسندات من كتاب «فقه الزكاة» في الطبعة الجديدة (مكتبة وهبة).

(٤) انظر : فقه الطهارة ص ٢٩١ .

obeikandl.com

المبحث الثامن

الدعوة إلى الأمل والعمل لا اليأس والكسل

اليأس والكسل أو القنوط والملل صفات سلبية ينبغي أن تمحى من قاموس الدعاة ، على أن يحل محلها الأمل والرجاء والجد والعمل ، ولله در ابن مسعود يوم أن قال : الهلاك في اثنتين القنوط والعجب .

إن شعاع الأمل ينبغي أن يضيء جنبات كل مسلم، وإن غيوم اليأس والقنوط والإحباط ينبغي أن تزول بعيداً عن قلب كل موحد ، وإن شعلة الأمل ينبغي أن لا تطفئ من قلب كل داعية . ولله در الشاعر حين قال :

واليأس يحدث في أعضاء صاحبه ضعفاً ويورث أهل العزم توهيناً

ولقد كان النبي ﷺ : وهو في أحلك الظروف والفترات ينبع قلبه بالأمل ، ويشع فؤاده بالرجاء ، وكيف لا وهو القائل ﷺ : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى »(١) .

انظر إليه وهو في مكة يوم أن جاءه خباب بن الأرت وقد كوي ظهره بالحديد قائلا: ألا تدعو الله لنا ؟ فما كان من النبي ﷺ إلا أن أعطاه وأعطى الدعاة من بعده درساً في الأمل فقال : « والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون »(٢) .

وانظر إليه في هجرته وقد خرج طريداً وحيداً فيلحق به سراقة بن مالك فيقول له : يا سراقة كيف بك إذا ألبسك الله سواري كسرى ؟ فيقول سراقة : كسرى بن هرمز ؟ فيقول: نعم (٣) .

---

(١) رواه مسلم في الجنة ونعيمها رقم (٢٨٧٧) عن جابر بن عبد الله.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر الاستيعاب ابن عبد البر (٥٨١٢) وانظر الإصابة (٤٠٣).

وانظر إليه وهو يقول لعدي بن حاتم وقد رأى ﷺ التعجب على وجهه لضيق حال المسلمين فيقول له ﷺ باعثاً الأمل في قلبه : « يا عدي هل رأيت الحيرة؟ قلت : لم أرها، وقد أنبئت عليها، قال : فإن طالت بك الحياة، لترين الظعينة ترتحل من الحيرة، حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلا الله ـ قلت فيما بيني وبين نفسي : فأين دعار[1] طيء الذين قد سعروا في البلاد ـ ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى. قلت : كسرى بن هرمز؟ قال : كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة، لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة، يطلب من يقبله فلا يجد أحدا يقبله منه »[2].

وانظر إليه وقد تألبت عليه قريش وأحلاس العرب ، ونقض يهود بني قريظة عهدهم، وصور الله حال أصحابه بقوله: ﴿ **وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً** ﴾ [الأحزاب: ١٠- ١١][3].

ومع هذا كله حين تعترض الصخرة حفر أصحابه يبشرهم وقد ملأ الأمل قلبه بفتح مدائن كسرى وقيصر والنجاشي.

والشيخ القرضاوي من الدعاة الذين كتب الله لهم حظاً من الأمل والعمل ، وقد عرف الشيخ بكتاباته وكلماته الباعثة إلى الأمل والداعية إلى العمل ، ولذلك فإن الشيخ يرى بأن الأمل في الحياة ما هو إلا : قوة دافعة تشرح الصدر للعمل ، وتخلق دواعي الكفاح من أجل الواجب ، وتبعث النشاط في الروح والبدن ، تدفع الكسول إلى الجد ، والمجد إلى المداومة على جده ، والزيادة فيه . تدفع المخفق إلى تكرار المحاولة حتى ينجح ، وتحفز الناجح إلى مضاعفة الجهد ليزداد نجاحه .

الأمل إذن هو إكسير الحياة ، ودافع نشاطها ومخفف ويلاتها ، وباعث البهجة والسرور فيها :

---

(١) دعار : جمع داعر وهو الخبيث المفسد .

(٢) رواه البخاري في المناقب برقم (٣٥٩٥) عن عدي بن حاتم .

(٣) رواه أبو داود (٤٣٠٢)، والنسائي (٤٣٦) والبيهقي (١٧٦٩)، عن رجل من الصحابة، وذكره الألباني في صحيح النسائي برقم (٢٩٧٦).

ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل !

والأمل ـ قبل ذلك كله ـ شيء حلو المذاق ، جميل المحيا في ذاته ، تحقق أو لم يتحقق [١].

وفي المقابل يرى الشيخ اليأس ما هو إلا : انطفاء جذوة الأمل في الصدر ، وانقطاع خيط الرجاء في القلب ، فهو العقبة الكؤود ، والمعوق القاهر الذي يحطم في النفس بواعث العمل ، ويوهي في الجسد دواعي القوة .

سم بطيء لروح الإنسان ، وإعصار مدمر لنشاط الإنسان ، وتلك حال اليائسين أبد الدهر : لا إنتاج للحياة ، ولا إحساس بمعنى الحياة .

وليس بعجيب أن تجد هذا الصنف من الناس بوفرة وغزارة بين الجاحدين بالله أو ضعاف الإيمان به ؛ لأنهم عاشوا بأنفسهم فحسب ـ زعموا ـ وقطعوا الصلة بالكون ورب الكون ، فلا غرو أن تجد هؤلاء الكافرين أيأس الناس ، كما نجد اليائسين أكفر الناس ، فهناك ارتباط بين اليأس والكفر، كلاهما سبب للآخر وثمرة له : اليأس يلد الكفر والكفر يلد اليأس ﴿ **إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [يوسف : ٨٧]. ﴿ **وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ** ﴾ [الحجر: ٥٦] [٢].

والشيخ لا يرى اليأس من لوازم الكفر فحسب ، بل من لوازم الشك أيضاً ، فكل من فقد اليقين الجازم بالله ولقائه ، وحكمته وعدله ، فقد حرم الأمل والنظرة المتفائلة للناس والكون والحياة ، وعاش ينظر إلى الدنيا بمنظار أسود قاتم ، ويرى الأرض غابة والناس وحوشاً والعيش عبئاً لا يطاق .. على نحو ما قال أبو العلاء : هذا ما جناه أبي عليّ وما جنيت على أحد . وقال :

لا تبك ميتاً ولا تفرح بمولود فالميت للدود والمولود للدود ! [٣]

ومن ثم فقد وجب على المسلم أن يقطع اليأس من قلبه ويجتث جذور القنوط من فؤاده والسبب في ذلك كما يقول الشيخ هو : أن اليأس ليس من شيمة المؤمن أبداً ، وإن اكفهر الجو من حوله ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت ،

---

(١) انظر : الإيمان والحياة ص ١٣٥ .

(٢، ٣) انظر : المرجع السابق ص ١٣٦، ١٣٧ بتصرف .

يقول تعالى على لسان يعقوب: ﴿ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧]. وقال على لسان جده إبراهيم : ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ ﴾ [الحجر: ٥٦].

فالمسلم الحق لا ييأس ولا يقنط ، وهو يعلم أن مع اليوم غدا ، وأن مع العسر يسرا، وأن بعد الليل فجرا ، وأن دوام الحال من المحال ، وأن كثيراً من حقائق اليوم كانت أحلام الأمس ، فلا غرور أن تصبح أحلام اليوم ، حقائق الغد .

لا تيأسن وإن طالت مطالبة إن استعنت بصبر أن ترى فرجاً

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا[1]

إن الدعوة إلى الأمل ينبغي أن تكون نصب عين كل داعية ، وكم كان هو موفقاً الشهيد سيد قطب يوم أن كتب عن الأمل ، وكم كان رائعاً يوم أن جعل أحد عناوين كتبه « المستقبل للإسلام » .

ولهذا كان مما أعجب به الشيخ القرضاوي في شيخه البنا أنه : لم تنطفئ شعلة الأمل في صدره في أشد الأوقات حرجاً ، وكم دبج من المقالات التي تحيي الأمل وتبعث الرجاء وكم كرر في رسائله : أن حقائق اليوم هي أحلام الأمس ، وأحلام اليوم هي حقائق الغد[2] .

ويقول عن شيخه أيضاً : وقد كان إمامنا الشهيد حسن من أقوى الناس أملاً في النصر، ورجاءً في المستقبل ؛ رغم ما يعلمه من ألغام العقبات التي توضع في طريقه[3] .

ولهذا فإن الشيخ القرضاوي كثيراً ما يؤكد على الأمل في نصر الله وصدق موعود الله ، يقول حفظه الله : أريد أن أنبه في هذه الوقفات على أمرين :

الأول : أن كل الدعاة والمصلحين المجتهدين كانوا من ذوي القلوب الآملة في الله ، الواثقة بالنصر ، الراجية للغد ، المرتقبة لطلوع الفجر .

ولا يصلح داعية يغمره اليأس من نجاح دعوته ، وانتصار رسالته ، بل

---

(١) انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ٧١ .

(٢) انظر : المبشرات بانتصار الإسلام ص ٦ .

(٣) انظر : المرجع السابق ص ١٠٣ .

الداعية الحق هو الذي يهزم الأمل فيه اليأس ، ويغلب الرجاء فيه عوامل الخوف والقلق ، ويطمئن إلى أنه مع الله ، فالله تعالى معه[1] .

إن واقع الإسلام المر الذي يعيشه الناس ينبغي ألا يقطع الناس أبصارهم عنده ويوقفوا أعينهم عليه ، مستسلمين لليأس أو القنوط ، بل ينبغي أن يؤمنوا بأن النصر قادم ، وأن الأيام دول ، وأن دوام الحال من المحال .

ويؤكد الشيخ هذا المعنى حين يقول : إني برغم الضغوط الهائلة التي تتعرض لها الصحوة الإسلامية ، والضربات الوحشية التي توجه للحركة الإسلامية، والمكايد الخفية التي تبيت للأمة الإسلامية ، وغفلة القائمين على أمر الأمة ، بل مساعدتهم لأعدائهم على شعوبهم، برغم هذا كله أنا متفائل بمستقبل الأمة والصحوة الإسلامية والدعوة .

ولطالما أعلنت في أكثر من مناسبة في محاضراتي ودروسي : أنه إذا كان القرن التاسع عشر قرن الرأسمالية، والقرن العشرون قرن الشيوعية، فإن القرن الحادي والعشرين هو قرن الإسلام .

ويمكن أن نقول : إذا كان القرن التاسع عشر قرن المسيحية والقرن العشرون هو قرن اليهودية ، وقيام دولة إسرائيل ، وانتصارها على بضع وعشرين دولة عربية، وبضع وأربعين دولة إسلامية ، فإن القرن الحادي والعشرين هو قرن الإسلام[2].

إن ظاهرة الأمل ينبغي أن تترآءى في الأفق لكل مسلم كما تترآءى النجوم لأهل الأرض ، ينبغي أن يدرك الناس أن الأمل للمؤمن كالشمس بالنسبة للدنيا، وإذا كانت الدنيا لا تقبل بغير شمس فإن الدين لا يقبل بغير أمل ، والسبب في ذلك أن هذه الأمة أمة كتب لها الخلود ، وصفة الخلود الموسومة بها هذه الأمة تقتضي أن يظل الأمل معقوداً في موعود الله مهما توالت النكبات ، أو ازدادت الأزمات ، أو ادلهمت الأمور ، بل هذه النكبات وتلك الأزمات لا تقطع الأمل بل تزيده ، ولا تزرع اليأس بل تقلعه .

---

(١) انظر : المبشرات بانتصار الإسلام ص ١٠٣ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ١٠٠ ، ١٠١ .

ويؤكد الشيخ القرضاوي هذا المعنى في كثير من كتبه فيقول : ومن دلائل الخلود لهذه الأمة ، أن الكوارث والنكبات لا تحطمها ولا تقتلها، بل تبعث فيها روح المقاومة والتحدي ، فتراها إذا نزلت بها النوازل القاصمة ، أشد ما تكون قوة ، وأصلب ما تكون عوداً ، حتى إن الناس ليظنون بها الظنون ، ويحسبونها في عداد الهلكى ، فإذا هي في فترة وجيزة ، تتغلب على عوامل الضعف المحيطة بها ، بروح القوة المكنونة في داخلها ، وإذا بالذين يرقبونها من بعيد ، أو ينظرون إليها من قريب ، يرون انتصاراً بعد انكسار ، واجتماعاً بعد شتات ، وحياة بعد جمود أشبه بالموت .

١ ـ رأينا ذلك في فجر الإسلام ، في حروب الردة وقتال المتمردين على دفع الزكاة.

٢ ـ ورأيناه في عصور التمزق للدول الإسلامية ، في مقاومة غزوات التتار الوحشية ، الذين أقبلوا من الشرق كأنهم يأجوج ومأجوج ، أو كأنهم الريح العقيم ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات: ٤٢].

٣ ـ وفي مقاومة الحروب الصليبية التي زحفت فيها أوربا على الشرق الإسلامي بقضها وقضيضها وثالوثها وصليبها ، فقتلت ودمرت وأفسدت ، ما يعلمه كل دارس لتلك المرحلة من التاريخ .

ولكن القوة الذاتية الكامنة في أمة الإسلام ، لم تلبث أن ظهرت في وقائع تاريخية حاسمة ، فحطمت أحلام الصليبيين في حطين .. وفتح « بيت المقدس » بعد أن بات أكثر من تسعين عاماً أسيراً في يد الغزاة ، وأسر « لويس التاسع » ملك فرنسا في « دار ابن لقمان » بالمنصورة ، وارتد التتار مدحورين في « عين جالوت » بعد أن كان الناس يعتبرونهم « القوة التي لا تقهر » حتى شاع بين الناس القول : إذا قيل : إن التتار انهزموا فلا تصدق .. ! [1]

وكما ترجم الشيخ هذه المعاني نثراً فقد أودعها قافية وشعراً ، ويظهر ذلك في ديوان الشيخ الثاني في عنوان الديوان ذاته حين أسماه الشيخ « المسلمون قادمون » وفي مقدمته يقول الشيخ : وهأنذا أقدم هذه المجموعة للقارئ المسلم،

---

(١) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ١٤١ .

أو أقدم نفسي في هذه المجموعة ، عسى أن يعيش معي ما عشته من مشاعر ، أكثرها في جانب الألم والأسى ، ولكنه ألم ينشئ الأمل، وأسى يبعث الرجاء ، فمن رحم الظلام يولد الفجر . ومن هنا عشنا الصحوة ، كما عشنا المحنة ، وكان تطلعنا إلى غد الإسلام المشرق ، بل يقيننا به ، وهذا ما جعلني أختار لهذه المجموعة عنوان «المسلمون قادمون»[1].

ولقد رد الشيخ على بعض المعوقين للدعاة ، والمثبطين لهم حين زعموا بأنه لا فائدة من العمل ، ولا طائل من الدعوة ، فرد عليهم الشيخ بقوله :

عجبت لهم قالوا: تماديت في المنى ... وفي المثل العليا، وفي المرتقى الصعب
فاقصر ولا تجهد يراعك ، إنما ... ستبذر حباً في ثرى ليس بالخصب
فقلت لهم: مهلاً فما اليأس شيمتي ... سأبذر حبي ، والثمار من الرب
إذا أنا أبلغت الرسالة جاهدا ... ولم أجد السمع المجيب، فما ذنبي ؟[2]

بل كان الشيخ مملوء القلب بالأمل في أحلك الظروف وأشدها ، حتى في أيام العذاب والزنازين ، كان يُصبر إخوانه في المحنة ويدعوهم إلى الأمل ويحذرهم من اليأس فيقول الشيخ :

صبراً أخي في محنتي وعقيدتي ... ولا بد بعد الصبر من تمكين
ولنا بيوسف أسوة في صبره ... وقد ارتمى في السجن بضع سنين
هون عليك الأمر لا تعبأ به ... إن الصعاب تهون بالتهوين
أمس مضى واليوم يسهل بالرضا ... وغد ببطن الغيب شبه جنين
لا تيأسن من الزمان وأهله ... وتقل مقالة قانط وحزين
شاة أسمنها لذئب غادر ... يا ضيعة الإعداد والتسمين
فعليك بذر الحب لا قطف الجنى ... والله للساعين خير معين[3]

والشيخ تراه واقعياً في كتاباته فهو وإن كان يدعو إلى الأمل والعمل، ويؤمن بنصر الإسلام ، وصدق موعود الله ، إلا أنه يقر بالواقع المر الذي نعيش فيه ،

---

(١) انظر : المسلمون قادمون ص ٧ .
(٢) انظر : نفحات ولفحات ص ٥١ .
(٣) انظر : المرجع السابق ص ٦٩ .

ولهذا فهو يقر بالواقع البائس فيخيل للبعض أنه ربما يائس ولكن سرعان ما يصرف الشيخ هذا الوهم؛ وفي كتابه «الناس والحق» والذي هو عبارة عن رسالة أسلوبها الحوار بين طالب وشيخه، يقول الشيخ في هذه الرسالة : غير أن المسلمين ـ وأسفاه ـ غافلون عن الحق الذي شرفهم الله به وحملهم أمانة تبليغه ونصرته ، ونشر نوره في العالمين .

فكيف يهدي الناس إلى الحق من عمى عنه أو تعامى ، ومن نسيه أو تناساه، وفاقد الشيء لا يعطيه ؟!

قال الطالب : هل أفهم من كلامك أنك يائس من غلبة الحق على الباطل .

قال الشيخ : لا . . لا ينبغي أن يتسرب إلى فؤاده اليأس : ﴿ **إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [يوسف : ٨٧] .

ويقيني أن الحق لا بد أن تقوم له دولة ، وأن ترفع رايته في الأرض ، ولا بد أن ينهزم الباطل ويلوذ بالفرار .

وقد بدت بشائر انهزام الباطل في الغرب ، بشائر كثيرة تبعث على الأمل وتبدد ظلام اليأس .

إن مما يبعث على الأمل أن الاستعمار الذي أغلق كثيراً من النوافذ التي تهب منها نسمات الحرية الفكرية على الشعوب ، قد حمل عصاه ، ورحل عن أقطار كثيرة ، فأتاح فرصة للأفكار أن تتحرر ، وللعقول أن تبحث .

ويبعث على الأمل أن الإلحاد أخذ يتضاءل ويخفي رأسه ، ويخفت صوته، ولم يعد له حجة ولا سلطان ، وكلما تقدم العلم ازداد عدد المؤمنين بالله ، وتناقص عدد المنكرين .

ويبعث على الأمل أن كثيراً من المفكرين المنصفين أخذوا يشكون من طغيان المادية على الحياة ، وطفقوا يبينون مثالب الحضارة المادية ، وخطرها على خصائص الإنسان وتهديدها للقيم الأصيلة والمثل العليا في الحياة [١].

ويقول في كتابه الموسوم بـ« جيل النصر المنشود » وهو يرد على محاور له طوته الحيرة ونشرته ، وأقامه الهمّ وأقعده؛ من مآسي المسلمين المرة ، وقد أوشك

---

(١) انظر : الناس والحق ص ٨٩ - ٩١ بتصرف.

اليأس أن يحطم قلبه . هنا يدفع الشيخ اليأس عن محاوره وأمثاله بقوله : قلت له : لا تيأس يا صاحبي ، فسنة الله أن يعقب الليل الغاسق بفجر صادق ، وأشد ساعات الليل حلكة وسواداً هي السويعات التي تسبق بزوغ الفجر ، ولكن لله في خلقه قوانين صارمة لا تحابي ، وسنناً ثابتة لا تتبدل ، ولا بد لنا أن نعيها ، ونتعامل على بصيرة معها [١].

إن كثرة المآسي ، وقلة السالكين للحق لم تكن وينبغي ألا تكون مثبطاً للهمم أو دافعاً إلى اليأس أبداً . وفي هذا يقول الشيخ : وهب أن الناس كلهم قد انطمست بصائرهم ، وختم على سمعهم وأبصارهم ، وغشى الباطل على قلوبهم ، فلم يعودوا يستجيبون لصيحة الحق ولا لدعوة الخير ، فلا يفتت ذلك في عضدك ، ولا يقعدنك عن واجبك ، فإنما عليك البلاغ وعلى الله الحساب ، عليك الدعوة وعلى الله الهداية ، عليك أن تبذر الحب ، وأن ترجو الثمار من الرب .

إن أحلك ساعات الليل سواداً هي التي تسبق الفجر ، وإن أشد الأيام قسوة هي التي تسبق تباشير النصر ، وما أكثر الأمثلة على ذلك ، وما أكثر الأدلة ![٢]

وإذا كان الأمل قد ملأ قلب الشيخ القرضاوي كما رأينا؛ فإن هذا الأمل لم يكن عنده مدعاة للكسل بل حافزاً للعمل داعياً للعطاء آمراً بالبذل .

وقد حرص الشيخ على أن يكون العطاء والعمل ديدن كل داعية ، بل جعل الشيخ قلة العمل مع مجرد التغني بأمجاد الماضي مظهراً من مظاهر المراهقة لدى الصحوة الإسلامية، يقول الشيخ : من مظاهر المراهقة في الصحوة : التشدق بالكلام وكثرة القيل والقال فيما لا يبني ولا يجدي ، على حساب العمل المنتج البناء [٣].

والحق أن العمل صفة ملازمة لكل مسلم وهي أشد ملازمة له في وقت الأزمات والشدائد ؛ وحينئذ يضاعف له الأجر حتى يصل إلى أجر خمسين رجلاً

---

(١) انظر : جيل النصر المنشود ص ٥ .
(٢) انظر : الناس والحق ص ٩٤ ، ٩٥ .
(٣) انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ٥٣ .

من الصحابة وفي الحديث قال ﷺ : « إن من ورائكم أيام الصبر فيهن مثل قبض على الجمر ، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله » وفي رواية « قالوا منا أو منهم ؟ قال : بل منكم[1] ».

ومن هنا فقد حرص الشيخ على إلزام جيل النصر المنشود بالعمل؛ بل العمل الجاد، والكف عن التغني بأمجاد الماضي فقال واصفاً هذا الجيل : جيل لا يقف عند التغني بأمجاد الماضي ، ولا عند النواح على هزائم الحاضر ، ولا عند التمني لانتصارات المستقبل .. إنما يؤمنون بأن المجد بالعطاء لا بالمفاخرة ، وبالإنتاج لا بالثرثرة ، وأن الفتى من يقول : هأنذا، وليس الفتى من يقول : كان أبي .. وأن الانتصار على مآسي اليوم ، وتحقيق آمال الغد، إنما يتحقق بالجد لا بالهزل ، وبالبناء لا بالهدم ، وبالعمل الهادئ لا بالصراخ المدوي[2] .

بل طالب الشيخ الصحوة الإسلامية ورجالها بالعمل الجاد لمواجهة المكائد التي تكاد للأمة ؛ فقال حفظه الله : على الحركة الإسلامية أن تضاعف الجهد ، وتكثف العطاء، حتى تحقق الآمال المنوطة بها .

على الحركة أن تنتقل من مرحلة الكلام إلى مرحلة العمل ، وأن تتحرر من تلك الآفة التي غدت تعوق خطانا عن السير ، وهي كثرة النواح على الماضي ، وقلة العمل للحاضر ، والنواح لا يحيى ما مات ، ولا يرد ما فات .

إن آفتنا كثرة الشاكين المتوجعين ، وقلة المداوين ، وكثرة من يسبون الظلام، وقلة من يوقدون الشموع .

أجل ، كثرت الشكوى وتكررت من الأدواء والمآسي ، حتى لم يعد هناك أحد إلا يشكو ، فمن المشكو منه إذن ؟ كلنا شاك وكلنا مشكو منه [3].

وقد عاب الشيخ على صحوتنا المباركة أن تأخذ جانب الانتظار سواء على المستوى السياسي أو المستوى الديني ، وسماهم الشيخ بالمهدويين الذين يوقفون كل سائر ويجمدون كل متحرك ، وقد أمر الشيخ هذا النوع بالعمل بدل الانتظار وبالتحرك بدل التوقف يقول حفظه الله : لقد آن للتفكير عندنا أن يتغير من

---

(١) رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٤١) عن أبي ثعلبة الخشني وابن ماجه (٤٠١٤)، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٤٩٤).

(٢) انظر : جيل النصر المنشود ٢٨، ٢٩ .

(٣) انظر : أين الخلل ص ٧٦ ، ٧٧.

انتظار عبقري فذ موهوب يصنع المعجزات ، ويتخطى المستحيلات للتوجه إلى حركة شعبية جماعية ، تقوم بقيادة سفينة التغيير والإصلاح .

لقد كنا ننتظر دائماً هذا المنقذ الفرد ، سواء على المستوى السياسي، أم على المستوى الديني .

وعلى المستوى السياسي نجد الجماهير معلقة أبدا بزعيم ملهم ، يقود مسيرتها في معركة التحرير أو معركة البناء .

وعلى المستوى الديني ننتظر دائماً « مهدياً » أو « مجدداً » واحداً ، تبعثه العناية الإلهية، ليقوم عن الناس بإصلاح ما أفسد الدهر [١] .

والعمل الذي يريده الشيخ ليس عملاً وقتياً إنما عمل مستمر دائم ، وليس عملاً جزئياً ولكنه عمل كامل شامل ، يقول الشيخ : والحق أنه لا بديل عن العمل والعمل الدائب، والعمل المستطاع ، لخدمة الإسلام ، وإعلاء كلمته ، ونصرة شريعته ، وتوحيد أمته ، وتحريرها وتطويرها .

وهو عمل في جملة ميادين ، كل منها يستغرق جهوداً وجهوداً . إنه العمل مع النفس، والعمل مع الأسرة ، والعمل مع المجتمع .

العمل مع المسلمين ، والعمل مع غير المسلمين .

إنه العمل بالإسلام ، والعمل للإسلام .

العمل باللسان ، والعمل بالقلم ، والعمل باليد ، والعمل بالفكر ، والعمل بالبذل .

العمل في الدعوة ، والعمل في التربية ، والعمل في الثقافة ، والعمل في الاقتصاد ، والعمل في خدمة المجتمع .

إنه العطاء المتجدد من كل حسب طاقته ، ولا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ، عطاء بالمعروف حقاً على المؤمنين [٢] .

* * *

---

(١) انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ٧٦ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٨٠ ، ٨١ .

المبحث التاسع
العدل والإنصاف مع مخالفيه

من معاول الهدم التي ابتليت بها الصحوة الإسلامية في عصرها المبارك هذا؛ غمط الخصوم ، وقد وقع في ذلك كثير من ناشئة العلم ، بل وقع فيه كبار من الدعاة والعلماء في القديم وفي الحديث، وغالباً ما يكون الغمط إما كبراً أو حسداً أو ظلماً، أو أنه طبع أصيل في صاحبه فلم يستطع الإفلات منه .

وغني عن البيان أن دين الله سبحانه نهى عن الإجحاف ودعا إلى الإنصاف، بل ركز على إنصاف الأعداء والمخالفين، مخافة أن يحمل بغض قوم على ظلمهم فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى** ﴾ [المائدة: ٨] .

وحين تحدث القرآن عن أهل الكتاب أنصف المحسنين منهم ، فذكر ما ذكر من مساويهم ومخازيهم ثم قال سبحانه : ﴿ **لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ** ﴾ [آل عمران: ١١٣] .

وإن من أروع دلائل الإنصاف ما نزلت به الآيات في سورة النساء حيث اهتزت السماء لأمر يهودي اتهم ظلماً في جريمة لم يكن له علاقة بها ؛ وكاد النبي ﷺ أن يصدق من وشى باليهودي من المسلمين فعاتب الله نبيه ﷺ وأنزل براءة اليهودي فقال سبحانه : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً * وَاسْتَغْفِرِ اللّهَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً** ﴾ [النساء: ١٠٥ ، ١٠٦].

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله : في الوقت الذي كان اليهود في المدينة يطلقون كل سهامهم المسمومة ، التي تحويها جعبتهم اللئيمة ، على

الإسلام والمسلمين ؛ في الوقت الذي كانوا فيه ينشرون الأكاذيب ؛ ويؤلبون المشركين ؛ ويشجعون المنافقين ، ويرسمون لهم الطريق ؛ ويطلقون الإشاعات ؛ ويضللون العقول ؛ ويطعنون في القيادة النبوية ، ويشككون في الوحي والرسالة؛ ويحاولون تفسيخ المجتمع المسلم من الداخل ، في الوقت الذي يؤلبون عليه خصومه ليهاجموه من الخارج .. والإسلام ناشئ في المدينة ، ورواسب الجاهلية ما يزال لها آثارها في النفوس ؛ ووشائج القربى والمصلحة بين بعض المسلمين وبعض المشركين والمنافقين واليهود أنفسهم ، تمثل خطرا حقيقيا على تماسك الصف المسلم وتناسقه ..

في هذا الوقت الحرج ، الخطر ، الشديد الخطورة .. كانت هذه الآيات كلها تتنزل، على رسول الله وعلى الجماعة المسلمة ، لتنصف رجلا يهوديا ، اتهم ظلما بسرقة ؛ ولتدين الذين تآمروا على اتهامه ، وهم بيت من الأنصار في المدينة. والأنصار يومئذ هم عدة الرسول وجنده ، في مقاومة هذا الكيد الناصب من حوله ، ومن حول الرسالة والدين والعقيدة الجديدة ... !

أي مستوى هذا من النظافة والعدالة والتسامي ! ثم أي كلام يمكن أن يرتفع ليصف هذا المستوى ؟ وكل كلام ، وكل تعليق ، وكل تعقيب ، يتهاوى دون هذه القمة السامقة ؛ التي لا يبلغها البشر وحدهم . بل لا يعرفها البشر وحدهم. إلا أن يقادوا بمنهج الله ، إلى هذا الأفق العلوي الكريم الوضيء ؟! (١)

وعلى هذا الخلق الراقي تربى الصالحون والمخلصون ، والعلماء الربانيون ، هذا شيخ الإسلام ابن تيمية والذي تتمسح به جل فصائل الحركة الإسلامية وليتهم يتعلموا منه كيف يكون الإنصاف ؟ يقول رحمه الله : وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر ، وفجور وتقى، وطاعة ومعصية، وسنة وبدعة، استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع

---

(١) انظر في ظلال القرآن ج ٢ ص ٧٥١ وما بعدها بتصرف .

له من هذا وهذا ؛ كاللص الفقير تقطع يده لسرقته ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته[١].

ومن كلام الذهبي الرائع رحمه الله عن تفسير أبي بكر القفال وما فيه من اعتزال يقول : الكمال عزيز وإنما يمدح العالم بكثرة ماله من الفضائل ، فلا تدفن المحاسن لورطة، ولعله رجع عنها، وقد يغفر له باستفراغه الوسع في طلب الحق ، ولا قوة إلا بالله[٢].

ولقد من الله عز وجل على الشيخ القرضاوي بنعمة العدل والإنصاف ، فإنه إذا أحب لا يقدس ، وإذا كره لا ينقص ، لكنه مقسط في هذا وذاك ، يقول حفظه الله : وهذا مما أحمد الله تعالى عليه : العدل والاعتدال مع الناس ، وخصوصاً مع العلماء فلا أغلو في حب بعضهم إلى درجة التقديس ، ولا أتطاول على كبرائهم لمجرد أنه أخطأ فكل بني آدم خطاء ، ولكل عالم هفوة ، ولكل جواد كبوة ، ثم ما يدريني لعل ما أظنه صواباً هو الخطأ بعينه ، ولا سيما في الأمور الاجتهادية [٣].

وقد عاب الشيخ القرضاوي عدم الإنصاف في شعره ؛ لأنه يرى أن عدم الإنصاف هضم للحقوق فقال :

سلام على الدنيا سلام على الورى ... إذا ارتفع العصفور وانخفض النسر !
أيعطى لزيد ما يشاء من المنى ... ويحرم حتى من ضروراته عمرو
أيعطي لنا يا قومنا القشر والنوى ... ومن دوننا يعطى له اللب والتمر
إذا العدل والإنصاف في الأرض لم يقم ... فمن أين يأتي أهلها العز والنصر ؟[٤]

ولذلك ترى الشيخ القرضاوي يغضب من عدم إنصاف الناس أفراداً وجماعات ، ومن ذلك أن الشيخ لا يرضى أن تكون الدولة العثمانية مشجباً

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى ابن تيمية ٢٨ ص ٢٠٩ .
(٢) سير أعلام النبلاء ج١٦ ص ٢٨٣ وما بعدها .
(٣) انظر : ابن القرية والكتاب ج٢ ص ٢٠٢.
(٤) انظر : المرجع السابق ج ٢ ص ٢٠ ، وانظر : رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد ص ٤ ، ٥.

يعلق عليه الناس كل خطأ، ويجعل الناس عليه كل عثرة فيقول حفظه الله : أصبحت الدولة العثمانية مشجباً يعلق عليه الكثيرون كل الأخطاء والعثرات في شتى المجالات .. فالواقع أن سيطرة التقليد والتعصب المذهبي وذبول شجرة الاجتهاد المطلق ، أمور سبقت الدولة العثمانية ، واستشرت في أقطار العالم الإسلامي بنسب متفاوته ، وإن لم يخل عصر من العصور من مجتهدين .

على أنه من الإنصاف للواقع وللتاريخ أن نقول : إن الدولة العثمانية اهتمت بالجهاد أكثر من اهتمامها بالاجتهاد ، مع أن القيادة الإسلامية تحتاج إلى كلا الأمرين: الاجتهاد لمعرفة الهدى ودين الحق الذي بعث الله به رسوله ﷺ، والجهاد لحمايته والذود عنه[1] .

وحين يرى الشيخ التطاول المزري على كل من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ورشيد رضا ، من الأغمار من الناس ، فينبري حفظه الله ليؤكد ما كان للرجال من خير ويعتذر عما كان منهم من زلات فيقول : لقد كان الشيخ محمد عبده أقرب إلى الانضباط بمحكمات الشرع من شيخه الأفغاني بحكم ثقافته الأزهرية المتعمقة .. والسيد محمد رشيد رضا كان أقرب إلى الانضباط بمحكمات الشرع من شيخه الإمام ، بما له من سعة اطلاع على كتب السنة والآثار ، وإنتاج المدرسة السلفية ، التي يمثلها الإمام ابن تيميه وتلميذه ابن القيم، وهو الذي شن حملاته القوية من مجلته العتيدة «المنار» على الجمود والتقليد ، وكتب المقالات الإصلاحية ، والفتاوى العلمية التجديدية ، خلال ثلث قرن من الزمان أو يزيد ، وذاعت اجتهادات الشيخ رشيد ، وفتاواه التجديدية في العالم الإسلامي كله ، ولقيت من القبول أكثر مما لقيته اجتهادات شيخه على قلتها .. أما اجتهادات السيد جمال الدين فلا نكاد نعرف له اجتهاداً معيناً ، وقد كانت شخصيته شخصية الزعيم «الثائر» الموقظ للعقول، المحرك للمشاعر ، المثير للهمم والعزائم ، لا شخصية الفقيه المنضبط بأصول وقواعد ، وكل ميسر لما خلق له .

---

(١) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ٤١ ، ٤٢ .

وقد أخذ على الشيخ محمد عبده بعض آرائه في تأويل القرآن ، كقوله في قصة آدم، وكلامه عن الطير الأبابيل ، ونحو ذلك ، وعذره أن الحضارة الغربية كانت في أوجها ، وكان الانبهار بها على أشده ؛ لذا غلبت عليه النزعة العقلية، ومحاولة إخضاع النص حتى يوافق المفاهيم الجديدة ، وتقريب تعاليم الدين من المثقفين بالثقافة الغربية ، ولو بالتكلف .

ومن الإنصاف لمن يريد تقويم شخص ما ، وتقدير فكره وعمله ، أن يضعه في إطاره التاريخي الخاص ، لا يعدو به زمانه ومكانه إلى زماننا نحن ومكاننا ، فبعض ما يبدو لنا اليوم واضحاً مسلماً ، لم يكن كذلك في زمنه ، فرحم الله امرءاً أنصف من نفسه ، وأعطى كل عامل ما يستحقه ، وأقام الشهادة لله..[1]

وفي تعقيبه حفظه الله على مقال لأحد مخالفيه في مسألة رؤية الهلال لإثبات شهر رمضان، يعقب بكل أدب واحترام فيقول: وقد قرأت مقالاً مطولاً في شهر رمضان لهذا العام ١٤٠٩ هـ لأحد المشايخ الفضلاء، وهو سماحة الشيخ صالح بن محمد اللحيدان... إلخ»[2]

وقد كان الشيخ وما يزال مثالاً رائعاً في العدل والإنصاف مع مخالفيه وهذا ظاهر في كتاباته وكلامه ، ولقد عد الشيخ القرضاوي إحدى ركائز الاختلاف : إنصاف المخالف وفي هذه الركيزة يقول الشيخ : ومن الركائز المهمة هنا : إنصاف الخصوم وإعطائهم حقهم من الناحية الأدبية، كما يعطون حقهم من الناحية العلمية فلا يجوز أن أهضم حقك وأغفل عمداً ذكر حسناتك، والتنويه بفضائلك، لمجرد خلافي معك في قضية أو أكثر، كما يفعل كثيرون، يجورون على خصومهم، فلا يكادون يعترفون لهم بحسنة، وإن عرفوا لهم سيئة أذاعوها ونشروها، بل ربما ضخموها ، وجعلوا من الحبة قبة، ومن الفأر جملاً، فهم كما قال الشاعر قديماً :

---

(١) انظر : صحوة راشدة ص ٤٢ ، ٤٣ ، وانظر : لقاءات ومحاورات ج١ ص ٧٥ .

(٢) انظر : المدخل لدراسة السنة ص ١٧٧ .

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً ... وما سمعوا من صالح دفنوا
صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به ... وإذا ذكرت بسوء عندهم أذنوا
جهلاً علينا وجبناً عن عدوهمو ... لبئست الخلتان الجهل والجبن [1]

والقرضاوي لا يعتبر الإنصاف واجباً مع المخالف المسلم فحسب ؛ لا إنما هو مع كل الناس ، لذا فإنه يقول : والمسلم الحق هو الذي يقضي بالعدل ويعمل بالإنصاف، مع الناس جميعاً ، برهم وفاجرهم ، مسلمهم وكافرهم ، قريبهم وبعيدهم ، صديقهم وعدوهم ، فالعدل لا يعرف عواطف الحب والبغض ، بل هو عدل الله لكل عباد الله[2] .

هذا وسوف أذكر شيئاً من إنصاف الشيخ من خلال أمرين :

أولاً : إنصافه للمخالفين من الأفراد .

ثانياً : إنصافه للمخالفين من الجماعات .

* * *

أولاً : إنصافه للمخالفين من الأفراد

١ ـ الشيخ ابن باز :

اختلف الشيخ القرضاوي حفظه الله مع الشيخ ابن باز رحمه الله لكن الاختلاف بين الرجلين لم يخرج عن كونه خلاف في الرأي أو استنباط الدليل ، غير أن الإمامين لم يتعد أحدهما أدب الخلاف ، أو احترام العلماء ، وكان ذلك إثر فتوى نشرتها الصحف لفضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله حول السلام مع إسرائيل ، وسوف أقتبس من رد الشيخ القرضاوي ما يؤيد ما نحن بصدده من إنصاف المخالف ، أما أي الفتوايين أصلح فله موضوع آخر .

جاء في صدر كلام الشيخ القرضاوي في الرد على الشيخ ابن باز : سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز واحد من كبار علماء المسلمين المرموقين في هذا العصر

(١، ٢) انظر : كيف نتعامل مع التراث ص ١٦٦ .

وفتاواه معتبرة في الأوساط العلمية والدينية ، وهو رجل يوثق بعلمه ودينه نحسبه كذلك ولا نزكيه على الله تعالى[١].

ويقول : فتوى الشيخ ابن باز التي نشرت حول السلام مع إسرائيل يخالفه فيها الكثير من علماء المسلمين وأنا منهم على الرغم من مودتي وتقديري الكبير له ، ولكن كما قال الحافظ الذهبي عن شيخه الإمام ابن تيمية : شيخ الإسلام حبيب إلينا والحق أحب إلينا منه[٢].

وفي رد الشيخ القرضاوي على تعقيب ابن باز رد يقول : فقد اطلعت على ما كتبه سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ، ويؤسفني أن أخالف سماحته في تعقيبه كما خالفته في أصل الفتوى وليس في العلم كبير ، والحق أحق أن يتبع[٣].

ويختم الشيخ هذا الرد بقوله : هذا وإن خلافي مع الشيخ عبد العزيز لا ينفي ما أكنه له من ود واحترم[٤].

ثم يقول : وإني لأرجو من الشيخ أن يمعن النظر فيما أوردت من أدلة واعتبارات ، عسى أن يراجع رأيه ، فهو ـ فيما علمت ـ رجَّاع إلى الحق.

هذا و الشيخ القرضاوي في أرجوزته التي بعنوان «الأصوليون» والتي تحدث فيها الشيخ على لسان العلمانيين وأجهزة الاستخبارات ، قد عد الشيخ القرضاوي كتب الشيخ ابن باز ورسائله في جملة الكتب التي يتهم بها الشاب المسلم عند اقتنائه لها فيقول الشيخ:

بيوتهم تحفل بالدلائل على انتمائهم بدون حائل
ستجد السواك والمصاحفا والكتب فيها تالداً وطارفا

إلى أن يقول :

(١، ٢) انظر : فتاوى معاصرة ج٣ ص ٤٦٥ .
(٣) انظر : المرجع السابق ج٣ ص ٤٧٢ .
(٤) انظر : المرجع السابق ج٣ ص ٤٧٧، ٤٧٨ .

وكتب القطبين كالظلال والقرضاوي بعد والغزالي
ومثلها رسائل ابن باز وعلماء الشام والحجاز[1]

٢ ـ الدكتور محمد سيد طنطاوي :

للدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر ومفتي مصر الأسبق آراء شذَّ بها عن إجماع العلماء ، ولعل أشهر ما عرف به الشيخ طنطاوي فتواه المتعلقة بشهادات الاستثمار وإباحته للمعاملات التي تجريها البنوك الربوية ، وإباحته للفوائد المتعلقة بهذه الأموال ، وقد أثارت هذه الفتوى القيل والقال على الشيخ الطنطاوي ، وكان ممن اعترض على هذه الفتوى الشيخ القرضاوي. غير أن الشيخ كان في رده على الشيخ طنطاوي منصفاً كل الإنصاف ، بعيداً عن إلقاء التهم ، أو إلصاق العيوب بالشيخ الطنطاوي .

وقد أصدر الشيخ القرضاوي كتابه «فوائد البنوك هي الربا الحرام» وقد ضم هذا الكتاب مناقشة علمية مفصلة رد فيها على فضيلة المفتي في فتواه المتعلقة بشهادات الاستثمار، وقد جاء في هذا الكتاب من كلام الشيخ القرضاوي أيضا إنصافاً للشيخ الطنطاوي فيقول : فضيلة الشيخ الدكتور محمد سيد طنطاوي أخ عزيز ، وصديق قديم ، عرفته منذ سنين طويلة ،فلم أجد فيه إلا الغيرة على الدين ، والأدب الجم ، ودماثة الأخلاق ، والمودة لإخوانه، ومعرفته الفضل لذويه[2].

ويقول: ونقدي لفتواه أو لبيانه أو لكلمته لا يقل من مودتي له وإعزازي إياه، بل كما قال الحافظ الذهبي عن شيخه الإمام ابن تيمية: شيخ الإسلام حبيب إلينا والحق أحب إلينا منه[3].

وقد حاول الشيخ القرضاوي أن يقدم حلولاً للشيخ الطنطاوي ليتهرب من الوقوع في ما تريده الدولة فيقول : وكنت أظن أن المفتي ـ وقد استفتته الدولة في

---

(١) انظر : المسلمون قادمون ص ١١٨ .
(٢، ٣) انظر : فوائد البنوك هي الربا المحرم ص ٧١ .

الموضوع ـ أن يحيلها على مؤسسة رسمية أنشأتها الدولة بقانون وجعلت من اختصاصها البحث في القضايا الجديدة ، والمسائل المهمة ، وهذه المؤسسة هي « مجمع البحوث الإسلامية » إحدى الهيئات الأساسية الثلاث ، التي تكون الأزهر الشريف ، وهو مجمع عالمي يفترض فيه أن يتكون من كبار علماء الأزهر، وعدد آخر من كبار علماء العالم الإسلامي .

كان بوسعه أن يعتذر بأنكم ـ معشر الحكام ـ حصرتم مهمة المفتي من سنين طويلة في الإجابة عن فتاوى الميراث وغيرها ، من المسائل الشخصية ، والتصديق على حكم الإعدام ، وإعلان ثبوت هلال رمضان وشوال وذي الحجة !! ولم تسألوه عن تطبيق أحكام الشريعة في الاقتصاد والمعاملات والسياسة والعقوبات . . ونحوها !

وكان يمكنه أن يعتذر بوجود فتاوى لمفتين سابقين قد يكونون أعرق منه في علم الفتوى ، ولا يحب أن يخالفهم .

كان بوسعه أن يفعل ذلك ولن يلومه أحد [١].

ويؤكد الشيخ القرضاوي على أخلاق الشيخ الطنطاوي من تواضع وأدب فيقول بعد أن زاره الشيخ طنطاوي في بيته بالقاهرة في عام ١٩٨٩ م وكان من الحضور الدكتور علي السالوس ، والدكتور عبد الحميد الغزالي ، وفي نهاية الجلسة وعد الشيخ طنطاوي الجلوس أنه لن يصدر شيئاً إلا إذا عرضه على أعضاء هذه الجلسة ؛ يقول الشيخ القرضاوي معقباً على ذلك : وهذا من أدبه وتواضعه المعروف ولا شك[٢] .

كما أن الشيخ القرضاوي خالف الشيخ الطنطاوي أيضا في مقابلته لأحد الحاخامات اليهود ، لكن الشيخ رغم مخالفته لشيخ الأزهر في هذا الاجتماع إلا أنه لم يرض أن ينال من عرض الشيخ أو يمس شخصه ، أو ينتقص من قدره بكلمة نابية فضلاً عن صورة « كاريكاتيرية » ، وكانت إحدى الصحف القطرية قد

(١، ٢) انظر : فوائد البنوك هي الربا المحرم ص ٧٣ ، ٧٥.

نشرت صورة « كاريكاتيرية » تبدو فيها السخرية من شيخ الأزهر ، فاعترض الشيخ على ذلك وكان اعتراضه على الملأ حيث أعلن ذلك في خطبة الجمعة والتي تذاع على الهواء مباشرة .

وضمن الشيخ القرضاوي ذلك في فتاويه فقال : وأود أن أنبه أن بيني وبين الإمام الأكبر الشيخ طنطاوي مودة قديمة يعرفها ، وليس بيني وبينه من الناحية الشخصية أي شيء ، إنما هو خلاف في الرأي والمنهج والأسلوب ، وقد رددت عليه من قبل في موقفه من الربا وفوائد البنوك .

ورغم أني أخالف الشيخ هنا ، وقد خالفته من قبل في قضية الربا ، فإني لا أقبل أن يمس شخصه، أو ينال من قدره، بكلمة نابية، أو صورة « كاريكاتيرية » خارجة عن الأدب الشرعي الواجب في حق علمائنا ، ولا سيما أنه يتبوأ أكبر وأعرق منصب علمي ديني في العالم الإسلامي(١)،(٢) .

٣ ـ الشيخ الألباني :

الشيخ الألباني من الدعاة الذين تركوا بصمة واضحة في العصر الحديث وتراث الشيخ يدل على ذلك ، وللشيخ الألباني جهود مشكورة في خدمة السنة النبوية استفاد منها القاصي والداني .

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج٣ ص ٤٥٥ ، ٤٥٦ .

(٢) بيد أن الشيخ القرضاوي في أرجوزته « الأصوليون» ص ١١٧ من ديوانه «المسلمون قادمون » تناول شيخ الأزهر بأسلوب قد يؤخذ على الشيخ حيث يقول :

وأنكروا فوائد البنوك ... كأننا في الزمن المملوكي!
ناسين ما حتمه التغير ... والدين مثل غيره يطور
وخالفوا مفتينا الطنطاوي ... مجدد الزمان في الفتاوي
والشرع في يديه كالعجينة ... لا كالأولى عقولهم سجينة
وما علينا من مخالفيه ... وقوفنا بجنبه يكفيه
وكلما رد عليه العلما ... زادوه شهرة كنجم السينما
فهو بنا شيخ شيوخ العصر ... من مثله من نجباء مصر ؟

ولما سألت الشيخ عن ذلك ضحك و قال لي : إنما أتحدث في الأرجوزة على لسان المخابرات و رجال الأمن وهذا لسان حالهم .

والشيخ القرضاوي ممن استفاد من هذا التراث الهائل ، وكثيراً ما يعتمد الشيخ القرضاوي على تخريجات الشيخ الألباني للأحاديث وخصوصاً في السلسلتين الصحيحة والضعيفة ، وعلاقة الشيخين بدأت مبكراً حين خرج الشيخ الألباني أحاديث كتاب «الحلال والحرام» في كتابه «غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام» كما خرج أحاديث كتاب « مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام» .

وتخريج الشيخ الألباني لأحاديث «الحلال والحرام» و «مشكلة الفقر» هو في حد ذاته نوع من أنواع التقدير من الألباني للقرضاوي ، وهذا ما أقر به القرضاوي حيث قال: لا شك أن تخريج العلامة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ حفظه الله ـ لأحاديث كتابي : «الحلال والحرام» هو نوع من التكريم للكتاب وصاحبه، فعلماء الحديث من قديم لا يخرجون أحاديث الكتب التافهة أو المغمورة، إنما يخرجون الكتب التي لها قيمة ووزن علمي ، وشهرة عند أهل العلم وجماهير الناس (١).

والحق أن الشيخ الألباني كان موسوماً بأدب العلماء حين خرج أحاديث كتاب « الحلال والحرام» فهو وإن اعترض على بعض آراء الشيخ القرضاوي إلا أنه لم يحجر على الشيخ رأيه ، ولم يدع لرأيه العصمة وفي هذا يقول الشيخ القرضاوي : الشيخ الألباني ليس مجرد محدث محايد، يكتفي بتخريج الحديث، والحكم عليه،تصحيحاً أو تضعيفاً، وينتهي دوره، ولكنه رجل له آراؤه وفقهه الخاص، وهذا يتضح على تخريجه شاء أم أبى، كما أنه يتدخل أحياناً، معلقاً على رأي المؤلف وترجيحاته، بما يتفق ورأيه هو وترجيحه، كما فعل في موضوع الغناء بآلة وبغير آلة. وهذا التدخل منه أوصل بعمل الفقيه منه بعمل المحدث، ولو أردت التعقيب على تعقيبه أو الرد عليه، لاقتضاني ذلك أن أؤلف كتاباً كاملاً في الموضوع، مناقشاً أدلة المبيحين والمحرمين، ومرجحاً ما أراه أقوى دليلا، وأقوم قيلا (٢).

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص ١٠٠ .

(٢) انظر : المرجع السابق ج٢ ص ١٠٧ .

وقد يختلف الشيخان في الحكم على حديث فيرى القرضاوي رأياً غير الذي أرتآه الألباني لكنه لا يحمل عليه ولا ينال منه كما في حديث « ما من إنسان يقتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها إلا سأله الله عز وجل عنها » ضعفه الشيخ الألباني في تخريج «الحلال والحرام» حديث رقم (٤٧) ، وقد خالفه القرضاوي في تعليقه على كتاب المنتقى من الترغيب والترهيب[١] .

وقد كان للشيخ القرضاوي قولاً واضحاً ودفاعاً صادقاً عن الشيخ الألباني حين اتهم الأحباش الشيخ القرضاوي بأنه يمتدح الشيخ الألباني ، فكان رد الشيخ القرضاوي قمة في الإنصاف فقال : وأنا أشهد أن الشيخ الألباني محدث كبير ولا شك ، يشهد له إنتاجه الغزير ، في تحقيق مصادر السنة ، وفي تمييز صحيحها من سقيمها ، وله في ذلك جهود مقدرة ، مثل تحقيقه لمشكاة المصابيح ولمختصر صحيح مسلم للمنذري ، وللسنة لابن أبي عاصم وغيرها، وفي التخريج له سلسلة الأحاديث الصحيحة ، وسلسلة الأحاديث الضعيفة، وإرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل ، وصحيح أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وصحيح الجامع الصغير وزيادته ، وإن كنت قد أخالفه في إطلاق التصحيح بكثرة الطرق ، وفي عدم الاهتمام بالنظر إلى المتون والمضامين في بعض الأحيان .

ومع هذا أنا أخالف الشيخ الألباني في كثير من استنباطاته الفقهية، وأرد عليه وخصوصا فيما ينفرد به، وفيما ينزع النزعة الظاهرية[٢]،[٣].

بل إن الشيخ القرضاوي يؤكد بأن الشيخ الألباني من أبرز علماء العصر

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص ١٠٣ ، ١٠٤ ، وانظر : المنتقى من الترغيب والترهيب ج ١ ص ٣٦٢ حديث رقم (٥٧٦) و رقم (٥٧٧) وانظر : غاية المرام الألباني حديث رقم (٤٧) .

(٢) انظر : فتاوى معاصرة ج٣ ص ٧٠٣ .

(٣) كنت أحب ألا يصف شيخنا القرضاوي الشيخ الألباني بهذا الوصف، وألا يجعله ضمن الظاهرية الجدد، فالشيخ الألباني وإن كانت له اجتهادات يخالف فيها الشيخ، وينحو فيها منحى الظاهرية القدامى، إلا إنه لا يوضع في صف واحد مع الظاهرية الجدد في خندق واحد.

الحديث فيقول : إن الشيخ الألباني في رأيي هو أشهر علماء الحديث في عصرنا وخصوصاً في فن التخريج والتوثيق والتضعيف [١].

لكن الشيخ القرضاوي مع هذا الاعتراف لا يعطي الكلمة النهائية في كل حديث للشيخ الألباني تضعيفاً أو تصحيحاً، خصوصاً أنه قد يخالفه آخرون من علماء الحديث في عصرنا من أمثال: الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي ، والشيخ شعيب الأرناءوط ، والشيخ عبد الفتاح أبي غدة وغيرهم[٢] .

* * *

ثانياً : إنصافه للمخالفين من الجماعات

عرف الشيخ القرضاوي بين العامة والخاصة ، والقاصي والداني أنه إخواني المشرب والفكر والتوجه ، بيد أن نشأته الإخوانية لم تجعله متعصباً للجماعة أو معادياً لغيرها ، ولم يعرف الشيخ بأنه نسب الحق وحده لجماعته دون غيرها ، ولا دعا الشيخ يوماً للعمل تحت لواء هذه الجماعة دون سواها ، بل الحق الذي لا مراء فيه أن الشيخ يرى تعدد الجماعات ظاهرة صحية ، شريطة أن يكون ذلك، تعدد وتنوع واختلاف، لا تفرق وتضاد، أو يكون تنوع وتخصص، لا صراع وتناقص، فتعتني كل جماعة بأمر وتدع غيرها في أمر آخر .

وهذا ما جعل الشيخ لا ينتقص من شأن جماعة أو ينتقص من شأن أخرى؛ قد يوجه الشيخ نقداً لرؤية فكرية، أو رأي دعوي، لكنه لا ينتقص من شأن جماعة أبداً؛ ولهذا يقول الشيخ في معرض حديثه عن الجماعات الإسلامية : ومن المملكة العربية السعودية انطلقت الحركة السلفية داعية إلى التوحيد بعناصره الثلاثة : توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات ، مركزة على تحرير التوحيد من الخرافة والشرك والقبوريات والتأويل ، مشددة النكير على كل من يؤول صفات الله الخبرية من الأشاعرة والماتريدية

(١، ٢) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص ١٠٣ .

وغيرهم ، متخذة من تراث شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، رصيداً للدعوة والمجادلة ، وكذلك تراث مجدد الجزيرة العربية الشيخ محمد ابن عبد الوهاب .

وكان لها امتداد في مصر على يد الشيخ محمد حامد الفقي وجماعة أنصار السنة وفي بلاد الشام على يد المحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، وفي الهند وباكستان على يد جماعة أهل الحديث .

ومنهم السلفيون الجدد ، الذين يسميهم بعض الناس «السروريين» وهم الذين اهتموا بالجانب السياسي مع الجانب العقدي ، ونقد الأوضاع العامة ، المحلية والدولية ، وكان لهم موقفهم من دخول الأمريكان إلى المنطقة في حرب الخليج ، وفيهم علماء ودعاة لهم وزنهم مثل المشايخ سلمان فهد العودة ، وسفر الحوالي ، وعايض القرني .

منهم الذين يعتزون بالشيخ ابن باز رحمه الله والشيخ ابن عثيمين وعلماء المملكة ويعتبرونهم مراجع فذة لهم ، ولا يقبلون العلم من أحد سواهم .

ومنهم من يتبعون الشيخ الألباني ويقلدون مذهبه، في حين أنه ينكر المذاهب جميعاً، ومع ذلك جعلوه مذهباً خامساً[1].

ويقول في موضع آخر: ولا ننسى جماعات وحركات كان لها أثرها ومساهمتها في مجال الصحوة ، على اختلاف اتجاهاتها ومشاربها ، بالإضافة إلى أم الجماعات ، وكبرى الحركات الإسلامية حركة الإخوان المسلمين .

منها : جماعة التبليغ والدعوة ، التي تاب على أيدي أتباعها كثير من العصاة في بلاد العجم والعرب ، وعرفوا الطريق إلى المسجد والصلاة والتوبة ، بعد شرور المعصية، وشرور الغفلة . وقد بدأت في الهند وباكستان ، ثم انتشرت في العالم ، ومن مؤسسيها وروادها : الشيخ محمد إلياس ، والشيخ محمد يوسف ، وخلفاؤهما .

---

(١) انظر : أمتنا بين قرنين ص ٧٣ ، ٧٤ .

ومنها الحركة السلفية ، التي عنيت بتصحيح العقيدة ، وتصحيح العبادة ، وتحريرها من الشركيات والمبتدعات ، والدعوة إلى الاعتماد على الكتاب والسنة، لا على تقليد المذاهب أو اتباع الطرق ، ومن روادها : الشيخ محمد حامد الفقي في مصر ، والشيخ عبد العزيز بن باز في المملكة العربية السعودية ، والشيخ محمد ناصر الألباني في بلاد الشام، والشيخ عبد الرحمن عبد الخالق في الكويت.

ومنها الجمعية الشرعية ، للعاملين بالكتاب والسنة ، في مصر خاصة ، التي كان لها دورها في إقامة السنة ، ومحاربة البدع ، وإنشاء المساجد الملتزمة بإقامة الصلاة على الوجه الأكمل ، ومؤسسها الشيخ محمود خطاب السبكي ، وخلفه ابنه الشيخ أمين ، وبعدهما الشيخ عبد اللطيف مشتهري ، والشيخ محمود عبد الوهاب فايد .

ومنها : جماعة الجهاد التي ربت أتباعها على معاني القوة والصلابة ، والخشونة إلى حد العنف ، وحب البذل والتضحية ، والاستشهاد في سبيل الله ، ومن أشهر رجالها : العالم الأزهري الكفيف الشيخ عمر عبد الرحمن ، والسيد عبود الزمر .

ومنها حزب التحرير الإسلامي ، الذي وقف جهده على الدعوة لإقامة الدولة الإسلامية ، وإعادة الخلافة الإسلامية ، والذي أسسه الشيخ تقي الدين النبهاني[1] .

وبعد هذا العرض المجمل للشيخ وإنصافه للجماعات أذكر بالتفصيل إنصاف الشيخ مع كل من:

١ ـ الصوفية.

٢ ـ والسلفية .

* * *

(١) انظر : المرجع السابق ص ١١٠ ، ١١١ .

١ ـ القرضاوي والصوفيون [١]

من الأمور التي يقف منها الناس موقفاً متبايناً « التصوف[٢] » ، والناس فيه ما بين مادح بإسراف ، أو ذام بإسفاف ، والحق أن التوسط خير ، والاعتدال مطلوب .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى كلام طيب في التصوف والمتصوفة، لم يخرج فيه عن حد الاعتدال والإنصاف ؛ بل أعطى للقوم حقهم دون وكص أو شطط ، كما أن لتلميذه ابن القيم كلاماً تبدو عليه رائحة شيخه ، فهو وإن لم يكن كلام شيخه فإن أثر شيخه يبدو ظاهراً عليه ، يقول ابن القيم موضحاً منزلة أكابر الصوفية وشيوخهم في مستهل حديثه عن منزلة العلم في كتابه « مدارج السالكين » : وهذه المنزلة إن لم تصحب السالك من أول قدم يضعه في الطريق إلى آخر قدم ينتهي إليه فسلوكه على غير طريق ، وهو مقطوع عليه طريق الوصول ، مسدود عليه سبل الهدى والفلاح ، مغلقة عنه أبوابها ، وهذا إجماع من الشيوخ العارفين ، ولم ينه عن العلم إلا قطاع الطريق منهم ، ونواب إبليس وشرطه [٣] .

---

(١) كنت قد جعلت الحديث عن القرضاوي والمتصوفة في فصل « القرضاوي وجبهاته الدعوية » ولكنني عدلت عن ذلك ولم أشأ أن يكون المتصوفة في جنب واحد مع كل من العلمانيين والقوميين وأهل الكتاب ، ذلك أنه على الرغم من شطحات الصوفية ، فإن لهم أثراً لا ينسى ، وفضلاً لا يمحى ، وبصمات خالدة في نشر الإسلام .

(٢) التصوف حركة دينية انتشرت في العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري كنزعات فردية تدعو إلى الزهد وشدة العبادة كرد فعل للانغماس في الترف الحضاري ، ثم تطورت بعد ذلك حتى صارت طرق مميزة معروفة باسم الصوفية. انظر : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ج ١ ص٢٥٣ ط دار الندوة العالمية ط الثالثة ١٤١٨ هـ .

(٣) انظر : مدارج السالكين ابن القيم ج٢ ٤٦٩ .

ويذكر ابن القيم من كلام أعلام المتصوفة مايؤكد ارتباطهم بالعلم فيقول :
قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد بن محمد رحمه الله : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى آثار الرسول .

وقال : من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر ؛ لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة .

وقال : مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة .

وقال أبو حفص رحمه الله : من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا يعد في ديوان الرجال .

وقال أبو حمزة البغدادي من أكابر الشيوخ ـ وكان أحمد بن حنبل يقول له في المسائل ـ ما تقول يا صوفي من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه، ولا دليل على الطريق إلى الله إلا متابعة الرسول في أحواله وأقواله وأفعاله .

ومر الشيخ أبو بكر محمد بن موسى الواسطي يوم الجمعة إلى الجامع فانقطع شسع نعله فأصلحه له رجل صيدلاني فقال : تدري لم انقطع شسع نعلي؟ فقلت : لا فقال : لأني ما اغتسلت للجمعة . فقال : ههنا حمام تدخله؟ فقال : نعم . فدخل واغتسل.

وقال أبو يعقوب النهرجوري : أفضل الأحوال ما قارن العلم .

وقال أبو عمرو بن نجيد : كل حال لا يكون عن نتيجة علم فإن ضرره على صاحبه أكثر من نفعه[1] .

وبالإنصاف الذي عرف به ابن القيم قال معلقاً على ما ينسب إلى بعض الصوفية من عدم الاهتمام بالعلم : وأما الكلمات التي تروى عن بعضهم من التزهيد في العلم والاستغناء عنه كقول من قال : نحن نأخذ علمنا من الحي الذي لا يموت وأنتم تأخذونه من حي يموت .

وقول الآخر وقد قيل له : ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق ؟ فقال : ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق من يسمع من الخلاق ؟

وقول الآخر: العلم حجاب بين القلب وبين الله عز وجل .

---

(١) انظر : مدارج السالكين ابن القيم ج٢ ٤٦٤ وما بعدها بتصرف .

وقول الآخر : إذا رأيت الصوفي يشتغل بأخبرنا و حدثنا فاغسل يدك منه .

وقول الآخر: لنا علم الحرق ولكم علم الورق .

ونحو هذا من الكلمات التي أحسن أحوال قائلها : أن يكون جاهلا يعذر بجهله ، أو شاطحا معترفا بشطحه ، وإلا فلولا عبد الرزاق وأمثاله، ولولا أخبرنا وحدثنا لما وصل إلى هذا وأمثاله شيء من الإسلام ، ومن أحالك على غير أخبرنا وحدثنا فقد أحالك إما على خيال صوفي، أو قياس فلسفي، أو رأي نفسي ؛ فليس بعد القرآن و أخبرنا و حدثنا إلا شبهات المتكلمين ، وآراء المنحرفين ، وخيالات المتصوفين ، وقياس المتفلسفين ، ومن فارق الدليل ضل عن سواء السبيل ، ولا دليل إلى الله والجنة سوى الكتاب والسنة ، وكل طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنة فهي من طرق الجحيم والشيطان الرجيم [1].

وفي معرض حديث ابن القيم عن شطحات شيخ الإسلام «الهروي» قال :

هذا ونحوه من الشطحات التي ترجى مغفرتها بكثرة الحسنات، ويستغرقها كمال الصدق وصحة المعاملة وقوة الإخلاص وتجريد التوحيد، ولم تضمن العصمة لبشر بعد رسول الله ﷺ .

وهذه الشطحات أوجبت فتنة على بعض الطوائف من الناس :

إحداهما : حجبت بها عن محاسن هذه الطائفة ولطف نفوسهم وصدق معاملتهم، فأهدروها لأجل هذه الشطحات، وأنكروها غاية الإنكار، وأساءوا الظن بهم مطلقاً، وهذا عدوان وإسراف، فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة وأهدرت محاسنه لفسدت العلوم والصناعات والحكم وتعطلت معالمها .

والطائفة الثانية : حجبوا بما رأوه من محاسن القوم، وصفاء قلوبهم، وصحة عزائمهم، وحسن معاملاتهم عن رؤية عيوب شطحاتهم ونقصانها، فسحبوا عليها ذيل المحاسن ، وأجروا عليها حكم القبول والانتصار لها ، واستظهروا بها في سلوكهم ، وهؤلاء أيضا معتدون مفرطون.

والطائفة الثالثة : وهم أهل العدل والإنصاف الذين أعطوا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته ؛ فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم

---

(١) انظر : مدارج السالكين ابن القيم ج٢ ٤٦٩ وما بعدها .

المعلول ، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح ؛ بل قبلوا ما يقبل وردوا ما يرد ، وهذه الشطحات ونحوها هي التي حذر منها سادات القوم وذموا عاقبتها وتبرؤا منها (١) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى عند معرض حديثه عن الصوفية والتصوف : ولأجل ما وقع في كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه تنازع الناس في طريقهم؛ فطائفة ذمت الصوفية والتصوف ، وقالوا بأنهم مبتدعون خارجون عن السنة .

ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف ، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام .

وطائفة غلت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق، وأكملهم بعد الأنبياء، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم .

والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله :

* ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده .

* وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين وفى كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ .

* وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب .

* ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاص لربه .

* وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة .

ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم كالحلاج مثلا ؛ فإن أكثر مشائخ الطريق أنكروه وأخرجوه عن الطريق مثل الجنيد بن محمد سيد الطائفة وغيره ، كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى في طبقات الصوفية ، وذكره الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخ بغداد . فهذا أصل التصوف ، ثم إنه بعد ذلك تشعب وتنوع وصارت الصوفية ثلاثة أصناف :

---

(١) انظر : المرجع السابق ج٢ ٣٨ - ٤٠ .

١ – صوفية الحقائق .

٢ – وصوفية الأرزاق .

٣ – وصوفية الرسم [١].

والشيخ القرضاوي كان في تعامله مع التصوف والمتصوفة منصفاً كل الإنصاف ، فلم يهدم ما لهم من آثار ، ولم ينسف ما لهم من أعمال ؛ كما أنه لم يهمل ما عندهم من شطحات وأي شطحات .

ولله در القائل :

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه ... ولا بكاؤك إن غنى المغنونا

ولا صياح ولا رقص ولا طرب ... ولا اضطراب كأن قد صرت مجنونا

بل التصوف أن تصفو بلا كدر ... وتتبع الحق والقرآن والدينا

وأن تُرى خاشعاً لله مكتئباً ... على ذنوبك طول الدهر محزونا

ولهذا أنكر الشيخ القرضاوي على الدعاة حملتهم على التصوف جملة دون تفريق بين الحق منه والباطل، يقول الشيخ: نرى هؤلاء الدعاة الطيبين يبدأون بحملة على التصوف كله، واتهامه بأنه دخيل على الإسلام، لا يفرقون بين سني ومبتدع، بين مستقيم ومنحرف.

هذا مع أن الأمة عامة، وهذه الشعوب خاصة: في حاجة إلى تربية ربانية تخرجها من جحيم المادية المعاصرة، التي شغلت الناس بالدنيا عن الآخرة، وبالخلق عن الخالق، وبالمادة عن الروح. تربية إيمانية أخلاقية هي جوهر التصوف الصحيح الذي عبر عنه بعضهم بكلمة موجزة بأنه: الصدق مع الحق، والخُلُق مع الخَلْق. وبعبارة أخرى: التقوى مع الله، والإحسان مع الناس. إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨] [١].

وأغرب ما في الأمر أن الشيخ القرضاوي ودعاة الإخوان عموماً يرمون بالتصوف من قبل إخواننا السلفيين ، ثم إنهم كذلك لا يسلمون من المتصوفة فيقولون : إنهم وهابيون.

---

(١) مجموع الفتاوى ابن تيمية ١١ ص ١٧ – ١٩ .

(٢) انظر: خطابنا الإسلامي في عصر العولمة ص ٣٧ .

علاقة القرضاوي بالتصوف قديمة :

نشأ الشيخ القرضاوي في قريته «صفط تراب» وكانت القرية كغيرها من قرى مصر ومدنها تعج بالطرق الصوفية وكانت « الطريقة الخليلية» هي السائدة في قرية الشيخ القرضاوي ، ثم انبثق منها طريقة أخرى هي طريقة الشيخ «محمد أبو شادي» وقد تعرف الشيخ القرضاوي على أتباع هذه الطريقة عن طريق أحد جيرانه وهو الشيخ «بيومي العزوني» وكانت هذه الطريقة قوامها الذكر والدعاء والاستغفار والصلاة على النبي ﷺ وقراءة قصص من كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، وقد استفاد الشيخ القرضاوي من هذه الطريقة بمعرفته بالإمام الغزالي وكتابه «الإحياء »، وإن كان الشيخ القرضاوي قد أبدى كثيراً من اعتراضاته على ما في «الإحياء» ولكن هذا لم يوغر صدر الشيخ بيومي عليه بل أهداه كتاب « الإحياء».

كتابات القرضاوي عن التصوف:

كتب الشيخ القرضاوي عن التصوف كثيراً في ثنايا كتبه ولعل من أهم الكتب التي تناول فيها الشيخ التصوف بالحديث ما يلي :

١ – موقف الإسلام من الإلهام والكشف .

٢ – الحياة الربانية والعلم .

٣ – الإخوان المسلمون .

٤ – ابن القرية والكتاب «مذكرات الشيخ».

٥ – فتاوى معاصرة / ج١ .

ومن خلال هذه الكتب وغيرها نستطيع أن نحدد آراء الشيخ القرضاوي في التصوف والمتصوفة .

رأي القرضاوي في التصوف والمتصوفة :

يرى الشيخ القرضاوي أن «التصوف باعتباره تراثاً في التربية الأخلاقية والسلوك الإيماني لا يمكن الاستغناء عنه ، كما لا يمكن الاستغناء عن تراث الفقه في معرفة الأحكام الظاهرة[١] .

---

(١) انظر : الحياة الربانية والعلم ص ١٥ .

ويتحدث الشيخ عن جذور التصوف وأصوله فيقول : إن التصوف له جذور إسلامية أصيلة لا تجحد ، وفيه عناصر إسلامية أساسية لا تخفى . نرى ذلك في القرآن والسنة وسيرة الرسول الكريم ، وأصحابه الزاهدين مثل :عمر، وعلي، وأبي الدرداء، وسلمان، وأبي ذر وغيرهم . ومن يقرأ القرآن والحديث يجد فيهما تحذيراً متكرراً من فتنة الحياة الدنيا ومتاعها وتوجيه الهمم إلى الله وإلى الدار الآخرة ، وتحريك القلوب بالتشويق إلى الجنة وما فيها من رضوان الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم ، والتخويف من النار وما فيها من عذاب مادي ومعنوي كما يجد الحديث عن حب الله تعالى لعباده وحبهم له سبحانه في مثل قوله: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١]، ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٨] إلخ . كما جاء حديث القرآن والأحاديث على نصوص غزيرة في الزهد والتوكل والتوبة والشكر والصبر واليقين والتقوى والمراقبة وغيرها من مقامات الدين، ولم يعطها العناية اللائقة بها ـ من التفسير والتعليل، والتقسيم والتفضيل ـ غير الصوفية [١].

كما أنه يرى أن الصوفية الحقيقية: هي التي يعمل أصحابها على أساس التزكية وطهارة النفس ، ونقاء القلب ، والمواظبة على العمل ، والإعراض عن الخلق ،، والحب في الله ، والارتباط على الخير [٢].

إنها كما يقول الشيخ: ليست الموالد والعوائد ، وليست الشركيات في العقيدة ، ولا البدعيات في العبادة ، ولا السلبيات في التربية ، التي تجعل المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل[٣] .

ويرجع الشيخ القرضاوي نشأة التصوف في بلاد الإسلام إلى أمرين :

الأول : تغليب الجانب المادي على الجانب المعنوي .

الثاني : تغليب الجانب العقلي على الجانب الروحي .

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج١ ص ٧٤١ .

(٢، ٣) انظر : الإخوان المسلمون ص ٣٤٥ .

يقول الشيخ : ولكن الصوفية ظهروا في وقت غلب على المسلمين فيه الجانب المادي والجانب العقلي.

الجانب المادي ، نتج عن الترف الذي أغرق بعض الطبقات ، بعد اتساع الفتوحات، وكثرة الأموال ، وازدهار الحياة الاقتصادية ، مما أورثت غلواً في الجانب المادي . مصحوباً بغلو آخر في الجانب العقلي ، أصبح الإيمان عبارة عن «فلسفة» و«علم كلام» و«جدل» لا يشبع للإنسان نهماً روحياً ، حتى الفقه أصبح إنما يعني بظاهر الدين لا بباطنه ، وبأعمال الجوارح، لا بأعمال القلوب، وبمادة العبادات لا بروحها .

ومن هنا ظهر هؤلاء الصوفية ليسدوا الفراغ ، الذي لم يستطع أن يشغله المتكلمون ، ولا يملأه الفقهاء ، وصار كثير من الناس إلى جوع روحي ، فلم يشبع الجوع إلا الصوفية الذين عنوا بتطهير الباطن قبل الظاهر ، وبعلاج أمراض النفوس ، وإعطاء الأولية لأعمال القلوب وشغلوا أنفسهم بالتربية الروحية والأخلاقية ، وصرفوا إليها جل تفكيرهم واهتمامهم ونشاطهم . حتى قال بعضهم : التصوف هو الخلق ، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في التصوف [1].

ويقول في موضع آخر : كان المسلمون في عصر الصحابة ومن تتلمذ على أيديهم يتعلمون ويعلمون الإسلام كله ، في شموله وتوازنه وإيجابيته وعمقه ، ولم يكونوا يبرزون جانباً على حساب آخر ولم يغفلوا ظاهراً لباطن ، ولا باطناً لظاهر ، بل اهتموا بالعقل والروح والجسد جميعاً ، وعنوا بالفرد والمجتمع معاً، ورعوا مصالح الدنيا والآخرة ، وكما يقول الفقهاء : مصالح العباد : المعاش والمعاد . فلما تعقدت الحياة وتطورت ـ لعوامل كثيرة داخلية وخارجية ـ وجد في المجتمع الإسلامي من قصر همه على الجانب العقلي كالمتكلمين ، ومن جعل أكبر همه الجانب العملي الظاهري كالمشتغلين بالفقه ، وبجوار هؤلاء وأولئك من شغله متاع الحياة الأدنى ، وأغرقه ترف المعيشة المادي ، كالأمراء والأغنياء ومن سار في ركابهم من طلاب الدنيا . في هذا الوقت ظهر المتصوفة ليعنوا بجانب

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج١ ص ٧٣٥ - ٧٣٦ .

هام أيضاً هو الجانب الروحي والنفسي في الحياة الإسلامية ، ويملأوا الفراغ الذي لم يسده أهل الفقه ولا أهل الكلام ، وليستنقذوا الناس من الاستغراق في متاع الدنيا وزخرفها[١] .

ومن ثم فإن الشيخ يرى تجريد الصوفية من كل فضيلة واتهامهم بكل نقيصة ظلماً وإجحافاً وفي هذا يقول : وهذا في الواقع ليس من الإنصاف ، فكل الفئات من المتكلمين والمتفقهين والمحدثين كالمتصوفين. لهم وعليهم . ولا تخلو فئة من هؤلاء من غلو أو تقصير في بعض الأمور. والمتقدمون خير من المتأخرين في الجملة ، فالقرون الأولى هي خير قرون هذه الأمة ، وكل من كان قريباً من هذه القرون فهو أقرب إلى هدي الرسول وأصحابه، وإلى منهج الإسلام القويم[٢].

ويظهر الشيخ القرضاوي التزام المتصوفة الأوائل فيقول :

وكان أوائل الصوفية ملتزمين بالكتاب والسنة ، قائمين عند حدود الشرع مطاردين للبدع والانحرافات في الفكر والسلوك [٣].

كما يظهر الشيخ فضلهم في نشر الإسلام ودعوة الناس فيقول : ولقد دخل على أيدي الصوفية المتبعين كثير من الناس في الإسلام ، وتاب على أيديهم أعداد لا تحصى من العصاة ، وخلفوا ورائهم ثروة من المعارف والتجارب الروحية لا ينكرها إلا مكابر أو متعصب [٤].

هذا وإن الشيخ القرضاوي يرى أن الأمة الإسلامية في حاجة إلى جوهرالتصوف الصحيح، وهو ما يعرف بالتربية الربانية، يقول الشيخ : هذا مع أن الأمة عامة، وهذه الشعوب خاصة: في حاجة إلى تربية ربانية تخرجها من جحيم المادية المعاصرة، التي شغلت الناس بالدنيا عن الآخرة، وبالخلق عن الخالق، وبالمادة عن الروح. تربية إيمانية أخلاقية هي جوهر التصوف الصحيح الذي عبر عنه بعضهم بكلمة موجزة بأنه: الصدق مع الحق، والخُلُق مع الخَلْق. وبعبارة

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج١ ٧٣٩ .
(٢) انظر : كيف نتعامل مع التراث ص ٥٠ .
(٣، ٤) انظر : فتاوى معاصرة ج١ ص ٧٣٦ .

أخرى: التقوى مع الله، والإحسان مع الناس. إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨][١].

مآخذ القرضاوي على المتصوفة:

ولئن مدح الشيخ القرضاوي المتصوفة فيما قدموه للإسلام، وما أسدوه للدعوة الإسلامية؛ فلقد كان للشيخ بعض المآخذ عليهم أعلنها صريحة دون تعد أو إسفاف يقول الشيخ: ولهذا فإن من المكابرة إنكار المؤثرات الأجنبية في التصوف مما خرج به في كثير من الأحيان عن «وسطية» الإسلام واعتداله، إلى تشدد كتشدد الرهبانية، أو غلو كغلو البوذية. ومن مظاهر الانحراف عند الصوفية هذه الأفكار.

١ ـ اعتبار الذوق أو الوجدان الشخصي أو الإلهام مقياساً في معرفة الحسن والقبيح، وتمييز الصواب من الخطأ، حتى غلا بعضهم في ذلك فقال: حدثني قلبي عن ربي في مقابلة ما يقوله علماء السنة: حدثنا فلان عن فلان.. عن رسول الله[٢].

٢ ـ تفريقهم بين الشريعة والحقيقة، وقولهم: من نظر إلى الخلق بعين الشريعة مقتهم، ومن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم، فهذا يترتب عليه ألا يحارب كافراً ولا ينكر على منكر[٣].

٣ ـ تحقيرهم لأمر هذه الحياة، على خلاف نهج القرآن ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]، والسنة «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي»[٤] ونهج الصحابة من مثل قولتهم المأثورة «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً[٥]»[٦].

٤ ـ غلبة النزعة الجبرية والسلبية على أكثرهم، مما أثر في تفكير عامة

---

(١) انظر: خطابنا الإسلامي في عصر العولمة ص ٣٧.
(٢، ٣) انظر: فتاوى معاصرة ج١ ص ٧٤١.
(٤) رواه مسلم في الذكر والدعاء برقم (٢٧٢٠) عن أبي هريرة.
(٥) من كلام عبد الله بن عمر.
(٦) انظر: فتاوى معاصرة ج١ ص ٧٤٢.

المسلمين وجعلهم يعتقدون أن الإنسان مسير لا مخير ، وأن لا فائدة من مقاومة الفساد ومحاربة الباطل ، لأن الله أقام العباد فيما أراد وشاع بينهم هذا القول : دع الملك للمالك ، واترك الخلق للخالق وهذا أدى إلى تغليب الروح الانهزامية أو الانسحابية في حياة جمهور المسلمين[١] .

٥ ـ إلغاء شخصية المريد في تربيتهم السلوكية والفكرية ، بحيث يفنى في شيخه ولا يناقش فضلاً عن أن يعترض ، أو يقول : « لم » فضلاً عن « لا » ومن كلماتهم : « المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل « و » من قال لشيخه: لم ؟ لا يفلح »[٢].

٦ ـ قبول الإسرائيليات التي جاء بها من أسلم من أهل الكتاب ، وكثير منها لا يوجد له أصل[٣] .

٧ ـ أخذ ما يروى من الأحاديث النبوية مأخذ التسليم ، دون تمييز بين ما يقبل وما يرد ، بناء على ما قيل من أن الحديث الضعيف يعمل به في فضائل الأعمال، حتى إنهم رووا الأحاديث الضعيفة جداً ، والتي لا أصل لها بالمرة ، والموضوعة المكذوبة ، وهذا شائع بينهم ومعروف .

٨ ـ الثقة المطلقة بشيوخهم ، فما قاله الشيخ هو حق ، وما أمر به فهو مطاع، دون أن يعرض ذلك على الشرع .

٩ ـ عدم الوقوف عند ما جاء به الشرع في العبادات والأذكار والسلوكيات، ووضع أوراد من عند المشايخ بدل الأوراد المأثورة ، واختراع عبادات أو قبول عبادات لم يأمر بها قرآن ولا سنة[٤] .

ماذا يريد القرضاوي من التصوف والمتصوفة ؟

والشيخ لا يريد من المتصوفة أن تعتني بالجانب الروحي مهملة جانب العلم، إنما يريد أن يطعم الصوفية بالسلفية والسلفية بالصوفية، حتى ينشأ من هذا التطعيم مخاض يتولد منه وليد جديد يجمع الخير في كلا الطرفين ، وهو

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج١ ص ٧٤٢ .
(٢) انظر : المرجع السابق ج١ ص ٧٤١ ، ٧٤٢ .
(٣، ٤) انظر : الحياة الربانية والعلم ص ٢٣ .

ما عبر عنه الداعية المسلم الأستاذ محمد المبارك رحمه الله : نسلف الصوفية ونصوف السلفية .

وبمعنى أدق إنما يريد القرضاوي من التصوف والصوفية :

١ – أن يرد التصوف إلى جذوره الإسلامية ، فيستمد أدلته من محكمات القرآن وصحيح السنة .

٢ – أن ينقى التصوف مما علق به من شوائب كدرت صفاءه وشابت جوهره .

٣ – أن ينقى التصوف مما تأثر به من مصادر أجنبية غريبة عن طبيعة الإسلام ووسطيته .

٤ – أن ينقى التصوف مما دخل عليه من أوهام البشر وأهوائهم [١] .

ومن الأمور التي أطال الشيخ فيها النفس مع المتصوفة موقفهم من الإلهام، وقد تحدث الشيخ عن موقفهم من الإلهام، وفند كل مزاعمهم في هذا الموضوع فتحدث فيه إيجازاً في كتابه « الحياة الربانية والعلم » ، وتحدث تفصيلاً في كتابه « موقف الإسلام من الإلهام » حتى استغرق ٦٦ صفحة من « ٣٨ ـ ١٠٤ »، وكان مجمل ما أخذه الشيخ القرضاوي على المتصوفة في هذه القضية ، ومنهم إمامه الغزالي ستة أمور هي :

١ ـ القول بأن الإلهام دليل شرعي .

٢ ـ إضافة العصمة والقداسة إلى الإلهامات والكشوف .

٣ ـ تحقيرهم للعلم الشرعي ، واكتفائهم بالعلم الغيبي الذي يقولون فيه حدثني قلبي عن ربي .

٤ ـ تفريقهم بين « الشريعة » و« الحقيقة » واعتبار أن « الشريعة » وطريقها « العلم » تصيب العوام أما « الحقيقة » وطريقها الكشف تصيب الخواص .

٥ ـ اعتبارهم الكشف هو غاية الغايات التي يسعون إليها .

٦ ـ اتخاذهم في الكشف طرقاً مبتدعة لم يأت بها من الكتاب ولا السنة[١] .

---

(١) انظر : الحياة الربانية والعلم ص ٢٢ ، ٢٣ بتصرف .

(٢) انظر : الرد على هذه الأمور بالتفصيل في كتاب « موقف الإسلام من الإلهام » ص ٣٨ ـ ١٠٤ .

٢ ـ القرضاوي والسلفية

من الصعب على الإنسان أن يتهم زوراً بما هو بريء منه ، وينسب إليه ما لم يقله، والشيخ القرضاوي وشيخه الغزالي وشيخ شيخه البنا ثلاثتهم ومن آمنوا بفكرهم وتبنوا آراءهم ، لم يسلموا من ألسنة البعض ممن ينتسبون إلى السلفية[١].

وهذه الفئة التي آلت على نفسها ألا تترك عالماً إلا نالت منه ، ولا مصلحاً إلا حطت من قدره ، ولا هرماً إلا حاولت قصف هامته ، همهم التفريق لا التجميع ، والهدم لا البناء ، والوحدة لا التوحد.

وأعجب ما في الأمر أن الشيخ القرضاوي وقع بين « فكي كماشة » كما يقولون؛ بعض إخواننا السلفيين يهاجمونه هجوماً شرساً ويوزعون منشورات ضد الشيخ في مدن المملكة السعودية بل وخارجها بأنه أشعري ماتردي متصوف! وغير السلفيين يقولون : إن الشيخ القرضاوي وهابي متعصب لأئمة الوهابية ، ويمتدح ابن تيمية وابن القيم والألباني وغيرهم ![٢]

والحق أن السلفية ليست حكراً على أحد ، وليس في مقدور إنسان كائن من كان أن « يسلف » من شاء حسب ما شاء ، ولقد أساء بعض من الناس فهم السلفية وهذه النوعية ـ وهي قلة من إخواننا السلفيين ـ أطلق الشيخ الغزالي عليهم سوط قلمه، وعنفهم بسياط كلامه فقال – رحمه الله – في كتابه « دستور الوحدة الثقافية » :

إن السلفية نزعة عقلية وعاطفية ترتبط بخير القرون ، وتعمق ولاءها

---

(١) السلفية المعاصرة ليست جماعة واحدة ، ولا فكراً واحداً ، فهناك جماعات متعددة تنسب نفسها إلى السلفية ، وهي فيما بينها وبين بعضها تختلف في كثير من الأشياء ، فهناك السلفية العلمية ، وهناك السلفية الحركية ، وسلفية المدينة غير سلفية مكة ، وسلفية القاهرة غير سلفية الإسكندرية ، وأتباع الشيخ ابن عثيمين يختلفون عن أتباع الشيخ الألباني .

والشيخ تربطه بكثير من دعاة السلفية علاقة وطيدة ، وإن اختلف معهم في بعض الأمور ، أما الحديث هنا فعن من شمروا عن سواعدهم ، وأطلقوا العنان لألسنتهم تنهش في جسد الشيخ ، وتنقص من قدره ، فنسأل الله لنا ولهم الهداية والمغفرة .

(٢) هؤلاء جماعة تسمى الأحباش ، وقد رد عليهم الشيخ في كتابه فتاوى معاصرة ج ٣ ص ٦٨٥ ، تحت عنوان : جماعة الأحباش جدال بلا علم وتطاول بلا أدب .

لكتاب الله وسنة رسوله ، وتحشد جهود المسلمين المادية والأدبية لإعلاء كلمة الله دون نظر إلى عرق أو لون .

وفهمها للإسلام وعملها له يرتفع إلى مستوى عمومه وخلوده وتجاوبه مع الفطرة وقيامه على العقل .

وقد رأيت أناساً يفهمون السلفية على أنها فقه أحمد بن حنبل رضي الله عنه ، وهذا خطأ، ففقه أحمد الخطوط الفكرية في الثقافة الإسلامية التي تسع أئمة الأمصار وغيرهم مهما كثروا .

ورأيت أناساً يفهمون السلفية على أنها مدرسة النص ، وهذا خطأ ، فإن مدرسة الرأي كمدرسة الأثر في أخذها من الإسلام واعتمادها عليه .

ورأيت أناساً تغلب عليهم البداوة أو البدائية ، يكرهون المكتشفات العلمية الحديثة ، لا يحسنون الانتفاع بها في دعم الرسالة الإسلامية وحماية تعاليمها ، يرفضون الحديث في التلفزيون مثلاً ، لأن الظهور على الشاشة حرام! ويتناولون المقررات الفلكية والجغرافية وغيرها بالهزء والإنكار ! ! وهؤلاء في الحقيقة لا سلف ولا خلف ، وأدمغتهم تحتاج إلى تشكيل جديد .

ورأيت أناساً يتبعون الأعنت الأعنت ، والأغلظ الأغلظ ، من كل رأي قيل، فما يفتون الناس إلا بما يشق عليهم ، وينغص معايشهم ، ويؤخر مسيرة المؤمنين في الدنيا ، ويأوي بهم إلى كهوفها المظلمة ![1] .

وهذا ما حدا أيضا بالدكتور : البوطي أن ينكر حصر السلفية في طائفة بعينها أو مجموعة بذاتها فيقول : إن من الخطأ بمكان أن نعمد إلى كلمة « السلف » فنصوغ منها مصطلحاً جديداً ، طارئاً على تاريخ الشريعة الإسلامية والفكر الإسلامي ، ألا وهو « السلفية » فنجعله عنواناً مميزاً تندرج تحته فئة معينة من المسلمين ، تتخذ لنفسها من معنى هذا العنوان وحده مفهوماً معيناً ، وتعتمد فيه على فلسفة متميزة ، بحيث تغدو هذه الفئة بموجب ذلك جماعة إسلامية جديدة ، في قائمة جماعات المسلمين المتكاثرة والمتعارضة بشكل مؤسف في هذا العصر ، تمتاز عن بقية المسلمين بأفكارها وميولاتها ، بل تختلف

---

(١) انظر : دستور الوحدة الثقافية محمد الغزالي ط دار الأنصار بالقاهرة ص ١٢٠ ، ١٢١ .

عنهم حتى بمزاجها النفسي ومقاييسها الأخلاقية ، كما هو الواقع اليوم فعلاً .

بل إنا لا نعدو الحقيقة إن قلنا : إن اختراع هذا المصطلح بمضامينه الجديدة التي أشرنا إليها ، بدعة طارئة في الدين ، لم يعرفها السلف الصالح لهذه الأمة ولا الخلف الملتزم بنهجه[١] .

السلفية في نظر القرضاوي:

الشيخ القرضاوي رجل سلفي، وهو يرى أن هدي السلف خير هدي ، كما إنه يردد دائماً قول القائل :

وكل خير في اتباع السلف وكل شر في ابتداع ما خلف

ويعني الشيخ بالمنهج السلفي أنه « المنهج الفكري الذي يتمثل فهم خير قرون الأمة من الصحابة ومن تبعهم بإحسان لهداية القرآن وهدي النبوة »[٢] .

وهذا المنهج بهذا التعريف لا يختلف فيه أحد مع الشيخ ، ولكن يرى الاختلاف في التطبيق ، ومن ثم فإن الشيخ يضع لهذا المنهج السلفي أصولاً ومبادئ تجتمع في عشرة نقاط هي :

١ – الاحتكام إلى النصوص المعصومة لا أقوال الرجال .
٢ – رد المتشابهات إلى المحكمات والظنيات إلى القطعيات .
٣ – فهم الفروع والجزئيات في ضوء الأصول والكليات .
٤ – الدعوة إلى الاجتهاد والتجديد ، وذم الجمود والتقليد .
٥ – الدعوة إلى الالتزام لا التسيب في مجال الأخلاق .
٦ – الدعوة إلى التيسير لا التعسير في مجال الفقه .
٧ – الدعوة إلى التبشير لا التنفير في مجال التوجيه .
٨ – العناية بغرس اليقين لا بالجدل في مجال العقيدة .
٩ – العناية بالروح لا بالشكل في مجال العبادة .

---

(١) انظر : السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي د: محمد سعيد رمضان البوطي ص ١٣، ١٤ دار الفكر دمشق ط الأولى ١٩٩٨ م .
(٢) انظر : أولويات الحركة الإسلامية ص ٩٦ .

١٠ – العناية بالاتباع في أمور الدين والاختراع في أمور الدنيا [١].

وإذا كان دعاة السلفية اليوم أو بعض منهم أعلنوا حرباً على الشيخ في مساجدهم ومنتدياتهم ، بأقلامهم وألسنتهم ، زاعمين أن هذه هي السلفية ، وأن هذا طريق شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، وأن الشيخ القرضاوي بعيد كل البعد عن منهج السلف ؛ إن زعموا ذلك فقد ظلموا السلفية وظلموا شيخ الإسلام وتلميذه ، إن السلفية الحقة هي اتباع الأقوال لا الرجال، وكلام شيخ الإسلام وشيوخه ليس وحياً معصوماً، إنما هي أقوال فما صح منها أخذناه، وما خالف روح الشريعة ونصوصها تركناه ، دون أن يمس جانب ابن تيمية بشيء، فهو إن أصاب مأجور ، وإن أخطأ فذنبه مغفور، ولهذا يؤكد الشيخ القرضاوي بأن أدعياء السلفية ظلموا السلفية وظلموا ابن تيمية وابن القيم حين يقتصر على جانب واحد فقط من جوانب حياتهم المتعددة ، أو الالتزام بأقوالهم مطلقاً ، يقول الشيخ القرضاوي : والذي يهمني تأكيد التنبيه عليه هنا ، هو اتباع منهج السلف ، لا مجرد أقوال السلف في المسائل الجزئية ، فقد تأخذ بأقوالهم الجزئية وأنت بمعزل عن منهجهم الكلي المتوازن .

وقد تلتزم بهذا المنهج بروحه ومقاصده ، وإن خالفت بعضهم في بعض ما ذهبوا إليه من آراء واجتهادات .

وهذا هو موقفي من الإمامين ابن تيمية وابن القيم ، فأنا أحترم منهجهما الكلي، وأتفهمه تماماً ، ولكن هذا لا يجعلني آخذ بكل ما ذهبا إليه من أقوال . ولو فعلت ذلك لكنت مقلداً تابعاً لهما في كل شيء ، ولخالفت منهجهما الذي دعوا إليه ، وأوذيا في سبيله ، وهو منهج النظر واتباع الدليل، والنظر إلى القول لا إلى قائله .

وأي معنى للإنكار على من قلد أبا حنيفة أو مالكاً إذا قلدت أنت ابن تيمية أو ابن القيم؟[٢]

ومع تطاول بعض أدعياء السلفية على الشيخ إلا أنه أنصفهم كل الإنصاف

---

(١) انظر : أوليات الحركة الإسلامية ص٩٦ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٩٨ ، ٩٩ .

وأنصف دعاتهم ، وقد ذكرت فيما سبق موقف الشيخ القرضاوي وإنصاف الشيخين ابن باز والألباني رحمهما الله، وأذكر هنا كلمة رائعة نعى فيها الشيخ ابن عثيمين رحمه الله فكتب[1] تحت عنوان «وهوى نجم آخر»: رحل عن عالمنا العلامة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، وقد شيعت جنازته مع الوفد الذي أوفدته دولة قطر، وكان رحمه الله من كبار علماء المملكة العربية السعودية، وكان له دوره في الإفتاء والتعليم والدعوة والإرشاد، وكان منهجه ـ رحمه الله ـ اتباع الدليل من الكتاب والسنة، وفقا لمنهج السلف الصالح، سواء في أمور العقيدة، أم في أمور الشريعة، ولم يكن يبال أوافق رأيه أهواء الناس أم خالفهم، ولمن يكن يعبأ بمخالفة أحد من العلماء، إذا لاح له دليل على صحة رأيه.

إن وفاة الشيخ العثيمين تمثل خسارة كبيرة للعلم والعلماء في هذه المرحلة التي فقدت فيها الأمة عددا من الأعلام، ابتداء بالعلامة الشيخ عبد العزيز بن باز، وقد ختمت اليوم بالشيخ محمد بن صالح عثيمين، ونسأل الله تبارك وتعالى أن يعوض هذه الأمة الإسلامية عامة والمملكة العربية السعودية خاصة عن هذا العالم الكبير الذي نسأل الله له المغفرة والرحمة والرضوان، وأن يجزيه عن العلم والإسلام والمسلمين خير ما يجزي به العلماء العاملين، والدعاة الصادقين[2].

في معرض حديثه عن الجماعات والأفراد الذين أسهموا في الصحوة الإسلامية: ومن المملكة العربية السعودية انطلقت الحركة السلفية داعية إلى التوحيد بعناصره الثلاثة : توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات ، مركزة على تحرير التوحيد من الخرافة والشرك والقبوريات والتأويل ، مشددة النكير على كل من يؤول صفات الله الخبرية من الأشاعرة والماتريدية وغيرهم ، متخذة من تراث شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، رصيداً للدعوة والمجادلة ، وكذلك تراث مجدد الجزيرة العربية الشيخ محمد بن عبد الوهاب[3].

---

(١) كان الشيخ القرضاوي قد نعى الشيخ ابن عثيمين في خطبة الجمعة التي يلقيها في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة وسجلها الشيخ في كتابه «في وداع الأعلام».

(٢) انظر: في وداع الأعلام ص٢٣، ٢٤ بتصرف.

(٣) انظر: أمتنا بين قرنين ص ٧٣، ٧٤ .

لماذا الحِدّة أحياناً في لغة الشيخ مع بعض السلفيين ؟

لغة الخطاب عند الشيخ القرضاوي لا يختلف اثنان في كونها تشع أدباً، وتبتعد كل البعد عن التجريح، كما أنها تبتعد كل البعد عن الحدة والغلظة .

والملاحظ أن الشيخ لا يخرج عن هذا إلا في القليل النادر، والنادر جداً، وقد لاحظت من خلال دراستي لكتابات الشيخ أنه أشد ما يكون حين يكتب عن بعض المنتسبين إلى السلفية، وهذا يجعلني أطرح هنا سؤالاً وهو :

لماذا كا ن الشيخ قاسياً أحياناً في الحكم على بعض السلفيين ؟ وأنا في هذا لا أتجنى على الشيخ؛ ولكنني أستنتج هذا من خلال كتابات الشيخ، ومن ذلك :

١ ـ حين تحدث الشيخ عن فصائل العمل الإسلامي قسمها إلى أربعة تيارات :

الأول : التيار الخرافي، ويعني به التيار الصوفي .

الثاني : التيارالحرفي، ويعني به التيار السلفي .

الثالث : تيار الرفض والعنف، ويعني به التيار التكفيري .

الرابع : التيار الوسطي، ويعني به تيار الإخوان المسلمون، والجماعة الإسلامية في الهند، والقريبين منهم .

والحق أن الشيخ حين تحدث عن التيار الحرفى والذي يعني به « التيار السلفي » وصفه الشيخ قائلاً : وهذا له ـ رغم تشدده في أمر الدين ودفاعه عنه ـ خصائص غلبت على أكثر أتباعه تميزه أيضاً منها :

* الجدلية في العقيدة .
* الشكلية في العبادة .
* الظاهرية في الفقه .
* الجزئية في الاهتمام .
* الجفاف في الروح .
* الخشونة في الدعوة .
* الضيق بالخلاف [١].

---

(١) انظر : في فقه الأولويات ص ١٨٩ .

والحق أن هذا التيار إن وجدت هذه الصفات في بعض أفراده فهي ليست في جميعهم، وإن وجدت في بعض فصائله فهي ليست صفة ملازمة، ولا خصيصة ثابتة، وقد عودنا الشيخ في منهجه على عدم التعميم، ومن ثم فأرى أن وصف الأكثرية لهذا التيار بتلك الصفات وبما فيه نوع من الظلم، أو ضرب من التجني عليهم.

٢ ـ أن الشيخ دائماً ما ينعت هذا التيار بالظاهرية الجدد، وأنهم يقفون عند الظواهر، ولا يلتفتون إلى المقاصد[١].

أقول: إن الشيخ كان قاسياً على هذا التيار على الرغم من لينه مع التيار الصوفي، بل والتيار القومي، وهو مع هذين التيارين وغيرهما كان إلى اللين أقرب منه إلى الشدة، وإلى التجميع أقرب منه إلى التفريق.

والذي يبدو لي أن الذي دفع الشيخ إلى هذه الحدة مع هذا التيار أو بعض فصائله عدة أمور:

١ ـ أن هذا التيار منه من أطلق للسانه العنان، فلم يدع أحداً من السابقين ولا المعاصرين إلا ونال منه.

٢ ـ أن هذا التيار ضاق بالخلاف ذرعاً، فرفض كل المخالفين له في الرأي.

٣ ـ أن هذا التيار في نظر الشيخ وفي نظر غيره من المراقبين للصحوة والمشتغلين بها كان سبباً في تحميل الإسلام ما لا يتحمله، وأنه كان سبباً في تأخير مسيرة الدعوة خطوات وخطوات.

٤ ـ أن هذا التيار وقف للشيخ وللتيار الوسطي بالمرصاد وأعلنوها عليه خصوصاً حرباً شعواء فأصدروا البيانات، ودبجوا المقالات، وكتبوا الكتب، وفي كثير من هذه الكتب زعموا ضلال الشيخ، وقالوا: إنه مبتدع ومنهم من فسقه، ومنهم من كفره، ومنهم من قال: إنه ماسوني، إلى آخر هذه التهم.

* * *

(١) انظر: أمتنا بين قرنين ص ٧٣، وانظر: في فقه الأولويات، وانظر: المرجعية العليا، وغيرها من كتب الشيخ.

المبحث العاشر

التجديد لا الجمود

من القضايا الشائكة والتهم المكالة للصحوة الإسلامية ودعاتها أنهم جامدون، متمسكون بكل قديم ، رافضون لكل جديد ، والكلام إذا كان هكذا بصفة التعميم هو كلام عارٍ من الصحة لأنه دعوى تحتاج إلى برهان .

قد يكون هناك من أبناء الصحوة ودعاتها من يرفض التجديد ، لكن ليس كل أبناء الصحوة من هذا الطراز أو على هذه الشاكلة، بل هناك أناس من دعاة الصحوة ومفكريها ممن دعوا إلى التجديد ونادوا به ، وحاربوا الجمود بكل أشكاله سواء كان جموداً في :

* الفكر والدعوة .
* أو الوسائل و الأساليب .
* أو العرض والتقديم .

ومن هؤلاء ولا شك شيخنا القرضاوي. يقول الشيخ : ومن خصائص الفكر الذي ننشده : أنه فكر مجدد ، لا يرضى أن يحبس في قفص القديم ، ولا يتعبد بالأشكال الموروثة ، ولا يجمد عند الوسائل المعهودة ، بل هو فكر يؤمن بالاجتهاد ويتبنى التجديد ، ويرفض التقليد والتبعية ، ويرى أن الجمود هو الموت، فهو يجدد في الفقه وفي التربية وفي السياسة ، وفي شتى المجالات[1] .

وشيخنا أطال الله في عمره من دعاة التجديد ليس على مستوى الصحوة الإسلامية فحسب؛ بل من دعاة التجديد في الدين ، وهو لم يدع إلى هذا التجديد من فراغ ولكن استلهاماً من قوله ﷺ : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »[2] .

---

(١) انظر : أولويات الحركة الإسلامية ص ١٠١ .

(٢) رواه أبو داود في الملاحم (٤٢٧٠) والحاكم (٥٢٢٤) والبيهقي في السنن والآثار (٥٢٠) ، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٥٩٩) ، وعزاه إلى أبي عمرو الداني في الفتن.

لقد وقف الشيخ القرضاوي موقفاً وسطاً بين دعاة التجديد المطلق ، الذين سخر منهم أديب العربية مصطفى صادق الرافعي حين قال بأنهم يريدون أن يجددوا الدين واللغة والشمس والقمر !! وقال لهم إقبال : إن الكعبة لا تجدد بجلب حجارة لها من أوربا ، وقال عنهم شوقي :

لا تحذ حذو عصابة مفتونة يجدون كل قديم أمراً منكراً
ولو استطاعوا في الجامع أنكروا من مات من آبائهم أو عمرا
من كل ساع في القديم وهدمه وإذا تقدم للبناية قصرا

إنهم الذين يريدون أن يحذفوا « أمس » من الزمن ، والفعل الماضي من التاريخ ، ويحذفوا علم التاريخ من علوم الإنسان ؛ وبين دعاة الجمود الذين حرصوا على كل قديم وعكفوا على ماض وقال قائلهم :

ما أرانا إلا نقول معاراً أو معاداً من قولنا مكروراً

وحكمتهم المأثورة : ما ترك الأول للآخر شيئاً ، وشعارهم المأثور : ليس في الإمكان أبدع مما كان[1] .

ومن شعر الشيخ في ذلك :

قالوا: قديم، فقلنا: الشمس قد قدمت فغيروها بأخرى أيها البسطا !
وغيروا الكعبة البيت العتيق، فلم تعد ملائمة شكلاً ولا نمطا !
نعم القديم قديم يستضاء به بئس الجديد إذا ما ورث السقطا ![2]

هذا الموقف الوسط عبر الشيخ عنه بقوله: هو الموقف الوسط، موقف التميز والاعتدال بين المتزمتين والمتحللين ، بين الذين يجمدون الحياة ، ويقفون في سبيل نموها وتقدمها ، والذين يريدون أن يجعلوها فوضى ، لا تحكمها قيم ولا عقائد ، ولا تضبطها فضائل ولا شرائع . إنه موقف يواجه التطور بالحكمة ، بل يوجهه بالحق ، بل يدفع إلى التطور النافع ، ويخلفه ويغذيه بالوقود .

---

(١) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ٥١ وما بعدها بتصرف، و بينات الحل الإسلامي فصل «إسلام متطور أم تطور مسلم» .

(٢) انظر : المسلمون قادمون ص ٣٣ .

إنه موقف الإسلام الصحيح ، الذي يجمع بين الثبات والمرونة في أحكامه وتعاليمه.

الثبات على الأهداف والغايات ، والمرونة في الوسائل والآلات .

الثبات على الأصول والكليات ، والمرونة في الفروع والجزئيات .

الثبات على الأخلاقيات والدينيات، والمرونة في الماديات والدنيويات .

نجد هذا الثبات في العقائد الرئيسية ، والفرائض الأساسية ، وأمهات الفضائل وأصول المحرمات ، وكليات الشريعة ، ونحو ذلك مما لا يختلف باختلاف الأزمان والبيئات والأحوال ، كما نجد المرونة في الأحكام الفرعية الجزئية التي تتسع لأكثر من نظرة ، وأكثر من اجتهاد ، ولم يضيق الله فيها على عباده ، فمن اجتهد فيها فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فله أجر ، وهي التي قال فيها فقهاؤنا : إن الفتوى فيها تتغير بتغير المكان والزمان والحال والعرف[1] .

التجديد الذي يعنيه القرضاوي :

وإذا كان موقف الشيخ القرضاوي موقفاً وسطاً فيعلم من ذلك أنه لا يدعو إلى تجديد مطلق يشمل كل شيء كما يقول أعداء كل قديم ، ولا يقول كذلك بالجمود على كل شيء كما يقول أعداء كل جديد ، ولكن التجديد الذي يعنيه الشيخ : هو محاولة العودة بالشيء إلى ما كان عليه يوم نشأ وظهر ، بحيث يبدو مع قدمه كأنه جديد ، وذلك بتقوية ما وهى منه ، وترميم ما بلى ، ورتق ما انفتق[1] .

وإذا كان الشيخ يؤمن بتجديد الدين فيعني بذلك : أن نحافظ على جوهره ومعالمه وخصائصه ، ومقوماته ، ونعود به إلى ما كان يوم ظهوره وبزوغ فجره على عهد رسول الله ﷺ ، وخلفائه الراشدين .

التجديد الحق يعني العودة إلى (الإسلام الأول) قبل أن تشوبه بدع المبتدعين ، وتضييقات المتشددين ، وتحريفات الغالين ، وانتحالات المبطلين ، وتأويلات الجاهلين، وعدوى التشويه التي أصابت الملل والنحل من قبل[3] .

---

(١) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ٦٢ . (٢) انظر : المرجع السابق ص ٣٠ .

(٣) انظر : الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي ص ٤٨ .

إنه يعني بالتجديد : معايشة العصر ومواكبة التطور والتحرر من إسار الجمود والتقليد[١].

إنه كما يقول: تجديد قادر على أن يعيد عرض الإسلام بلغة العصر ، مخاطباً كل قوم بلسانهم ، واعياً لخصائص العصر ، وخصائص الإسلام ، وخصائص الأقوام ، مدركاً المفهوم الأوسع والأعمق لقول الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤] .

فليس معنى الآية أن نكلم الإنجليز بالإنجليزية ، والصينيين بالصينية فحسب ، بل أن نعرف كيف ندخل إلى عقل الإنجليزي وقلبه ، وكيف ندخل إلى عقل الصيني وقلبه، ولكل منهما مدخل قد يصلح له، ولا يصلح للآخر[٢].

والشيخ لا يرى هذا التجديد قاصراً على العلوم الشرعية فحسب لكنه كذلك تجديد في العلوم الإنسانية والاجتماعية، يقول الشيخ : تجديد يعيد النظر في العلوم الإنسانية والاجتماعية من خلال منظور إسلامي صحيح ، مستمد من فلسفة الإسلام الكلية ، ونظرته إلى الدين والحياة والإنسان والمجتمع والتاريخ ، ومستفيد من كل المدارس القائمة، ومن نتائج بحوثها وتحليلاتها ، دون أن يكون أسيراً لفلسفة واحدة منها ، أو لفلسفاتها جميعاً[٣].

ويرى الشيخ كذلك أنه : تجديد يتيح لأمة الإسلام التفوق في « فروض الكفايات » من العلوم الكونية والرياضة ، وتطبيقاتها « التكنولوجية » في المجالات المدنية والعسكرية، ويجعل أمة « سورة الحديد » قادرة على تصنيع الحديد ، وعلى استغلال ثرواتها المطمورة والمنشورة، بحيث لا تكون عالة على غيرها في القوت الذي يحييها، وفي السلاح الذي يحميها، وهذا يقتضي تطوير مناهج التعليم وأجهزته وغاياته وأساليبه، وفقاً لما يتطلبه العصر ويفرضه الإسلام ، ويحتمه التطور[٤] .

---

(١) انظر : الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي ص ٤٣ .

(٢، ٣، ٤) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ٣٢ ، ٣٣ .

التجديد والسلفية عند القرضاوي :

وقد يتوهم البعض أن التجديد يعادي السلفية ، أو يخالفها ، ولكن الشيخ القرضاوي يرى علاقة قوية بين التجديد والسلفية ؛ بل لا بد من الجمع بينهما لصلاح حال الأمة ، يقول الشيخ : وقد يحسب بعض الناس أن هناك تعارضاً حتميا بين السلفية والتجديد ؛ فالسلفية رجوع إلى الماضي ، والتجديد انطلاق إلى المستقبل .

ورأيي عكس ذلك تماماً ، أي أن هناك تلازماً بين السلفية الحقيقية والتجديد الحقيقي، فالسلفية الحقيقية لا تكون إلا مجددة ، والتجديد الحقيقي لا يكون إلا سلفيا . فروح السلفية هو التجديد . وقد تجلى هذا المعنى بوضوح في المدرسة السلفية التجديدية الكبرى التي أسسها شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه ، وكان لها أثرها العميق في العقائد والفقه والفكر والأخلاق والسلوك إلى اليوم [1].

وقد يعبر الشيخ أحياناً عن السلفية بالأصالة ، على أساس أن السلف هم أصل هذا الدين ، ومن ثم فإنه ينفي تماماً أن يكون هناك أدنى تعارض بين التجديد والأصالة، يقول حفظه الله: وأبادر فأقول: لا تنافي أبداً بين الأصالة والتجديد ، إذا حدد مفهوم كل منهما، ووضع موضعه الصحيح، فإن أكثر ما يضر بثقافتنا ويشيع البلبلة بيننا هو اختلاط المفاهيم، واضطراب الدلالات، بترك بعض الألفاظ المهمة التي لها قوة المصطلحات، مائعة رجراجة، دون ضبط ولا تحديد لمدلولاتها، ليفسرها من يشاء كما يشاء .

إن الأصالة في لغتنا المتداولة ليست ضد الجدة والحدوث .. وإنما هي ضد الزيف والدخيل والغش ، فالأصيل في القبيلة غير الزنيم الدعي ، اللصيق بهم وليس منهم ، وكلمة « الأصيل » إذا وصف بها الأشخاص أو الألفاظ تذكر عادة في مقابل كلمة « الدخيل » أو« الأجنبي » . إذا وصفت بها الأشياء تذكر في مقابل « الزائف » أو « المغشوش » أو « البراني » . وفي اللغة الدارجة تستعمل كلمة « أصلي » مقابل كلمة « تقليد » ويراد بكلمة « تقليد » ما كان في صورة « الأصلي » ومظهره ، وهو زائف في حقيقته وجوهره .

---

(١) انظر : الصحوة الإسلامية وهموم الوطن ص ٤٥ ، ٤٦ .

فالأصالة عندنا إذن لا تنافي إلا الزائف المغشوش أو الدخيل الذي يراد أن يلصق بنا، وينسب إلينا ، وهو غريب عنا .

وبناءً على هذا يمكننا أن نكون أصلاء ، ومجددين في الوقت ذاته نبقي على الأصيل، ونأتي بالجديد [١].

أين يكون التجديد ؟

وميدان التجديد ينبغي ألا يكون كلاً مباحاً يرتع فيه من شاء وقتما شاء كيفما شاء، ولكن ينبغي أن يعلم أن هناك ثوابت لا تتغير، وحدوداً لا تتعدى ، وخطوطاً لا تتجاوز ، وهنا يحدد الشيخ القرضاوي الثوابت التي لا تجديد فيها وهي :

١ ـ ثوابت خالدة في العقائد : كالإيمان بالله واليوم الآخر وملائكته وكتبه ورسله والقدر .

٢ ـ ثوابت خالدة في العبادات : وذلك في الشعائر الركنية الأربعة : الصلاة والزكاة والصيام والحج وما يكملها من نوافل تقرب المرء من ربه .

٣ ـ ثوابت خالدة في القيم الأخلاقية : كالنظافة والعفة والحياء والرجاء والصبر والشجاعة والعزة ومحاسن النفس ، فهذه قيم لا تقبل التجديد [٢].

ويجمل الشيخ ذلك فيقول : المنهج الإلهي الذي بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه ، من العقائد والعبادات والأخلاق والشرائع ؛ لينظم بها علاقة الإنسان بربه ، وعلاقة الناس بعضهم ببعض ، وهو ما عبر عنه العلامة ابن خلدون بأنه : « وضع إلهي سابق للبشر باختيارهم إلى ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم » .

وهذا المعنى ـ بالنظر إلى أسسه وأصوله ـ ثابت لا يقبل التغيير ولا التجديد من حيث هو حقيقة خارجية[٣] .

---

(١) انظر : الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد ص ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) انظر : الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي ص ٥٥ وما بعدها باختصار ، والخصائص العامة للإسلام ص ٢٠٠ وما بعدها .

(٣) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ٢٨ .

ولذلك كان الشيخ صارماً في رده على من وصف الإسلام بالجمود على هذه الأصول والثوابت فقال :

وإن كنتم تريدون بالجمود مجرد الثبات أو الاستمساك بقيم وأهداف وعقائد وأصول، لا يجوز المروق منها ، ولا الخروج عليها ، لأنها ثابتة لا تحول ، خالدة لا تزول ، باقية ما بقيت الحياة والأحياء ، فهذا حق ودعاة الحل الإسلامي يصرون على هذا الثبات الذي تسمونه «الجمود» ولا يحيدون عنه قيد شعرة . وقد قال الله تعالى لرسوله : ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٤٣] .

وتسميتكم لهذا الثبات أو الاستمساك ، «جموداً» لا يخيفهم ، فلا عبرة بالأسماء إذا وضحت المسميات[١] .

كما يؤكد الشيخ ثبات الأخلاق نافياً زعم من قال بنسبية الأخلاق فيقول: وجاءنا محمد ﷺ بقيم وأخلاق «جامدة» لا تلين لمطارق الحضارة وضرباتها العنيفة المتكررة ، فالزنا حرام ، والربا حرام ، والشذوذ الجنسي حرام ، والظلم حرام ، وغير ذلك من الرذائل حرام ، حرمها الله ورسوله ، فهي حرام إلى يوم القيامة ، كما أن الحياء فضيلة ، والعفاف فضيلة ، والصبر فضيلة ، والرحمة فضيلة ، والسخاء فضيلة ، وخشية الله فضيلة ، والتوكل على الله فضيلة ، وغير ذلك مما جاء به الرسول ﷺ من شعب الإيمان ، وأخلاق الإسلام.

وستظل هذه الفضائل فضائل ، كما ستظل تلك المحرمات محرمات ، سواء أكان الإنسان في القرن السابع للميلاد أم في القرن العشرين أو في القرن الثلاثين أو المائة[٢] .

كما ردّ الشيخ أيضاً على من يريدون أن يدخلوا التجديد والتطور في كل شيء، فقال حفظه الله: أن يخضع للتطور والتغير ما من شأنه الثبات والدوام والاستقرار ، كما نرى ونسمع في عصرنا الحديث من أبناء المسلمين فئة يريدون خلع الأمة من دينها، وعزلها عن تراثها كله باسم التطور. ويريدون أن يفتحوا

(١، ٢) انظر : بينات الحل الإسلامي ص ٨٦، ٨٧، ٨٨ بتصرف .

الباب للإلحاد في العقيدة، والانسلاخ من الشريعة، والتحلل من الفضيلة، كل ذلك باسم هذا الصنم الجديد «التطور».

إنهم يريدون أن يطوروا الدين نفسه، لكي يلائم ما يريدون استيراده من الشرق أو الغرب من عقائد وأفكار، وقيم وموازين، وأنظمة وتقاليد، ومثل وأخلاق، وما جعل الله الدين إلا ليمسك البشرية أن تتدحرج وتنقلب على عقبيها؛ لهذا أوجب أن يكون الدين هو الميزان الثابت، الذي يحتكم إليه الناس إذا اختلفوا، ويرجعون إليه إذا انحرفوا، أما أن يصبح الدين خاضعاً لتقلبات الحياة وظروفها، يستقيم إذا استقامت، ويعوج إذا اعوجت، فإنه بذلك يفقد وظيفته في حياة الإنسان: أن يوجهها ويحكمها لا أن توجهه وتحكمه، وأن يخضعها لمثله وهداه، لا أن تخضعه لواقعها وهبوطها.

ومن هنا نقول للذين يطالبون الإسلام أن يتطور: لماذا لا تطالبون التطور أن يسلم؟!! فالإسلام حاكم، والتطور محكوم عليه [1].

أما ما سوى ذلك فهو يدخل في منطقة التجديد، يقول الشيخ: وفيما عدا هذه الثوابت الراسيات، نجد جل أحكام الشريعة قابلة للاجتهاد وتعدد الأفهام. والاجتهاد علاقة ثلاثية بين المجتهد وبين الواقعية والدليل، ومهما يحاول المجتهد أن يتحرر من ذاتيته، وينظر إلى الدليل بتجرد وموضوعية، فالواقع أن المجتهد ابن زمانه وبيئته، ولابد أن يتركا «بصماتهما» على تفكيره، شاء أم أبى. كما أن الواقعية نفسها حدث متأثر بزمانه ومكانه، من حيث وقعها على الأنفس وتأثيرها في الناس.

ولا عجب أن تغيير هذه الأحكام الثابتة بالاجتهاد، بتغير الزمان والمكان والعرف والحال، وهي الموجبات التي تؤثر في اجتهاد المجتهد وفتوى المفتي، وقضاء القاضي [2].

ويقول أيضاً حفظه الله موضحاً مكان التجديد ومنطقته: الحالة التي يكون عليها الإنسان في علاقته بالمعنى الأول فكراً وشعوراً، وعملاً وخلقاً، وفي هذا المعنى يقال: فلان ضعيف الدين أو قويه، حسن الإسلام أو رديء الإسلام.

---

(١) انظر: من أجل صحوة راشدة ص ٦٤، ٦٥، و بينات الحل الإسلامي ص ٩٩.

(٢) انظر: الصحوة الإسلامية وهموم الوطن ص ٥٩ - ٦٠.

والدين هنا متغير متحرك ، فهو يزيد وينقص ، ويضعف ويقوى ، ويصفو ويكدر ، ويستقيم وينحرف ، بحسب فهم الإنسان له ، وإيمانه به ، والتزامه بتعاليمه .

وهذا المعنى هو الذي يقبل التجديد[١] .

مـــن المجـــدد ؟

يجدر بنا أن نعرف من هو المجدد ؛ وقد نقل الشيخ القرضاوي كلاماً رائعاً للعلامة المناوي في تعريف المجدد حيث قال : وإنما يكون المجدد ـ كما قال العلامة المناوي ـ إذا كان مجتهداً قائماً بالحجة ، ناصراً للسنة ، له ملكة رد المتشابهات إلى المحكمات، وقوة استنباط الحقائق والدقائق والنظريات من نصوص الفرقان وإشاراته ودلالاته واقتضاءاته ، من قلب حاضر وفؤاد يقظان[٢] .

كانت كلمة « من » التي جاءت في قوله ﷺ « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »[٣] كانت كلمة « من » هي محور الكلام في تحديد المجدد ومن هو ؟

فمن قائل : إن المجدد فرد كما قال السيوطي وغيره .

ومن قائل : إن المجدد جماعة كما قال الذهبي وغيره[٤] .

وقد ذهب الشيخ القرضاوي إلى ترجيح كون المجدد جماعة لا فرداً ، فيقول الشيخ حفظه الله: والذي أختاره هنا ما ذهب إليه ابن الأثير والذهبي وغيرهما : أن « من » في الحديث المذكور ، تصلح للجمع كما تصلح للمفرد .

وذلك أن « من » في أصل وضعها صالحة لهذا وذاك ، وفي القرآن الكريم ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً ﴾ [النساء: ١٢٤].

إذا عرفنا هذا ، فقد يكون المجدد فرداً ، يهيئه الله ليقوم بمهمة الإحياء

---

(١) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) انظر : الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر : جامع الأصول ابن الأثير ج ١١ ص ٣٢٠ وما بعدها .

والتجديد كعمر بن عبد العزيز ، وقد قيل : فرد ذو همة يحيي أمة ! وقال الشاعر :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد !

وقد يقوم بالتجديد والإحياء جماعة أو مدرسة أو حركة : فكرية ، أو تربوية ، أو جهادية ، يتواصى أهلها بالحق والصبر ، ويتعاونون على البر والتقوى.

وقد يقوم بمهمة التجديد أفراد أو مجموعات متناثرة ، كل في موقعه ، ومجال اهتمامه واختصاصه . هذا في مجال العلم والفكر ، وذاك في مجال السلوك والتربية ، وثالث في مجال خدمة المجتمع ، ورابع في مجال الحكم والسياسة ، وآخرون في مجال الجهاد والمقاومة ، وكل على ثغرة من ثغر الإسلام ، اتحدت أهدافهم ، ومبادئهم، وإن اختلفت مواقعهم وطرائقهم (١).

وينكر الشيخ حصر المجدد في فرد واحد لما له من بعض السلبيات أهمها انتظار هذا المجدد ، بينما كون المجدد جماعة لا فرداً يجعل كل فرد يقول: ما هو دوري في التجديد؟ لا متى يظهر المجدد ؟ يقول الشيخ : إن ربط التجديد بفرد واحد فذ ، يجعل الناس يعيشون على أمل ظهوره ، وكل ما عليهم انتظاره حتى تنشق الأرض عنه ليجدد ما عجزوا عنه .

والذي أراه أن يربط التجديد بجماعة أو مدرسة أو حركة ، يقوم كل مسلم غيور فيها بنصيبه في موكب التجديد ، ويسهم على قدر طاقته في مسيرته ، ولا يصبح السؤال : متى يظهر المجدد للدين ؟ بل يكون : ماذا أعمل لتجديد الدين؟ (٢)

وإذا كان الشيخ ينكر حصر المجدد في شخص بعينه ، فإنه أشد إنكاراً للتجديد إذا صدر من غير أهله ، ومن ثم فإن الشيخ يصف هؤلاء: بأنهم مبددون لا مجددون ، ويشبه الشيخ هؤلاء بمن يريد أن يهدم « جامعاً » قديماً

---

(١) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢) انظر : لقاءات ومحاورات ج١ ص ٨٨ .

ليقيم على أنقاضه «كنيسة» حديثة بكل مقوماتها وخصائصها إلا أنه كتب عليها اسم «جامع»[1].

ويعلق الشيخ على هؤلاء المبددين بقوله: والذي سمى هؤلاء «مجددين» إنما هو الاستعمار وتلاميذه وعملاؤه من المستشرقين والمنصرين، وتسميتهم الحقيقية «عبيد الفكر الغربي» فهم لا يرقون ليكونوا تلاميذ الفكر الغربي، فإن التلميذ يناقش أستاذه، وقد يخالفه ويرد عليه، ولكن موقف هؤلاء من الفكر الغربي هو التبعية والعبودية، التي ترى أن كل ما يؤمن به الغرب هو الحق، وكل ما يقوله فهو صدق، وكل ما يفعله فهو جميل!

ويستوي في هذا عبيد اليمين وعبيد اليسار، فمنبع الجميع واحد، كلهم فرع من الشجرة الملعونة في القرآن والتوراة والإنجيل: شجرة المادية الخبيثة التي تفرغ الإنسان من الروح، والحياة من الإيمان، والمجتمع من هداية الله[2].

ويقول في موضع آخر: تجديد الدين لابد أن يكون من داخله، وبأدواته الشرعية، وعن طريق أهله وعلمائه، لا بالإغارة عليه، ولا بالافتيات على أهله، ولا بإدخال عناصر غريبة عنه، وفرضها عنوة[3].

الحركة الإسلامية بين التجديد والجمود في نظر القرضاوي:

وإذا كان الشيخ القرضاوي ينكر الجمود على المستوى العام للأمة الإسلامية فهو أشد إنكاراً للجمود في داخل الحركة الإسلامية، لأن الحركة الإسلامية هي بمثابة القبطان الذي يقود السفينة للأمة الإسلامية ليصل بها إلى شاطئ الأمن والسلامة، وهي التي تحمل «البوصلة» التي تهدي الأمة الحائرة في دياجير الظلام، فكيف إذا جمد «القبطان» أوتعطلت «البوصلة»؟!

ولهذا انتقد الشيخ على الحركة الإسلامية خوفها من التجديد، وجمودها على بعض أفكار دعاتها كأنها «وحي يوحى» أو كلام بشر معصوم، يقول

---

(١) انظر: لقاءات ومحاورات ج١ ص ٨٩، ومن أجل صحوة راشدة ص ٥٦، وفقه الدعوة ملامح وآفاق أ: عمر عبيد حسنة كتاب الأمة نشر وزارة الأوقاف القطرية.

(٢) انظر: من أجل صحوة راشدة ٥٦.

(٣) انظر: ثقافتنا بين الانغلاق والانفتاح ص ٥٤.

الشيخ : وهذه نقطة من نقاط الضعف في الحركة الإسلامية : إنها تخاف من الاجتهاد، ولا ترحب كثيراً بالتجديد، ولا تميل إلى الانفتاح ومواكبة التطور .

ورغم أنها تدعو - من الناحية النظرية على الأقل - إلى الاجتهاد في المجال الفقهي، فهي تميل إلى التقليد في المجال الفكري ، والمجال الحركي وتؤثر أن يبقى كل قديم على قدمه .

وليس هذا مقصوراً على الحركات التي عرفت بنزعتها الظاهرية في فهم الإسلام، والحرفية في تفسيره ، بل يكاد ذلك يعم الحركات الإسلامية المعاصرة ، حتى التي اشتهرت منها بالمرونة وسعة الأفق ، وخاضت من التجارب ما يجعل لها الحق في التجديد والتغيير .

فهي تتمسك أحياناً ببعض الوسائل والأشكال ، ولو وقفت حجر عثرة في سبيل انتشارها ، أو جلبت عليها متاعب هي في غنى عنها . وتنفر من الأفكار الحرة ، والنزعات التجديدية ، التي تخالف المألوف والمستقر من الأفكار والأعمال، وتضيق بالمفكرين من هذا النوع الذي يصعب صبه في قالب حجري لا يفارقه ، أو حبسه في قمقم فكري لا يخرج منه ، وربما تصدر في شأنهم قرارات أشبه بـ « قرار الحرمان » بحيث لا تقرأ كتبهم ، ولا تشهد حلقاتهم [1].

وقد عد الشيخ جمود الحركة الإسلامية أحد معوقاتها الداخلية كما ذكر ذلك في كتابه « أين الخلل » وأكده في كتابه « الحل الإسلامي فريضة وضرورة » فقال الشيخ : وأعني بالجمود : تحجر الحركة الإسلامية على أسلوب معين في الدعوة ، أو طريقة معينة في العمل ، أو شكل معين في التنظيم ، لا ترضى عنه بدلاً ، ولا تبغي عنه حولاً ، وإن ظهر ضعف أثره ، أو ثبت فشله ، أو حالت الحوائل القاهرة دون الانتفاع به [2].

بل إن الشيخ يرى أن جمود الحركة الإسلامية علامة من علامات الموت فيقول : إن الجمود أبرز دلالات الموت ، والحركة من أظهر علامات الحياة ، هذا واضح في الكائنات الحية عموماً ، وفي الإنسان خصوصاً .

---

(١) انظر : أين الخلل ص ٦٠ ، ٦١ .

(٢) انظر : الحل الإسلامي فريضة وضرورة ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

والجماعة الحية كالفرد الحي ، لا تستطيع أن تثبت حيويتها إلا بقدرتها على الحركة والتجدد أمام الأحداث ، فإذا سد عليها طريق شقت لنفسها طريقاً آخر أو طرقاً ، وإذا أغلق في وجهها باب فتحت لنفسها باباً آخر أو أبواباً (١).

خطورة الجمود على الحركة الإسلامية في نظر القرضاوي:

والشيخ حفظه الله حين نادى بالتجديد وحارب الجمود فإن ذلك كان نابعاً من خوفه على مستقبل الحركة الإسلامية من أن يتفلت منها أبناؤها ، أو يتركها دعاتها ، ولهذا يقول الشيخ : إن أخشى ما أخشاه على الحركة الإسلامية أن تضيق بالمفكرين الأحرار من أبنائها ، وأن تغلق النوافذ في وجه التجديد والاجتهاد ، وتقف عند لون واحد من التفكير لا يقبل وجهة نظر أخرى، تحتمل رأياً مخالفاً في ترتيب الأهداف ، أو في تحديد الوسائل ، أو في تعيين المراحل، أو في تقويم الأحداث والمواقف ، أو في تقدير الرجال والأشخاص، أو في غير ذلك ، مما يدخل في دائرة الاجتهاد البشري ، الذي من شأنه أن يتطور ويتغير بتغير العوامل والمؤثرات . وقديماً قال فقهاؤنا : يجب أن تتغير الفتوى بتغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والعوائد .

وعندئذ تتسرب الكفايات العقلية القادرة على التجديد والابتكار . من بين صفوف الحركة ، كما يتسرب الماء من بين الأصابع ، ولا يبقى في النهاية إلا المحافظون المقلدون ، الذين يحبون أن يبقى كل قديم على قدمه ، وأن ما نعرفه خير مما لا نعرفه، ما جربته أفضل مما لم تجربه .

ونتيجة هذا أن تحرم الحركة من ثمرات العقول الكبيرة من أبنائها ، وأن تصاب في النهاية بالجمود ، أو العقم الذي أصاب الفقه والأدب في عصور التقليد، وأن يتقوقع هؤلاء على ذواتهم يأساً من أي عمل مثمر للإسلام ، أو يعملوا فرادى نافضين أيديهم من جدوى أي عمل جماعي، أو يحاولون مع آخرين خوض تجربة جماعية أخرى لا تدرى عواقبها .

إن من أهم ما أضر بالعقل المسلم قديماً ، وأضر به حديثاً ، شيوع تلك المقولة التي تقول : ما ترك الأول للآخر شيئاً ، وليس في الإمكان أبدع مما كان .

---

(١) انظر : الحل الإسلامي فريضة وضرورة ص ٢١٩ .

ولا ينفع العقل المسلم شيء مثل شيوع الفكرة المضادة التي تقول أبداً : كم ترك الأول للآخر، وكم في الإمكان أبدع مما كان[١] .

ولذلك فإن الشيخ لم يستثن من فصائل الحركة كلها بل نقد الجميع ، وعد الشيخ ذلك من صفات المراهقة التي ينبغي للحركة أن تتخلى عنها لتصل إلى مرحلة الرشد فقال الشيخ حفظه الله : وكل هذه الجماعات متساوية في التعصب لرؤسائها ومؤسسيها وموروثاتها الفكرية وإن تفاوتت النسبة بينهم تفاوتاً غير قليل [٢].

وفي معرض حديثه عن « حزب التحرير » يقول الشيخ : حزب التحرير: متعصب لكل ما قاله مؤسسه الفاضل تقي الدين النبهاني ـ رحمه الله ـ ويكاد كل أعضاء الحزب يحفظون كلماته عن ظهر قلب ، ويرددونها ، كأنها « كليشهات » مطبوعة ، أو نصوص معصومة[٣] .

وعند حديثه عن « جماعة التبليغ » يقول الشيخ : لا يوجد عندهم كتب تقرأ إلا كتاباً واحداً ، كما علمت : رياض الصالحين ، وقد يضاف إليه : حياة الصحابة .

ولقد سمعت بعضهم يقول : إن وسائلنا هي وسائل الأنبياء ، وهي الكلمة الشفهية المباشرة ، ونسي هؤلاء أن الأنبياء كانت معهم كتب ، تخاطب الناس بالكلمة المكتوبة[٤] .

وفي معرض حديثه عن « السلفية » يقول الشيخ : والمطلوب من الجماعات السلفية على اختلافها أن تتحرر من الجمود على موروثاتها ، والنظر إلى تفاصيلها نظرة ناقدة و متطورة .

وذلك بأن تتحرر من الانشغال بالفروع والجزئيات ، على حساب الأصول والكليات، ومن النظر إلى رأيها على أنه هو الصواب الذي لا يحتمل الخطأ ، وإلى رأي الآخرين على أنه الخطأ الذي لا يحتمل الصواب .

---

(١) انظر : أولويات الحركة الإسلامية ص ١٠٥ ، ١٠٦ .
(٢ ، ٣) انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ١٩٤ .
(٤) انظر : المرجع السابق ص ١٩٧ .

ومن التمسك بحرفية النص وظاهريته ، إلى النظر إلى مقاصد النصوص وسعة آفاقها .

ومن تأثيم المخالفين وتبديعهم وتكفيرهم ، وهم لا يزالون ينطقون بالشهادتين[١] .

وأما جماعة « الإخوان المسلمين » فإن الشيخ طالما وجه النقد إلى الجماعة لجمودها أحياناً في بعض المسائل ، أو بعض الوسائل والأساليب وفي هذا يقول الشيخ : ولا أنكر أن في حركة « الإخوان » في بعض الأحيان ، وفي بعض الأقطار، ولدى بعض الأفراد والقيادات أحيانا ميلاً إلى التشدد ، تأثراً بالمدارس الأخرى التي لها وجود في الساحة الإسلامية ، ويظهر هذا في الإبقاء على القديم، ومقاومة التجديد ، أو الميل إلى الآراء المتشددة ، التي تنظر إلى النصوص الجزئية، وتغفل المقاصد الكلية ، أو التي تأخذ دائماً بالأحوط ، ولا تأخذ بالأيسر ، رغم حاجة الناس إليه ، ولكن هؤلاء لا يمثلون ـ اليوم ـ التيار الغالب في الحركة[٢] .

ويرى الشيخ أن جمود « الإخوان المسلمين » في بعض المواقف لا يتماشى مع مبادئ مؤسسها رحمه الله لأنه كما يقول القرضاوي : لم يكن رجلاً جامداً ، بل كان رجلاً متجدداً متطوراً ، وكان يستفيد من كل ما يستجد من حوله ، ويطور نفسه، ويطور دعوته،، وما يدرينا ـ لو امتد به الأجل ـ ماذا كان يصنع ؟[٣] .

ويذكر الشيخ إخوانه من أتباع البنا بوفاة إمامهم مبكراً فيقول : كما أغفل الإخوان شيئاً آخر مهماً، وهو أن شيخهم مات في سن مبكرة نسبياً من عمره، في الثانية والأربعين ، وقد شعر في أواخر حياته : أن إخوانه تنقصهم « الثقافة المعمقة »، فأنشأ مجلة « الشهاب » لتسد هذه الثغرة ، ولم يصدر منها إلا خمسة أعداد ، ثم جاءت المحنة واستشهد الشيخ الإمام[٤] .

* * *

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٢٠٤ .

(٢) انظر : الإخوان المسلمون ص ٢٤٨ .

(٣، ٤) انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص٢٠٧، ٢٠٨ .

المبحث الحادي عشر

الاجتهاد لا التقليد

هذه الخصيصة متممة كذلك للخصيصة السابقة ؛ وإذا كان التجديد يشمل كل جوانب الحياة الفكرية والسياسية والاقتصادية وغيرها ، فإن الاجتهاد إنما يعنى أكثر ما يعنى بالناحية الفقهية .

ومن نافلة القول أن نقرر أن الاجتهاد أصل أصيل في الشريعة الإسلامية وجوهر ثمين من جواهرها الغالية ، وضرورة شرعية لدوام هذه الشريعة المباركة ، وللشيخ وهبة الزحيلي كلمات رائعة تؤكد ضرورة الاجتهاد فيقول : لا يمكن لأي تشريع سماوي أو وضعي أن يبقى محترماً معمولاً به نافذ المفعول إلا بالاجتهاد الذي تمليه ضرورات الواقع وتطورات الحياة، وما تقذفه من قضايا ومستجدات تتطلب حلاً سريعاً، وفكراً حراً طليقاً، وحيوية علمية، تتجاوب مع المقتضيات، وتواكب تقدم الحياة، بل وترسي دعائم المستقبل على أسس متينة في الاقتصاد والاجتماع والعلوم المختلفة.

ولا تستغني أمة تحترم نفسها وتنبع إرادتها من ذاتها عن التجديد والاجتهاد في كل مرافق الحياة ، حتى يدوم لها مجدها، وتحمي عزتها وكيانها، وتفرض هيبتها بين العالمين . وهذا ما جعل الأمة الإسلامية في الماضي في عصر الخلافة الأولى تسارع إلى بناء حضارة عريقة وباهرة في شتى الميادين ، وكان من أبرز نتاجها الخصب ما قدمه أئمة الاجتهاد والمذاهب المختلفة من عطاء ثرّ ، وحلول نافعة لما تموج به لجة الحياة ، من أمواج متلاطمة من مسائل وقضايا تصادم الإنسان ، يفرزها الواقع أو القرآن الكريم ، وشريعة الإسلام المجيدة .

لذا كان الاجتهاد ضرورة تشريعية وفرضاً كفائياً، وقد يصبح عينياً إذا

خيف فوات الحادثة على غير الوجه الشرعي ، أو لم يكن مجتهد آخر أمام الحادثة سوى ذلك المجتهد الذي عرضت عليه القضية [1].

الفقه الإسلامي على مر التاريخ :

واستقراء لتاريخ الفقه الإسلامي نرى أنه قد مر بست مراحل أو ستة عصور:

العصر الأول : عصر النبي ﷺ ولا شك أن هذا العصر كان مليئاً بالاجتهاد سواء كان ذلك من النبي ﷺ أو من أصحابه ، علماً بأن اجتهاد النبي ﷺ على أمرين:

١ ـ إما أن يكون إلهاماً فيكون وحياً من الله تعالى .

٢ ـ وإما أن يكون بدون وحي فإن كان صواباً أقره الله تعالى عليه وإلا فلا؛ كما في عتابه سبحانه لنبيه في أسرى بدر .

وأما اجتهاد أصحابه فإن أقره النبي ﷺ كان تشريعاً ، وإلا فلا .

العصر الثاني: عصر الخلفاء الراشدين، ويعد هذا العصر أيضاً عصراً مليئاً بالاجتهاد، وكان السبب في ذلك أن الصحابة واجهوا وقائع وأحداثاً لم تكن في عهد النبي ﷺ .

العصر الثالث : من نهاية عصر الخلفاء الراشدين حتى أوائل القرن الثالث الهجري، ويعد هذا العصر شبيهاً بالعصر السابق ، غير أن المسائل المستجدة كثرت ، وتعددت آراء الفقهاء فيها ، وأدى ذلك إلى ظهور مدرستين :

الأولى : مدرسة الحديث .

الثانية : مدرسة الرأي .

العصر الرابع : ويبدأ من أوائل القرن الثالث الهجري ويمتد حتى منتصف القرن الرابع ، ويعد هذا العصر عصراً ذهبياً للفقه حيث ازدهر ازدهاراً عظيماً ونضج نضجاً كاملاً وظهر نوابغ الفقهاء وظهر المجددون العظام .

العصر الخامس : ويبدأ هذا العصر من نهاية العصر الماضي ويستمر حتى

---

(١) انظر : الاجتهاد الفقهي أي دور وأي جديد؟ منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط سلسلة : ندوات ومناظرات رقم ٥٣ مطبعة النجاح الحديثة الدار البيضاء ط ١٩٩٦م ص ٢٣ .

سقوط بغداد عام ٦٥٦ م ، وفي هذا العصر ظهر التقليد والمناداة بغلق باب الاجتهاد .

العصر السادس : ويبدأ من سقوط بغداد ويستمر حتى وقتنا الحاضر ، ويلاحظ أن الفقه لم ينهض من كبوته ، ولم يغير الفقهاء نهجهم ، غير أن هذا لم يمنع من ظهور مجتهدين مجددين على مر العصور نادوا بالاجتهاد المطلق ، ومن هؤلاء ابن تيمية وابن القيم والشوكاني وغيرهم [١] .

ومن أكبر القواصم التي ضربت ظهر العالم الإسلامي جنوح علمائه وفقهائه إلى التقليد ، وعزوفهم عن الاجتهاد ؛ إما عجزاً أو خوفاً، حتى غدا العالم الإسلامي يتحرك بخطى وئيدة لا تتجاوز خطوات السلحفاة ، بينما غدا العالم من حوله ينطلق بسرعة الصاروخ ، فخسر العالم الإسلامي بذلك أموراً لا تقدر ، وانعكست هذه الخسارة على العالم كله خسارة لا تقاس ، عبّر عنها الشيخ العلامة أبو الحسن الندوي في كتابه القيم الذي أسماه « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» بقوله: لم يكن انحطاط المسلمين أولاً ، وفشلهم وانعزالهم عن قيادة الأمم بعد ، وانسحابهم من ميدان الحياة والعمل أخيراً ، حادثاً من نوع ما وقع وتكرر في التاريخ من انحطاط الشعوب والأمم ، وانقراض الحكومات والدول ، وانكسار الملوك والفاتحين ، وانهزام الغزاة والمنتصرين ، وتقلص ظل المدنيات . والجزر السياسي بعد المد . فما أكثر ما وقع مثل هذا في تاريخ كل أمة . وما أكثر أمثاله في تاريخ الإنسان العام ! ولكن هذا الحادث كان غريباً لا مثيل له في التاريخ . مع أن في التاريخ مثلاً وأمثلة لكل حادث غريب .

لم يكن هذا الحادث يخص العرب وحدهم . ولا يخص الشعوب والأمم التي دانت بالإسلام . فضلاً عن الأسر والبيوتات التي خسرت دولتها وبلادها . بل هي مأساة إنسانية عامة لم يشهد التاريخ أتعس منها ولا أعم منها . فلو عرف العالم حقيقة هذه الكارثة ، ولو عرف مقدار خسارته ورزيته ، وانكشف عنه غطاء العصبية ، لا تخذ هذا اليوم النحس ـ الذي وقعت فيه ـ يوم عزاء ورثاء ،

---

(١) انظر : المدخل لدراسة الشريعة د: عبد الكريم زيدان مؤسسة الرسالة ط الحادية عشر ١٩٩٠م ص ٨٩ وما بعدها باختصار .

ونياحة وبكاء . ولتبادلت شعوب العالم وأممه التعازي . ولبست الدنيا ثوب الحداد . ولكن ذلك لم يتم في يوم . وإنما وقع تدريجياً في عقود من السنين . والعالم لم يحسب إلى الآن الحساب الصحيح لهذا الحادث. ولم يقدره قدره ، وليس عنده المقياس الصحيح لشقائه وحرمانه[1] .

ويقول الأستاذ محمد قطب حفظه الله : فلم تكن الخسارة التي نتجت من انحطاط المسلمين مقصورة عليهم وحدهم ، إنما كانت خسارة شاملة ، شملت العالم كله .

ذلك أن الله منذ أخرج هذه الأمة إلى الوجود وحملها رسالة الرسول الخاتم ﷺ جعل مقادير البشرية كلها مرتبطة بأحوال هذه الأمة ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر، وذلك من مقتضى كون هذه الأمة أخرجت لتكون شاهدة على كل البشرية : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً** ﴾ [البقرة:١٤٣] .

وحين نفصل مقدار الشر الذي أصاب البشرية من جراء غياب الأمة الإسلامية عن الساحة ، سيتبين لنا مجدداً مدى المسئولية الملقاة على عاتق هذه الأمة ، ومدى الوزر الذي ارتكبته في حق نفسها ، وحق البشر جميعاً ، حين فرطت في مسئوليتها[2].

وهذا أيضا ما عبر عنه الدكتور طه جابر العلواني بقوله : واستمر الانحدار واشتد الخلاف وتعمق، ونشأت بعد ذلك قرون على التقليد المحض، فركدت حركة الفكر، وذوت شجرة الاجتهاد، وانتشرت الفتن وعم الجهل.

وقد نزل الحال عن هذا الدرك الهابط إلى ما هو أشد هبوطاً منه ، كأن شمس العلوم غابت عن دنيا المسلمين وعقم الفكر، فراجت سوق البدع ونفقت بضاعة الانحراف، وشاعت الخرافات فاتخذت أشكالاً مختلفة .

فالعقيدة خاملة، وإيمان الكثيرون مزعزع، واليقين لم يعد يقيناً، والسلوك

---

(١) انظر : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين أبو الحسن الندوي المركز العالمي للكتاب الإسلامي ص ٢٧ .

(٢) انظر : رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر محمد قطب مكتبة السنة ط الأولى ١٩٩١م ص ١٨٦ .

منحرف، والاستقامة معدومة، والفكر جامد، والاجتهاد معطل، والفقه مفقود، والبدع قائمة، والسنة نائمة، والوعي غائب، حتى لكأن الأمة ليست هي، وحالة كهذه قد أغرت الذين كانوا يتربصون بالأمة، فاهتبل الغربيون هذه الفرصة واحتلوا البلاد وامتلكوا أزمة العباد، وقضوا على البقية الباقية من مقومات شخصية الأمة حتى وصل الحال إلى ما نحن فيه اليوم، من هوان واستكانة[1].

وقد عبر الشيخ القرضاوي عن هذا الواقع المر بقوله: كانت جامعاتنا موئل الطلاب من أنحاء العالم، وكان علماؤنا في كل التخصصات أشهر العلماء، في دنيا العلم، وكانت كتبهم هي المراجع العالمية المعترف بها، والمغترف منها، وكانت لغتنا العربية هي لغة العلم المتفوقة على كل اللغات.

ثم بدأ التراجع شيئاً فشيئاً، حتى انتهى إلى التخلف والانحطاط، وأخذت شمسنا في الأفول، ونجمنا في الهبوط، وسيرنا في التباطؤ حتى توقفنا. في الوقت الذي كان غيرنا قد طفق ينهض من عثرته، ويصحو من سكرته، ويستيقظ من سباته، ذلك الغرب المسيحي الذي مسته نفخة من الشرق المسلم، عن طريق الأندلس وصقلية والحروب الصليبية وغيرها، فتعلم من جهل، وقوي من ضعف، واستنار من ظلمة، وشرع يستثمر المنهج العلمي الاستقرائي التجريبي الذي اقتبسه من حضارتنا، وتعلمه على أيدي علمائنا، فإذا هو ينهض ويرقى ويتقدم ويطور حياته يوماً بعد يوم، حتى وصل إلى ما نراه اليوم.

أما نحن فإن حياتنا في العصور الأخيرة قد أصيبت بالعفن، وأصبح ماؤها آسنا، وبحيرتها راكدة، ولا يجري ماؤها، ولا يتجدد هواؤها، ولا تفتح نوافذها، فتدخل منها أشعة الشمس، وهبات النسيم.

لقد أصيب الفقه بالجمود والتقليد، فغلبت العصبية المذهبية، واشتهر بين طلبة العلم أن باب الاجتهاد قد سد منذ زمن بعيد، ولم يعد في الناس من يقدر على الاجتهاد المطلق، بل ولا الاجتهاد الجزئي، والواجب على الجميع تقليد أحد المذاهب المعروفة، كما قال الناظم عن أئمة المذاهب:

فواجب تقليد حبر منهمو كما حكى القوم بلفظ يفهم!

---

(١) انظر: أدب الاختلاف في الإسلام ص ١٤٧، ١٤٨.

وأصبح المقلدون ودعاة التقليد هم المهيمنين على جل مؤسسات التعليم الديني في البلاد الإسلامية ، وغدا دعاة الاجتهاد والتجديد الحقيقيون ينظر إليهم بعين الريبة والشك[١].

والمتعقب لأقوال الأئمة المجتهدين يرى أنهم ما أمروا أحداً بتقليدهم ، أو التزام أقوالهم ، إنما كان حرصهم على اتباع الدليل الصحيح ، ولهذا شاع من أقوالهم ما قاله مالك : إنما أنا بشر أصيب وأخطئ فاعرضوا قولي على الكتاب والسنة .

وقال الشافعي : إذا صح الحديث فاضربوا بقولي عرض الحائط .

وقال أحمد : لا تقلدوني ولا تقلدوا مالكاً ولا الشافعي ولا الثوري ، وتعلموا كما تعلمنا.

القول بغلق باب الاجتهاد :

لقد راجت هذه المقولة منذ فترة طويلة ، ونادى بذلك عدد من الفقهاء ، كما نادى كذلك عدد من الأصوليين، وكان ممن نادى بذلك إمام الحرمين والقفال والغزالي والرازي، غير أن هؤلاء الفقهاء والأصوليين وجدوا كثيراً ممن خالفهم الرأي من أمثال أبي إسحق الإسفراييني والشهرستاني وابن القيم ومن قبله ابن تيمية وأخيراً الشوكاني ، وكان ممن تصدى لهم بقوة الإمام السيوطي في كتابه الذي أسماه «الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض» وكذلك الإمام الشوكاني في كتابه «إرشاد الفحول » ، وابن تيمية في مجموع الفتاوى ، وابن القيم في أعلام الموقعين[٢] .

ومن كلام ابن القيم رحمه الله في الرد على هؤلاء : أن المقلدين حكموا على الله قدراً وشرعاً بالحكم الباطل جهاراً ، المخالف لما أخبر به رسوله فأخلوا الأرض من القائمين لله بحججه ، وقالوا: لم يبق في الأرض عالم منذ الأعصار

---

(١) انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ١٧٨ ـ ١٨٨ .

(٢) انظر : الرد على من أخلد إلى الأرض الإمام السيوطي ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٣ هـ ص ٩٧ وما بعدها ، وانظر مجموع الفتاوى ابن تيمية ج٢٠ ص ٢٠٠ وما بعدها ، وانظر : أعلام الموقعين ج٢ ص ٢٧٠ وما بعدها ، وانظر إرشاد الفحول ص ٣٠٧ وما بعدها .

المتقدمة. فقالت طائفة : ليس لأحد أن يختار بعد أبي حنيفة وأبي يوسف وزفر ابن الهذيل ومحمد بن الحسن والحسن بن زياد اللؤلؤي وهذا قول كثير من الحنفية ، وقال بكر بن العلاء القشيري المالكي : ليس لأحد أن يختار بعد المائتين من الهجرة ، وقال آخرون ليس لأحد أن يختار بعد الأوزاعي وسفيان الثوري ووكيع بن الجراح وعبد الله بن المبارك، وقالت طائفة : ليس لأحد أن يختار بعد الشافعي ، واختلف المقلدون من أتباعه فيمن يؤخذ بقوله من المنتسبين إليه ويكون له وجه يفتي ويحكم به ، وجعلوهم ثلاث مراتب :

* طائفة أصحاب وجوه كابن سريج والقفال وأبي حامد .
* وطائفة أصحاب احتمالات لا أصحاب وجوه كأبي المعالي .
* وطائفة ليسوا أصحاب وجوه ولا احتمالات كأبي حامد وغيره .

واختلفوا متى انسد باب الاجتهاد على أقوال كثيرة ما أنزل الله بها من سلطان ، وعند هؤلاء أن الأرض قد خلت من قائم لله بحجة، ولم يبق فيها من يتكلم بالعلم ، ولم يحل لأحد بعد أن ينظر في كتاب الله ولا سنة رسوله لأخذ الأحكام منهما، ولا يفتي بما فيهما حتى يعرضه على قول مقلده ومتبوعه ؛ فإن وافقه حكم به وأفتى به ، وإلا رده ولم يقبله.

وهذه أقوال كما ترى قد بلغت من الفساد والبطلان والتناقض ، والقول على الله بلا علم ، وإبطال حججه ، والزهد في كتابه وسنة رسوله، وتلقي الأحكام منهما مبلغها ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ويصدق قول رسوله: «أنه لا يزال يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها دينها»[1].

ويكفي في فساد هذه الأقوال أن يقال لأربابها : فإذا لم يكن لأحد أن يختار بعد من ذكرتم، فمن أين وقع لكم اختيار تقليدهم دون غيرهم ؟ وكيف حرمتم على الرجل أن يختار ما يؤديه إليه اجتهاده من القول الموافق لكتاب الله وسنة رسوله، وأبحتم لأنفسكم اختيار قول من قلدتموه، وأوجبتم على الأمة تقليده، وحرمتم تقليد من سواه، ورجحتموه على تقليد من سواه ؟ فما الذي

---

(١) سبق تخريجه.

سوغ لكم هذا الاختيار الذي لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا قياس ولا قول صاحب ؟

ويقال لكم : فإذا كان لا يجوز الاختيار بعد المائتين عندك ولا عند غيرك؛ فمن أين ساغ لك وأنت لم تولد إلا بعد المائتين بنحو ستين سنة أن تختار قول مالك دون من هو أفضل منه من الصحابة والتابعين، أو من هو مثله من فقهاء الأمصار، أو ممن جاء بعده؟ وموجب هذا القول: أن أشهب وابن الماجشون ومطرف بن عبد الله، وأصبغ بن الفرج، وسحنون بن سعيد، وأحمد بن المعدل، ومن في طبقتهم من الفقهاء، كان لهم أن يختاروا إلى انسلاخ ذي الحجة من سنة مائتين ، فلما استهل هلال المحرم من سنة إحدى ومائتين وغابت الشمس من تلك الليلة حرم عليهم الوقت بلا مهلة !

ويقال للآخرين : أليس من المصائب وعجائب الدنيا تجويزكم الاختيار والاجتهاد، والقول في دين الله بالرأي والقياس لمن ذكرتم من أئمتكم ، ثم لا تجيزون الاختيار والاجتهاد لحفاظ الإسلام ، وأعلم الأمة بكتاب الله وسنة رسوله، وأقوال الصحابة وفتاواهم ، كأحمد بن حنبل، والشافعي، وإسحاق بن راهويه، ومحمد بن إسماعيل البخاري، وداود بن علي ، ونظرائهم على سعة علمهم بالسنن ووقوفهم على الصحيح منها والسقيم، وتحريهم في معرفة أقوال الصحابة والتابعين ودقة نظرهم ولطف استخراجهم للدلائل ، ومن قال منهم بالقياس فقياسه من أقرب القياس إلى الصواب، وأبعده عن الفساد، وأقربه إلى النصوص، مع شدة ورعهم وما منحهم الله من محبة المؤمنين لهم، وتعظيم المسلمين علمائهم وعامتهم لهم [1].

كما أن للشوكاني رحمه الله كلاماً قوياً لا تنقصه الحجة، ولا ينقصه البرهان في إرشاد الفحول نقتبس منه ما يلي :

قول هؤلاء القائلين بخلو العصر من مجتهد مما يقضي منه العجب . فإنهم إن قالوا ذلك باعتبار المعاصرين لهم فقد عاصر القفال والغزالي والرازي والرافعي – من الأئمة القائمين بعلوم الاجتهاد على الوفاء والكمال – جماعة منهم .

---

(١) انظر : أعلام الموقعين ابن القيم ج ٢ ص ٢٧٥ وما بعدها بتصرف .

ومن كان له إلمام بعلم التاريخ والاطلاع على أحوال علماء الإسلام في كل عصر لا يخفى عليه مثل هذا . بل قد جاء بعدهم من أهل العلم من جمع الله له من العلوم فوق ما اعتده أهل العلم من الاجتهاد .

وإن قالوا ذلك لا بهذا الاعتبار ، بل باعتبار أن الله عز وجل رفع ما تفضل به على من قبل هؤلاء من هذه الأمة ، من كمال الفهم ، وقوة الإدراك، والاستعداد للمعارف؛ فهذه دعوى من أبطل الباطلات ، بل هي جهالة من الجهالات .

وإن كان ذلك باعتبار تيسر العلم لمن قبل هؤلاء المنكرين . وصعوبته عليهم. وعلى أهل عصورهم فهذه أيضاً دعوى باطلة ، فإنه لا يخفى على من له أدنى فهم أن الاجتهاد قد يسره الله للمتأخرين تيسيراً ، لم يكن للسابقين ، لأن التفاسير للكتاب العزيز قد دونت، وصارت في الكثرة إلى حد لا يمكن حصره ، والسنة المطهرة قد دونت . وتكلم الأئمة على التعديل والتجريح والتصحيح والترجيح بما هو زيادة على ما يحتاج إليه المجتهد .

وقد كان السلف الصالح ـ من قبل هؤلاء المنكرين ـ يرحل للحديث الواحد من قطر إلى قطر . فالاجتهاد على المتأخرين أيسر وأسهل من الاجتهاد على المتقدمين، ولا يخالف في هذا من له فهم صحيح وعقل سليم ، وإذا أمعنت النظر وجدت هؤلاء المنكرين إنما أتوا من قبل أنفسهم ، فإنهم لما عكفوا على التقليد ، واشتغلوا بغير الكتاب والسنة حكموا على غيرهم بما وقعوا فيه، واستصعبوا ما سهله الله على من رزقه الله العلم والفهم ، وأفاض على قلبه أنواع علوم الكتاب والسنة.

ولما كان هؤلاء الذين صرحوا بعدم وجود المجتهدين شافعية ، فها نحن نوضح لك من وجد من الشافعية بعد عصرهم ، ممن لا يخالف مخالف في أنه جمع أضعاف علوم الاجتهاد ، فمنهم : ابن عبد السلام ، وتلميذه ابن دقيق العيد ، ثم تلميذه ابن سيد الناس، ثم تلميذه زين العابدين العراقي ، ثم تلميذه ابن حجر العسقلاني ، ثم تلميذه السيوطي[1].

---

(١) انظر إرشاد الفحول الشوكاني ج٢ ص ٣٠٧ وما بعدها .

ولله در ابن الجوزي حين قال في ذم التقليد : اعلم أن المقلد على غير ثقة فيما قلد فيه، وفي التقليد إبطال منفعة العقل، لأنه خلق للتأمل والتدبر، وقبيح بمن أعطى شمعة يستضيء أن يطفئها ويمشي في الظلمة [١].

ورحم الله ابن المنير يوم أن قال : المقلد أعمى ، والمخصوم أعشى ، والمجتهد هو الذي يستبصر إن شاء الله[٢] .

هذا وقد مال الشيخ القرضاوي إلى التشنيع بالتقليد ودعاته ، مفنداً أقوالهم ، ومبطلاً حججهم ، وفي معرض رده على دعاة التقليد يقول الشيخ : ومن عيوب دعاة التقليد الذين يوجبونه على كل الناس أنهم يحجرون على العقول أن تفكر ، وعلى المواهب أن تبدع ، ويفرضون على العلماء - وإن بلغوا من النبوغ ما بلغوا - أن يفكروا برؤوس غيرهم ، وبعبارة أخرى برؤوس الموتى من اثني عشر قرناً أو تزيد .

وهم بهذا يحجرون ما وسع الله ، ويتألون على الله ما ليس لهم ، ويدَّعون أن فضل الله قد ضاق ، أو توقف قبل منتصف القرن الثالث الهجري ، فلم يمنح أحداً من عباده القدرة على الاجتهاد ، وسيظل هذا الحَجْر مستمراً في المستقبل ، فلن يمن الله بهذا الفضل على أحد من خلقه . وهذا ضرب من اقتحام الغيب والجسارة على أمور لا يجرؤ مسلم أن يدخلها إثباتاً أو نفياً ، فالغيب لا يعلمه إلا الله .

ومن شبهات أنصار التقليد المتعصب ، قولهم: إننا لا نستطيع أن نفهم النصوص من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وحدنا بدون واسطة من الأئمة السابقين. ولهذا نعتمد على من هو أقدر على هذه المهمة منا ، أما نحن فعاجزون عنها[٣].

ويسأل الشيخ هذا الصنف قائلاً : من أين جاءكم العجز ، عن فهم النصوص الشرعية وصعوبة الاستنباط منها ؟

---

(١) انظر : تلبيس إبليس ابن الجوزي ص ٩٣ ط دار المغني للنشر والتوزيع ط الثانية ٢٠٠٠م .

(٢) انظر : حسن المحاضرة ج١ ص ٣١٧ . نقلاً عن كيف نتعامل مع التراث ص ١٢١ .

(٣) انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ١٧٩ .

أهذا راجع إلى النصوص نفسها ؟

أم هو راجع إلى عقولكم أنتم ؟[1]

وينفي الشيخ صعوبة النصوص فيقول : أما النصوص ، فلا يقول عاقل أنها ألغاز عسيرة الفهم ، بعيدة عن إدراك العقول ، كيف وقد سمى الله قرآنه : « الكتاب المبين » في أكثر من موضع ، وأكثر من سورة . وسماه ﴿ نُوراً ﴾ [النساء : ١٧٤] . و ﴿ الْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران : ٤] . و ﴿ بُرْهَانٌ ﴾ [النساء : ١٧٤] . لوضوحه وبيانه ، وتمييزه بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، كما أعلن أنه « ميسر » للذكر والفهم : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٧] . ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الدخان : ٥٨] .

ومثل ذلك : السنة ، فهي البيان والتفصيل للقرآن ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٤٤] .[2]

كما ينزه الشيخ العقول عن العجز فيقول : أما عقولكم ـ وعقول أهل العصر عامة ـ فلا يقول عاقل ، مسلم أو كافر : إن الله سلبها القدرة على الفهم والإدراك والاستنباط . كيف وهذه العقول نفسها ، هي التي استطاع الإنسان بها أن يغزو الفضاء ، ويحطم الذرة ، ويصنع الكمبيوتر ، والثورة البيولوجية ، وثورة الاتصالات ، وثورة المعلومات ، فهل يستطيع العقل الإنساني المعاصر أن يصنع هذه الأشياء التي تشبه المعجزات ، ولا يستطيع فهم نص من « كتاب مبين » ؟

أم يقول هؤلاء : تلك عقول الغربيين « الكفار » ، أما عقولنا نحن المسلمين فليس لها مثل ذلك النجاح في علوم الكون ، والرياضيات ؟

وكأن الإسلام هو الذي يجمد العقول أن تتحرك وتتجدد ، ويحجر عليها أن تبدع وتبتكر . ولا أحسب مسلماً عاقلاً يقول ذلك .

إن الله خلق العقول ـ كل العقول ـ قادرة على أن تفكر ، وتبحث ، وتستنتج ، وتصل إلى الحقائق ، والمشركون هم الذين زعموا أنهم محجوبون عن

---

(١) انظر : المرجع السابق نفس الصفحة.

(٢) انظر : المرجع السابق ١٨٠ ، ١٨١ .

فهم كلام الله ، لما في آذانهم من وقر ، وما في قلوبهم من أكنة ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾[فصلت : ٥]. (١)

ويشبه الشيخ قول القائلين بعجز العقول بزعم اليهود بغلف القلوب فيقول : وكذلك اليهود زعموا ـ مكابرة ـ أن قلوبهم خلقت غلفاً مقفلة ، لا تقبل شيئاً من العلم والهدى، ورد عليهم القرآن بقوله : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء :١٥٥] .

ولا شك أن مما يرد على هؤلاء دعواهم عجز عقولهم عن الفهم والاستنباط، كما استنبط الفقهاء الأولون : أن هذه العقول نفسها ، هي التي أبدعت وابتكرت في علوم الطبيعة والرياضيات .

أترى هذه العقول قادرة في علوم الدنيا ، عاجزة في علوم الدين ؟(٢)

وفي بيان الشيخ حقوق العلم على أصحابه يؤكد ضرورة الترقي عن التقليد ويحمل الشيخ على دعاة التقليد مبيناً خطورة التقليد على العقل فيقول : إن أشد شيء على العقل خطراً ـ بعد اتباع الهوى ـ هو التقليد الأعمى ، الذي لا نزال نراه في حياتنا في صور شتى .

فهناك من باعوا عقولهم ـ أو تنازلوا عنها بغير ثمن ـ لغيرهم ممن يعظمونهم من القدماء أو المحدثين .

هناك من المشتغلين بالفقه من باعوا عقولهم أو تنازلوا عنها ، لأئمتهم المتقدمين ، أو شيوخهم من المتأخرين من الفقهاء .

هناك من المشتغلين بالكلام والعقائد من باعوا عقولهم أو تنازلوا عنها ، لأئمتهم المتقدمين ، أو شيوخهم من السلف أو الخلف .

وهناك من المشتغلين بالسلوك والتصوف من باعوا عقولهم لأئمتهم أو شيوخهم ، وتركوا أنفسهم بين أيديهم كالميت بين يدي الغاسل(٣) .

(١ ، ٢) انظر : المرجع السابق ص ١٨١ .

(٣) انظر : الحياة الربانية والعلم ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

وقد وجه الشيخ عتاباً للمسلمين عامة ولعلماء الأمة خاصة لجنوحهم إلى التقليد فقال: إننا نعتب على كثير من المسلمين أنهم وضعوا عقولهم في (ثلاجة) فجمدوها حتى لا تفكر، أو كأنما منحوها إجازة من عناء التفكير، ولذلك راجت في ساحتهم الخزعبلات، وغاب عنهم (فقه السنن)، فقبلوا من الخوارق وما سموه (الكرامات) ما لا يصدقه عقل، ولا ينتظم به حال مجتمع، مثل ما يذكره الشعراني في (طبقات الصوفية) عن خوارق الذين اعتبرهم أولياء، كأن الكون يمضي بغير نظام، ولا ميزان ولا حسبان!.

فلا غرو إن تخلفوا وتقدم غيرهم، وجمدوا وتحرك غيرهم، وناموا واستيقظ غيرهم.

هذا والقرآن يخاطبهم بأولي الألباب، ويدعوهم ليقوموا لله مثنى وفرادى ثم يتفكروا، ويبين لهم الآيات لعلهم يتفكرون، ويبين لهم أن في كونه (آيات لقوم يعقلون) أو (لقوم يتفكرون) أو (لقوم يفقهون) وينكر بشدة على الذين ألغوا عقولهم ليفكروا برؤوس غيرهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

بل نرى كثيرا من علمائهم الذين تعلموا علم الدين، وظلوا سنوات طوالا يتلقون هذا العلم، لا يجرؤون أن يفكروا برؤوسهم لمطالب عصرهم وبيئتهم، فلا بد أن يرجعوا إلى الموتى ليفتوهم فيما وقع لهم، وربما لم يجدوا عند هؤلاء الموتى خبرا بهذه النوازل الجديدة التي لم يشهدها في عصرهم. ومن هنا لا يستطيع هؤلاء أن يفكروا لأنفسهم، وإذا وجد عالم فكر بنفسه، واستقل بعلمه، ووصل إلى اجتهاد مصيب أو مخطئ: أوسعوه ذما وتجريحا، وصبوا عليه جام غضبهم، ورموه بسموم سهامهم، وربما سقط جريحا أو قتيلا[1].

دعاة التغريب مقلدون:

وكما عاب الشيخ تقليد السلف في غير محله؛ عاب كذلك التقليد على

---

(١) انظر: خطابنا الإسلامي في عصر العولمة ص ٧٤، ٧٥.

مقلدي دعاة الغرب فيقول: وفي مقابل هؤلاء نجد آخرين من المتغربين، باعوا عقولهم أيضاً أو تنازلوا عنها بغير ثمن لأئمتهم وشيوخهم في الغرب !

دعاة « الليبرالية » باعوا عقولهم لأئمة الليبراليين ! طالبين منا أن نتبعهم في الخير والشر ، والحلو والمر ، وما يحُمد وما يُعاب .

ودعاة « الماركسية » ـ التي هُزمت في عقر دارها ـ باعوا عقولهم لشيوخ الماركسية وأئمتها ، وطالبونا أن نتخذ فلسفتها مصدراً للهداية والتشريع .

وكل دعاة الأيديولوجيات والفلسفات الوضعية المختلفة باعوا لها عقولهم ، ودعونا أن نلغي عقولنا معهم ، لنتبع مناهجهم وأهدافهم شبراً بشبر ، ولم يحاول هؤلاء ولا أولئك أن يحرروا عقولهم من التبعية ، وأن يمتحنوا مذاهب أئمتهم ، وأفكار سادتهم وكبرائهم ، ويعرضونها على قواطع العقل ، وثوابت الوحي ، ليعرف صحيحها من زيفها ، وجيدها من رديئها ، وحقها من باطلها ، فيهتدوا بالحق ، ويعرضوا عن الضلال .. « فماذا بعد الحق إلا الضلال »؟

ولا يجوز للغرباء أن يتحكموا في أهل الدار ، ولا ينبغي للأموات أن يحكموا الأحياء، وأن يفتوا في أخص أمورهم ، وهم في بطون قبورهم ! (١)

الاجتهاد الذي يريده القرضاوي في العصر الحديث :

والاجتهاد الذي ينادي به الشيخ في عصرنا الحاضر ليس معناه أن يبدأ الناس من الصفر طارحين وراءهم جهد السابقين ، وعلم المتقدمين ، فهذا يعد هدماً لا اجتهاداً وتبديداً لا تجديداً ، وهؤلاء رد عليهم الشيخ بقوله : بعض الناس المغالين يكادون ينادون بإطراح الفقه الذي أنتجته العقول الإسلامية خلال العصور ، ويطالبون بالعودة إلى الشريعة نفسها ويشبهون الفقه التاريخي في مختلف المذاهب بأثواب فصلت وخيطت وأخذت أشكالاً محددة؛ في حين أن الشريعة هي القماش الطويل العريض الذي يصلح لكل لابس بأن يأخذ منه ويفصل على قده . بدل عملية التصليح والتعديل في القديم ، وهذا الرأي في الواقع غير عملي وغير ممكن وغير مفيد .

---

(١) انظر : الحياة الربانية والعلم ص ١٢٦ .

فالعلم إنما ينمو ويتكامل بإضافة اللاحقين إلى ما بناه السابقون، لا بهدمه أو بتركه جملة، وهذه الإضافة قد تتخذ شكل التهذيب والتنقيح ، أو الانتقاء والترجيح، أو التجديد والتكميل، أو التصحيح والتعديل، وهذا صادق في كل العلوم الكونية والإنسانية والدينية[١].

وإذا كنا نرى تأكيد الشيخ على الموروث الفقهي ، وإعلاء قيمته ، بل والتشدد على إظهار محاسنه ، فإن الشيخ يقصد من الاجتهاد ثلاثة أمور ، ذكرها في كثير من كتاباته ويجملها بقوله :

أولاً : إعادة النظر في تراثنا الفقهي العظيم بمختلف مذاهبه ومدارسه وأقواله المعتبرة في شتى الأعصار ، لاختيار أرجح الأقوال فيه وأليقها بتحقيق مقاصد الشريعة، وإقامة مصالح الأمة في عصرنا، في ضوء ما وجد من ظروف وأوضاع .

ثانياً : العودة إلى المنابع : أعني إلى النصوص الثابتة، والتفقه فيها على ضوء المقاصد العامة للشريعة .

ثالثاً : الاجتهاد في المسائل والأوضاع الجديدة التي لم يعرفها فقهاؤنا الماضون، ولم يصدروا في مثلها حكماً؛ وذلك لاستنباط حكم مناسب لها في ضوء الأدلة الشرعية[٢].

صور من الاجتهاد في عصرنا الحاضر كما يراها القرضاوي :

وأمام ضغوط الحضارة الوافدة على شعوبنا العربية والإسلامية ، يوجب الشيخ على أهل الفقه أن يجتهدوا للناس في هذا العصر بما يلائم ضرورات العصر وحاجاته، مما يدفع الفقيه المجتهد إلى التيسير والتخفيف في الأحكام الفرعية العملية ، دون المساس بالثوابت من العقائد والعبادات والأخلاق[٣] .

ومن هنا فقد حدد الشيخ صور الاجتهاد في العصر الحاضر في ثلاث صور هي :

(١، ٢) انظر : شريعة الإسلام ص ١٠٨ ، ومدخل لدراسة الشريعة ص ٢٧٥ .

(٣) انظر : خصيصة « التيسير لا التعسير » من هذا الكتاب.

١ ـ صورة التقنين . وهذا النوع من الاجتهاد لا يعدو أن يكون اجتهاداً انتقائياً، لكنه يوضع في صورة مقننة، وكانت بداية التقنيين في العصر الحديث فيما عرف بمجلة «الأحكام العدلية» والتي التزمت بالمذهب الحنفي، لكنها خرجت منه إلى غيره في بعض الأقوال[١] .

٢ ـ صورة الفتوى . ويقصد بهذا النوع من إصدار الفتوى في المسائل المعروضة على ذوي التخصص، سواء كان ذلك من جهات رسمية كما هو الحال في دار الإفتاء بمصر، ولجنة الفتوى بالأزهر، ورئاسة الإفتاء بالمملكة العربية السعودية، أو كانت الفتاوى لبعض المجلات الإسلامية كمجلة « المنار»، أو فتاوى مجلة «الأزهر» و«الوعي الإسلامي» وغيرها، أو كانت الفتاوى لبعض العلماء المرموقين كفتاوى الشيخ شلتوت، والشيخ حسنين مخلوف[٢].

٣ ـ صورة البحث . وهو مجال البحث والدراسة، وهو يشمل ما يؤلف من كتب علمية أصيلة لذوي الاختصاص والقدرة من العلماء، وما يقدم من بحوث ودراسات جادة في المؤتمرات العلمية المتخصصة، وما يقدم من رسائل وأطروحات في أقسام الدراسات العليا، بالجامعات للحصول على درجة الماجستير أو الدكتوراة، وما يقدمه أساتذة الجامعات من إنتاج علمي للترقي في سلم الدرجات العلمية[٣] .

مزالق الاجتهاد المعاصر كما يراها القرضاوي:

وإذا كان الشيخ من دعاة الاجتهاد فإنه كان وما زال يدق ناقوس الخطر على كل اجتهاد لا يقع من أهله ، أو يقع من أهله في غير محله ، ومن ثم فقد أوضح الشيخ المزالق التي يقع فيها المجتهد المعاصر حين يخطأ المجتهد أولا يستفرغ طاقته وجهده في استنباط الحكم المقصود ، أو يقع فيها من تصدي للاجتهاد دون أن يكون من أهله، وأهم هذه المزالق كما يراها الشيخ :

١ ـ الغفلة عن النصوص : ويعني الشيخ بذلك أن يغفل المجتهد أو مدعي

---

(١) انظر : الاجتهاد المعاصر ص٤١ .

(٢، ٣) انظر : المرجع السابق ص٤٤ ، ٤٥ .

الاجتهاد عما ورد في المسألة من نص قرآني أو نص نبوي ، أو أن يترك النص المعصوم إلى رأي راءٍ أو قول قائل .

وقد ضرب الشيخ مثلاً على الغفلة عن النصوص بما صدر من المحكمة الشرعية العليا في البحرين بجواز التبني للقطاء قياساً على جواز الاستلحاق ، غافلين عن النص القاطع في سورة الأحزاب ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٥] ، وكفى أصحاب الفتوى أن يقيسوا التبني على جواز الاستلحاق لما كان من زواج سري أو نكاح فيه خلاف أو وطء بشبهة ، أو ولد زنا، أو غير ذلك [١].

٢ ـ سوء فهم النصوص أو تحريفها عن موضعها : ويعني الشيخ بذلك إنزال النصوص في غير موضعها كأن يخصص ما حقه التعميم ، أو يقيد ما حقه الإطلاق ، أو يقطع الدليل عن سابقه ، وقد ضرب الشيخ مثلاً لذلك بمحاولة البعض الاجتهاد في صرف آيات الحدود إلى الإباحة لا الوجوب فيكون الأمر في قوله تعالى «فاجلدوا» و«فاقطعوا» المتعلقان بالزنا والسرقة يكون الأمر فيهما للإباحة لا للوجوب [٢].

٣ ـ الإعراض عن الإجماع المتيقن : ويؤكد الشيخ لفظة «الإجماع» بالمتيقن خروجاً من دواعي الإجماع التي يظهر فيها الخلاف ، ومن مظاهر الإعراض عن الإجماع المتيقن دعوى البعض بجواز زواج المسلمة من الكتابي [٣].

٤ ـ القياس في غير موضعه : ويعني به الشيخ القياس الفاسد ، والذي يقيس فيه صاحبه النص الفقهي على الظني ، وقياس الأمور التعبدية المحضة على العادات ، وقد ضرب الشيخ لذلك مثلاً بمحاولة إباحة الربا بين الحكومة والشعب استدلالاً بالقياس على أنه «لا ربا بين الوالد وولده» [٤].

٥ ـ الغفلة عن واقع العصر : ويعني الشيخ بذلك أن يغفل مدعي الاجتهاد

---

(١) لمراجعة هذه المسألة ورد الشيخ عليها انظر : الاجتهاد المعاصر ص ٤٧ ـ ٥٠ .

(٢) لمراجعة هذه المسألة ورد الشيخ عليها انظر : الاجتهاد المعاصر ص ٥٣ ـ ٥٧ .

(٣) انظر : الاجتهاد المعاصر ص ٥٨ وما بعدها .

(٤) انظر : المرجع السابق ص ٦٢ ، ٦٣ .

عن واقع عصره الذي يعيش فيه ، أو عدم إلمامه بثقافة عصرهم ، أو لكونهم يعيشون في معزل عن حياة الناس وضرب الشيخ مثلاً لذلك بمن حرموا المجازر الآلية وأوجبوا أن يكون الذبح باليد والسكين[1] .

٦ ـ الغلو في اعتبار المصلحة ولو على حساب النص : وهذا المزلق من أكثر المزالق التي يقع فيها مدعو الاجتهاد قبل أن ترسخ أقدامهم في العلم ، فيدعون المصلحة في كل شيء ، حتى ولو عارضت المصلحة نصاً واضحاً ، كمن أباحوا الربا من أجل المصلحة ، ومن أراد نقل صلاة الجمعة إلى يوم الأحد من أجل المصلحة ، ومن منع الصيام من أجل المصلحة ، وتحريم التعدد من أجل المصلحة[2].

الضوابط الأساسية للاجتهاد المعاصر كما يراها القرضاوي :

وخوفاً من أن يقع المجتهد المعاصر في مزلق من المزالق التي بيناها سابقاً فقد وضع الشيخ عدداً من المعالم والضوابط التي تسهم بشكل فعال في ضبط ما يعرض للناس من مسائل تحتاج إلى بذل الجهد وإعمال العقل للخروج بما يناسب من اجتهاد سليم وأهم هذه الضوابط :

١ ـ لا اجتهاد بغير استفراغ الوسع ، وهذا معناه : بذل أقصى الجهد في تتبع الأدلة والبحث عنها في مظانها وبيان منزلتها إذا تعارضت ، وهذا يقطع الباب على المتسرعين في الفتوى .

٢ ـ لا محل للاجتهاد في المسائل القطعية ، وهذا يعني غلق الباب في المسائل التي ثبتت بدلالة القرآن القاطعة كفريضة الصيام وحرمة الخمر والزنا .

٣ ـ لا يجوز جعل الظنيات قطعيات ، وهذا الضابط مكمل للسابق ، فكما لا يجوز اختراق القطعيات فلا يجوز تحويل الظني إلى قطعي .

٤ ـ الوصل بين الفقه والحديث ، وذلك حتى تزول الفجوة بين المدرستين الفقهية والحديثية .

٥ ـ الحذر من الوقوع تحت ضغط الواقع ، لأن هذا الواقع لم يصنعه

(١، ٢) انظر : المرجع السابق ص ٦٣ ـ ٨٦.

المسلمون بإرادتهم وعقولهم وأيديهم ، إنما هو صنع لهم وفرض عليهم ، فليس معنى الاجتهاد أن تحاول تبرير الواقع على ما به، وجر النصوص لتأييده .

٦ ـ الترحيب بالجديد النافع ، مع التفريق بين ما يحسن اقتباسه وما لا يحسن ، والتمييز بين ما يلزم فيه الثبات والتشدد، وما تقبل فيه المرونة والتطور.

٧ ـ ألا نغفل روح العصر وحاجاته ، لأننا نعيش في القرن الخامس عشر لا العاشر، ولنا حاجتنا ومشكلاتنا التي لم تعرض لمن قبلنا من سلف الأمة ، وأننا مطالبون بأن نجتهد لأنفسنا ، لا أن يجتهد لنا قوم ماتوا قبلنا بعدة قرون .

٨ ـ الانتقال إلى الاجتهاد الجماعي ، وهذا يعني إنشاء مجمع علمي إسلامي عالمي يضم الكفاءات العليا من الفقهاء المسلمين دون نظر إلى إقليمية أو مذهبية ، أو جنسية وإنما يرشح الشخص لعضوية هذا المجمع فقهه وورعه ؛ لا ولاؤه لهذه الحكومة أو ذاك النظام ، وهذا لا يلغي الاجتهاد الفردي أيضاً بل يظل قائماً .

٩ ـ أن نفسح صدورنا لخطأ المجتهد إذ لا عصمة لغير نبي ، لأن التشنيع بالخطأ يقتل روح الاجتهاد[1] .

هل وصل الشيخ القرضاوي إلى درجة الاجتهاد :

خلود هذا الدين يحتم تحتيماً واجباً عدم خلو أي عصر من مجتهد تقوم به الحجة على خلق الله ، موضحاً لهم ما يجد لهم من أقضيات في أمور الدين ، وقد ذكرت سابقاً قول الأثبات من العلماء والمحققين من الفقهاء والأصوليين؛ الذين قالوا بعدم جواز خلو أي عصر من مجتهد، ليسقط فرض الكفاية عن الأمة في استنباط أحكام الشرع في الطارئ الجديد من أحداث الناس .

وقد ذكر الشيخ القرضاوي بأن منطق التاريخ يثبت عدم خلو أي عصر من مجتهد أو أكثر ، وأكد الشيخ بأن هذه حقيقة واضحة كالشمس في ضحى

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٩٢ ـ ١٠٠ باختصار ، ومدخل لدراسة الشريعة ص ٢٧٨ وما بعدها باختصار .

النهار لكل دارس لتراث الأمة، مطلع على تاريخ فقهائها من مختلف الأقطار بعد الأئمة الأربعة، وقد نقل الشيخ عن الإمام السيوطي من هؤلاء: المزني، وأبو ثور، وأبو بكر بن المنذر، وعبدان المروزي ، وأبو بكر بن خزيمة، وابن جرير الطبري ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وقاسم بن محمد، والبغوي ، وأبو الوفاء بن عقيل ، والجويني ، وابن خويز منداد ، وأبو بكر بن العربي ، والعز بن عبد السلام ، والنووي ، وابن المنير ، وابن دقيق العيد ، ونجم الدين بن الرفعة ، والكمال بن الزملكاني ، وابن تيمية ، وتقي الدين السبكي ، وجمال الدين الأسنوي ، وشمس الدين محمد بن يوسف القونوي ، وسراج الدين البلقيني ، ومجد الدين الشيرازي .

ثم أضاف الشيخ القرضاوي إلى السابقين أئمة مجتهدين منهم : أبو جعفر الطحاوي، والكمال بن الهمام ، ومحمد بن حزم ، وشهاب الدين القرافي ، والشاطبي، وابن قيم الجوزية ، والسيوطي ، والدهلوي ، والصنعاني ، والشوكاني [1].

هذا وقد وقف الشيخ القرضاوي في تعداد المجتهدين عند الإمام الشوكاني، المتوفى عام ١٢٥٠ هـ ، ولم يذكر أحداً بعده ، ولست أدري لماذا وقف الشيخ عند هذا الحد ، فهل خلا القرنين الماضيين من المجتهدين أم ماذا ؟

والحق أن هذه الفترة لم تخل من أهل الاجتهاد وذوي التجديد ، بل كانت فترة عامرة بالأئمة المجتهدين والمجددين ، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه الآن هل وصل الشيخ القرضاوي إلى مرتبة الاجتهاد ؟

إن كثيراً من دعاة الصحوة ورجالاتها يعدون الشيخ فقيهاً مؤثراً ، حتى عداة الشيخ ومخالفيه يقرون له بذلك ، ومن أقوال مشاهير الدعاة التي تشهد له بالملكة الفقهية ، والتجديد في الفكر ، والاجتهاد في الفقه ما قاله الغزالي : القرضاوي من أئمة العصر .

وهذا ما يؤكده الدكتور علي القرة داغي من خلال دراسته لكتاب فقه الزكاة ، ومن خلال هذه الدراسة يؤكد القرة داغي وصول الشيخ القرضاوي إلى

---

(١) انظر : كيف نتعامل مع التراث ص ١١٠ وما بعدها .

منزلة الاجتهاد قائلاً: من خلال دراستي لكتاب فقه الزكاة ، وكتب الشيخ الأخرى نستطيع القول بأن الشيخ قد وصل إلى مرتبة الاجتهاد ولا سيما الاجتهاد الجزئي[١] .

ويقول : وعلى ضوء ذلك فباب الاجتهاد مفتوح بهذا المعنى لأهله المتصفين بشروطه وأحسب الشيخ القرضاوي منهم[٢] .

اجتهادات القرضاوي:

وإذا أقررنا بأن الشيخ القرضاوي فقيه مجتهد ، فإننا نؤكد بأن اجتهادات الشيخ كانت على نوعين :

١ ـ اجتهاد ترجيحي انتقائي .

٢ ـ اجتهاد إبداعي إنشائي .

(١) الاجتهاد الترجيحي الانتقائي عند القرضاوي :

هذا النوع من الاجتهاد ليس لمسائل جدَّت ، أو أقضيات استُحْدِثَت ، ولكنه اجتهاد في مسائل قديمة متجددة ، تعددت فيها الأقوال ، وتباينت فيها الآراء ، وجدت فيها ظروف وأحوال ، وأزمان وأعراف ، وأماكن وأشخاص ، وهذا النوع من الاجتهاد يقول عنه الشيخ القرضاوي : هو اختيار أرجح الأقوال من تراثنا الفقهي العظيم مما نراه أقرب إلى تحقيق مقاصد الشرع ومصالح الخلق ، وأليق بظروف العصر[٣] .

ويقول حفظه الله موضحاً هذا النوع من الاجتهاد : إنما الذي ندعو إليه أن نوازن بين الأقوال بعضها وبعض ، ونراجع ما استندت إليه من أدلة نصية أو اجتهادية ، لنختار في النهاية ما نراه :

١ ـ أقوى حجة ٢ ـ وأرجح دليلاً .

وفق معايير الترجيح وهي كثير ومنها أن يكون القول :

١ – أليق بأهل زماننا . ٢ – أرفق بالناس .

---

(١) انظر : فقه القرضاوي في الزكاة د :علي القرة داغي ص ٣٩ .

(٢) انظر : المرجع السابق د: علي القرة داغي ص ٤١ .

(٣) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ٤٩ .

٣ – أقرب إلى يسر الشريعة .

٤ – أولى بتحقيق مقاصد الشرع ومصالح الخلق ودرء المفاسد[١] .

ويؤكد الشيخ ضرورة هذا الاجتهاد قائلاً : ولا بد للفقيه أن يختار من هذه الآراء المذكورة رأياً يرجحه ولا يدع الناس في حيرة بين الرأي وضده [٢].

والشيخ حين يرى ضرورة هذا النوع من الاجتهاد ـ الانتقائي الترجيحي ـ فإنه لا يقصر أمر الترجيح والانتقاء على المذاهب الأربعة ، يقول الشيخ : وفي دائرة الانتقاء يجوز لنا الخروج على المذاهب الأربعة ، لاختيار رأي قال به أحد فقهاء الصحابة أو التابعين ، أو من بعدهم من أئمة السلف .

ومن الخطأ الظن بأن رأي أمثال عمر وعلي وعائشة وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وزيد بن ثابت ومعاذ وغيرهم من علماء الصحابة ، أو رأي مثل ابن المسيب والفقهاء السبعة وابن جبير ، وطاوس وعطاء والحسن وابن سيرين والزهري والنخعي أو مثل الليث بن سعد والأوزاعي والثوري والطبري وغيرهم دون رأي الأئمة المتبوعين [٣].

الأسباب المؤثرة في الاجتهاد الترجيحي الانتقائي عند القرضاوي :

وقد وضع الشيخ القرضاوي عدة أسباب تؤثر في الاختيار والانتقاء والترجيح ينبغي أن تراعى في هذا النوع من الاجتهاد وهي :

١ – التغيرات الاجتماعية والسياسية والمحلية .

٢ – معارف العصر وعلومه .

٣ – ضرورات العصر وحاجاته [٤].

مثال من اجتهادات الشيخ الترجيحية :

ومن اجتهادات الشيخ الترجيحية نسوق هذه الفتوى « بنوك اللبن » :

السؤال : الطفل الوليد الخديج الذي ولد قبل أوانه .. قد يدعو الأمر

(١، ٢) انظر : الاجتهاد في الشريعة الإسلامية ص ١٤٣ بتصرف ، والاجتهاد المعاصر ص٢٠٤ بتصرف .

(٣، ٤) انظر : الاجتهاد المعاصر ص ٢٣ وما بعدها .

لعزله تمامًا في حاضنة صناعية لفترة قد تطول حتى يفيض حليب أمه من ثديها.

ثم يتقدم رويداً لدرجة لم تزل حرجة ولكن تسمح له بتلقي الحليب، ومعروف أن أنسب الحليب وأرفقه به هو الحليب البشرى . .

وقد درجت بعض المؤسسات على أن تستوعب الوالدات المرضعات بعضاً من حليبهن . . «تسخو كل بما تشاء، ويجمع ذلك ويعقم، ثم يكون في خدمة هؤلاء المواليد المبتسرين في هذا الدور الحرج الذي قد تضرهم فيه أنواع الحليب الأخرى».

فالذي يحدث أنه يستعمل خليط من حليب عشرات الأمهات بل مئاتهن . . وعليه يتغذى غير مواليدهن عشرات بل مئات من المواليد الخدج ذكرانًا وإناثًا . . على غير معرفة في الحال والاستقبال . ولكن يتم ذلك دون لقاء مباشر أي دون مص الثدي.

فهل هذه أخوة شرعية من الرضاع ؟ وهل يحرم حليب البنوك رغم مساهمته في إحياء النفوس؟

فإن كان مباحًا حلالاً فما مسوغات الإباحة؟ تُرى هل هي عدم مص الثدي؟ أم عدم إمكان التعرف على أخوات الرضاع؛ وهن في مجتمع بذاته يمثلن القلة بين الكثرة ؟

القلة التي تذوب ولا يمكن تتبعها أو الاستدلال عليها ؟

وقد استفاض الشيخ فى الإجابة عن هذا السؤال ثم قال:

والخلاصة: أننا لا نجد هنا ما يمنع من إقامة هذا النوع من «بنوك الحليب»، ما دام يحقق مصلحة شرعية معتبرة، ويدفع حاجة يجب دفعها. آخذين بقول من ذكرنا من الفقهاء، مؤيداً بما ذكرنا من أدلة وترجيحات.

وقد يقول بعض الناس: ولماذا لا نأخذ بالأحوط، ونخرج عن الخلاف، والآخذ بالأحوط هو الأورع والأبعد عن الشبهات.

وأقول: عندما يعمل المرء في خاصة نفسه، فلا بأس أن يأخذ بالأحوط والأورع، بل قد يرتقي فيدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس.

ولكن عندما يتعلق الأمر بالعموم، وبمصلحة اجتماعية معتبرة، فالأولى بأهل الفتوى أن ييسروا ولا يعسروا، دون تجاوز للنصوص المحكمة، أو القواعد الثابتة.

ولهذا جعل الفقهاء من موجبات التخفيف: عموم البلوى بالشيء مراعاة لحال الناس ورفقاً بهم، هذا بالإضافة إلى أن عصرنا الحاضر خاصة أحوج ما يكون إلى التيسير والرفق بأهله[1].

(٢) الاجتهاد الإنشائي عند القرضاوي :

وأما الاجتهاد الإنشائي فهو: إنشاء حكم لمسائل جديدة جدت، وأقضيات استحدثت، ووقائع لم تكن من قبل، أو هو كما يقول الشيخ: استنباط حكم جديد في مسألة من المسائل لم يقل بها أحد من السابقين، سواء كانت المسألة قديمة أو جديدة[2].

مثال من اجتهاد الشيخ الإنشائي برأي جديد في مسألة قديمة :

زكاة الأرض المستأجرة : ذكر الشيخ آراء الفقهاء في المسألة وحصرها في قولين:

الأول : وهو قول أبي حنيفة وروي عن إبراهيم النخعي : وفيه وجوب العشر على المالك لأن العشر حق الأرض لا حق الزرع .

الثاني: وهو قول الجمهور: وفيه وجوب العشر على المستأجر ، لأن العشر حق الزرع لا حق الأرض .

وبعد مراجعة للأدلة وتمحيص للآراء ، ونظر في القولين أنشأ الشيخ رأياً ثالثاً لم يسبق إليه ؛ وهو اشتراك الطرفين في الزكاة ، فيزكي المستأجر الزرع والثمر الذي يحصل عليه من الأرض، شريطة أن يبلغ النصاب وبعد خصم أجرة الأرض، ويزكي المالك ما قبض من الأجرة شريطة أن يبلغ النصاب أيضاً .

وبهذه المساهمة العادلة من المالك والمستأجر نكون قد أخذنا بأحسن ما قال أبو حنيفة، وأحسن ما قال الجمهور ، وأوجبنا على كل من الطرفين ـ المالك والزارع ـ ما هو أحق به وما هو مالك له ، مع تفادي ازدواج الزكاة الواجبة ،

---

(١) انظر: فتاوى معاصرة ج٢ص ٥٥٠ - ٥٥٦.

(٢) انظر: الاجتهاد في الشريعة الإسلامية ص ١٥٦، وانظر: الاجتهاد المعاصر ص ٣٢، ٣٣.

وتكررها في مال واحد ، فإن القدر الذي زكى عنه المالك قد طرح ما يعادله من نصيب المستأجر[1].

مثال من اجتهاد الشيخ الإنشائي في مسألة جديدة :

من هذا النوع الاجتهادي الإنشائي ما أفتى به الشيخ في ما يسمى بزرع الأعضاء وهو سؤال مركب من عدة أسئلة وهذا نص السؤال.

السؤال : هل يجوز للمسلم أن يتبرع بعضو أو جزء من بدنه لغيره في حياته لزرعه في بدن شخص آخر؟

وإذا كان الجواب بالإيجاب، فهل هو جواز مطلق أو هو مقيد بشروط؟ وما هي تلك الشروط؟

وإذا جاز التبرع فلمن يتبرع؟ ألقريب فقط؟ أم للمسلم فحسب؟ أم لأي إنسان؟

وإذا جاز التبرع فهل يجوز البيع؟

وهل يجوز التبرع بعضو بعد الموت؟ أو يتنافى ذلك مع حرمة الميت؟

وهل ذلك من حق الإنسان وحده؟ أو يحق لأهله التبرع بعضو من بدنه؟

وهل يجوز للدولة أن تأخذ بعض الأعضاء من المصابين في الحوادث مثلا لإنقاذ غيرهم؟

وهل يجوز زرع جزء من غير مسلم في جسد إنسان مسلم؟

وهل يجوز زرع عضو أو جزء من حيوان ولو كان محكومًا بنجاسته كالخنزير مثلا في جسم شخص مسلم؟

تساؤلات جمة أصبحت تفرض نفسها على الفقه الإسلامي ورجاله ومجامعه في الوقت الحاضر.

ولابد من الإجابة بالإجازة بإطلاق أو المنع بإطلاق، أو التفصيل.

فلنحاول الإجابة وبالله التوفيق، وقد أطال الشيخ النفس في إجابة هذه الفتوى[2].

---

(١) انظر : فقه الزكاة ج١ ص ٤٢٩ ، ٤٣١ ، والاجتهاد المعاصر ص ٣٣ .

(٢) انظر: فتاوى معاصرة ج ٢ ص ٥٥٣٠ - ٥٤٠ .

المبحث الثاني عشر

الواقعيـــة

قالوا قديماً : من سعادة جدك وقوفك عند حدك ؛ وهذه هي الواقعية بعينها، وهذه اللفظة بهذا المبنى من الألفاظ المحدثة ، وقد شاع في الآونة الأخيرة مذهب في الفلسفة يحمل هذا الاسم ، يعتمد فيه أصحابه على الأشياء المادية ، منكرين كل ما لم يقع عليه الحس .

واقعية الإسلام :

بيد أن هذه اللفظة استخدمت كذلك في مصطلح الإسلاميين ، لأنها في حد ذاتها تمثل خصيصة من أهم خصائص الإسلام ، ويقصد بها كما يقول القرضاوي : مراعاة واقع الكون من حيث هو حقيقة واقعية ، ووجود مشاهد ، ولكنه يدل على حقيقة أكبر منه ، ووجود أسبق وأبقى من وجوده هو ، وهو وجود الواجب لذاته ، وهو وجود الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً [١].

هذه الواقعية هي الواقعية الوسط التي سلمت من إفراط غلاة المثاليين ، ومن تفريط غلاة الواقعيين[٢] .

والحق أن القرضاوي حين كتب عن الواقعية ، ومارس حياته الدعوية بواقعية، إنما كان يقتبس من واقعية الإسلام .

واقعية الإسلام في عقيدته التي تؤمن بإله واحد ، ورسول خاتم ، وكتاب مصون ، ويوم موعود يحكم فيه إله عادل ، فيجازي المحسن بإحسانه جنة ونعيماً، والمسيىء بإساءته ناراً وجحيماً [٣].

(١، ٢) انظر : الخصائص العامة للإسلام ص ١٤٤، ١٤٥ .

(٣) انظر : المرجع السابق ص ١٤٨ ـ ١٥٠ بتصرف .

كما أنه – أي الإسلام – واقعي في عبادته التي تروي ظمأ الإنسان الروحي وتشبع نهمه ، بدون تكلف أو عنت ، لأن هذه العبادات راعت :

١ – واقع الحياة وظروفها الأسرية والاجتماعية والاقتصادية .

٢ – الملل الذي يطرأ على الإنسان فتنوعت العبادات وتلونت .

٣ – الظروف الطارئة كالسفر والمرض فشرعت الرخص والتخفيفات[١] .

كما أنها واقعية في الأخلاق حيث اعترفت :

١ – بالضعف البشري .

٢ – بالدوافع البشرية .

٣ – بالحاجات البشرية المادية والنفسية .

ولذلك رفضت واقعية الإسلام إدارة الخد الأيسر بعد ضرب الخد الأيمن كما قالت النصرانية ؛ وإنما جاء في القرآن ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠] ، وهذا هو الموافق للفطرة والواقعية ، وقد عبر عنه الشاعر بقوله:

لئن كنت محتاجاً إلى الحلم إنني ... إلى الجهل في بعض الأحايين أحوج
ولي فرس للحلم بالحلم ملجم ... ولي فرس للجهل بالجهل مسرج
فمن رام تقويمي فإنني مقوم ... ومن رام تعويجي فإن معوج
وما كنت أرضى بالجهل خدنا وصاحباً ... ولكنني أوصي به حين أحرج[٢]

كما أنها واقعية في الشريعة حيث إنها :

١ – لم تحرم شيئاً يحتاج إليه الإنسان في واقع حياته .

٢ – أنها قدرت الضرورات التي تعرض للإنسان .

٣ – أنها راعت قوة الدوافع الجنسية فشرعت إشباع الدافع الجنسي بطريقة نظيفة وذلك بشرعية الزواج ، ومن ثم شرعت تعدد الزوجات .

٤ – أنها أباحت الطلاق عند تعذر الوفاق بين الزوجين[٣] .

(١، ٢) انظر : المرجع السابق ص ١٥٠-١٥٣ بتصرف .

(٣) انظر : المرجع السابق ص ١٥٦-١٦٢ بتصرف .

والحق أن الواقعية يكون معناها : تقديم ما حقه التقديم ، وتأخير ما حقه التأخير، وإظهار ما حقه الظهور ، وإخفاء ما حقه الخفاء ، إنها شغل الناس بما يعود عليهم بالنفع، ويدرء عنهم الضر ، إنها الانشغال بالواقع الحاصل بعيداً عن المفترض المستحيل، إنها الوقوف على أرض الواقع بعيداً عن الوهم والخيال .

إنها كما يقول القرضاوي : أن نوازن بين طموحاتنا وإمكاناتنا ، بين ما نصبوا إليه وما نقدر عليه ، فلا نورط أنفسنا في أمور لم نعد لها العدة ولم نهيئ لها الوسائل اللازمة[1].

أدلة الواقعية من الكتاب والسنة :

والمتأمل لآيات القرآن وأحاديث المصطفي ﷺ يرى أن كليهما قد أخذ بيد المسلمين وقت التنزيل ليعيشوا بالواقعية بعيداً عن الخيال، والانشغال بما لا فائدة منه؛ ومن ذلك :

١ ـ قوله تعالى ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ** ﴾ ذكر الإمام القرطبي في سبب نزولها : قال معاذ : يا رسول الله إن اليهود تغشانا ويكثرون مسألتنا عن الأهلة، فما بال الهلال يبدو دقيقا ثم يزيد حتى يستوي ويستدير ثم ينتقص حتى يعود كما كان ؟ فأنزل الله هذه الآية .

وقيل إن سبب نزولها سؤال قوم من المسلمين النبي ﷺ عن الهلال وما سبب محاقه، وكماله، ومخالفته لحال الشمس. قاله ابن عباس وقتادة والربيع وغيرهم[2] .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُم** ﴾ [المائدة: ١٠١] . جاء في سبب نزولها: عن أنس بن مالك قال : بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيئاً فخطب فقال : عرضت علي الجنة والنار فلم أر كاليوم في الخير والشر ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً. قال : فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشد منه . قال : غطوا رؤوسهم ولهم خنين . قال : فقام عمر فقال : رضينا بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً.

---

(١) انظر : أولويات الحركة الإسلامية ص ٩١ .

(٢) انظر : أحكام القرآن القرطبي ج ٢ ص٣٤١ .

قال : فقام ذاك الرجل فقال : من أبي؟ قال : «أبوك فلان» فنزلت ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ ﴾ [المائدة: ١٠١](١).

٣ ـ قوله ﷺ لسراقة بن مالك بن جعشم حين قال : يا رسول الله أرأيت عمرتنا هذه لعامنا هذا أم للأبد ؟ فقال ﷺ : «لا بل للأبد» . فقال : يا رسول الله بين لنا ديننا كأنما خلقنا الآن أرأيت العمل الذي نعمل به؛ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم مما نستقبل ؟ فقال ﷺ : «لا بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير. فقال رسول الله ﷺ : اعملوا فكل ميسر لما خلق له»(٢).

٤ ـ قوله ﷺ للسائل عن الساعة «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»(٣).

٥ ـ حديث ابن عمر قال : خرج رسول الله ﷺ في بعض أسفاره فسار ليلاً فمروا على رجل جالس عند مقراة له. فقال له عمر: يا صاحب المقراة أولغت السباع الليلة في مقراتك؟ فقال له النبي ﷺ : «يا صاحب المقراة لا تخبره، هذا متكلف، لها ما حملت في بطونها ولنا ما بقي شراب طهور»(٤) .

٦ ـ حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «لا يزال الناس يسألونكم عن العلم حتى يقولوا : هذا الله خلقنا فمن خلق الله ؟ قال : وهو آخذ بيد رجل فقال: صدق الله ورسوله قد سألني اثنان وهذا الثالث، أو قال: سألني واحد وهذا الثاني»(٥) .

ويعلق الشيخ القرضاوي على الأسئلة التي سجلها القرآن للمسلمين قائلاً : وسائر الأسئلة التي سجلها القرآن للمسلمين في عصر النبوة كانت أسئلة واقعية تتصل بصميم حياتهم، لا بأخيلة وافتراضات وأغلوطات يدفع إليها حب التسلية وتزجية الفراغ ، أو التعالم الأجوف ، أو التعنت وتعجيز الغير ، أو نحو ذلك من البواعث الرخيصة التي لا وزن لها في دين ولا أخلاق(٦) .

---

(١) متفق عليه. رواه البخاري في الفتن برقم (٧٠٨٩) ومسلم في الفضائل برقم (٢٣٥٩) عن أنس.
(٢) رواه مسلم في القدر (٧٠٨٩) عن سراقة بن مالك
(٣) رواه مسلم في الإيمان رقم (١٠) عن عمر .
(٤) رواه الدارقطني في السنن (٢٦١) ، وضعفه الألباني في تمام المنة رقم (٤٨) .
(٥) رواه مسلم في الإيمان (١٣٥) عن أبي هريرة.
(٦) انظر : الفتوى بين الانضباط والتسيب ص ٤٦ .

الواقعية عند الصحابة و التابعين :

والواقعية التي اعتنى بها الشيخ القرضاوي وظهرت سمة من سمات منهجه؛ هي هي الواقعية التي تعامل بها الصحابة المكرمون والتابعون الربانيون مع الناس فيما سالوا عنه لمجرد السؤال لا للعلم ، وللتعنت لا للتفقه ، ومن هذه المواقف :

١ ـ عن أنس بن مالك ﷺ : أن عمر بن الخطاب ﷺ قرأ على المنبر: ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس: ٣١]. فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها ، فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : لعمرك إن هذا لهو التكلف يا عمر(١).

٢ ـ عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب : أن عمر بن الخطاب ﷺ خرج في ركب فيهم عمرو بن العاص ﷺ حتى وردوا حوضاً فقال عمرو بن العاص ﷺ : يا صاحب الحوض هل ترد حوضك السباع ؟ فقال عمر ﷺ : يا صاحب الحوض لا تخبرنا فإنا نرد وترد علينا(٢).

٣ ـ لما قدم صبيغ بن عسل المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن ، فبلغ ذلك عمر ﷺ ، فبعث إليه فأحضره ؛ وقد أعد له عراجين من عراجين النخل ، فلما حضر قال له عمر ﷺ : من أنت ؟ قال : أنا عبد الله صبيغ . فقال عمر ﷺ : وأنا عبد الله عمر ، ثم قام إليه فضرب رأسه بعرجون فشجه ، ثم تابع ضربه حتى سال دمه على وجهه . فقال : حسبك يا أمير المؤمنين ، فقد والله ذهب ما كنت أجد في رأسي (٣).

٤ ـ سأل ابن الكواء علي بن أبي طالب عن ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً * فَالْحَامِلاتِ وِقْراً ﴾ [الذاريات: ١، ٢] . فقال علي : ويلك سل تفقهاً ولا تسل تعنتاً(٤).

ويؤكد هذا الإمام ابن رجب فيقول رحمه الله في كتابه « جامع العلوم والحكم» : ولهذا المعنى كان كثير من الصحابة والتابعين يكرهون السؤال عن الحوادث قبل وقوعها ، ولا يجيبون عن ذلك ، قال عمرو بن مرة : خرج عمر

---

(١) رواه سعيد بن منصور في سننه (١٨١١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٣٦٦)، وانظر: تفسير ابن كثير (٤٧٤٤).

(٢) رواه مالك في الموطأ (٢٣١) وقال الألباني في مشكاة المصابيح إسناده صحيح رقم (٤٦٥) .

(٣) انظر : الجامع لأحكام القرآن القرطبي ج٤ ص ١٤ .

(٤) انظر : المرجع السابق القرطبي ج١٧ ص ٢٩ .

على الناس فقال : أُحرِّج عليكم أن تسألونا عما لم يكن ، فإن لنا فيما كان شغلاً[١] .

وعن ابن عمر قال : لا تسألوا عما لم يكن ، فإني سمعت عمر لعن السائل عما لم يكن[٢] .

وكان زيد بن ثابت إذا سئل عن الشيء يقول : كان هذا ؟ فإن قالوا : لا ، قال : دعوه حتى يكون[٣] .

وقال مسروق : سألت أبيّ بن كعب عن شيء ، فقال : أكان بعد ؟ فقلت : لا ، فقال : أجمنا ـ يعني : أرحنا ـ حتى يكون ، فإذا كان اجتهدنا لك رأينا[٤] .

وقال الشعبي : سئل عمار عن مسألة فقال : هل كان هذا بعد ؟ قالوا : لا، قال : فدعونا حتى يكون ، فإذا كان تجشمناه لكم[٥] .

وعن الصلت بن راشد ، قال : سألت طاووساً عن شيء ، فانتهرني وقال : أكان هذا؟ قلت : نعم ، قال : آلله ؟ قلت : آلله . قال : إن أصحابنا أخبرونا عن معاذ بن جبل أنه قال : أيها الناس ، لا تعجلوا بالبلاء قبل نزوله ، لم ينفك المسلمون أن يكون فيهم من إذا سئل سدد، أو قال وفق[٦]، [٧] .

الواقعية عند الفقهاء المجددين والعلماء الربانيين :

١ ـ حين سئل عمر بن عبد العزيز عن قتال الصحابة قال : تلك دماء طهر الله يدي منها، فلا أحب أن أخضب بها لساني[٨]

٢ ـ وقال المحاسبي : فأما الدماء فقد أشكل علينا القول فيها باختلافهم ؛

---

(١) رواه الدارمي (١ / ٥٠) ورواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله» (٢ / ١٤١) .
(٢) رواه ابن عبد البر (٢ / ١٣٩ ، ١٤٢).
(٣) رواه الدارمي (١ / ٥٠) وابن عبد البر (٢ / ١٤٢) .
(٤) رواه الدارمي (١ / ٥٦) وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله» (٢ / ١٤٢) .
(٥) رواه الدارمي (١ / ٥٠) وذكره ابن حجر في «المطالب العالية» (٣ / ١٠٦) .
(٦) رواه الدارمي (١ / ٥٦) والآجري في « أخلاق العلماء » ص ١٢١ ـ ١٢٢ .
(٧) انظر جامع العلوم والحكم ابن رجب ج ١ ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ طبعة مؤسسة الرسالة الرابعة ١٩٩٣ م .
(٨) انظر : حلية الأولياء أبونعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ج ٩ ص١١٤ دار الكتاب العربي بيروت ط الرابعة ١٤٠٥ هـ .

وقد سئل الحسن البصري عن قتالهم فقال : شهده أصحاب محمد ﷺ وغبنا ، وعلموا وجهلنا ، واجتمعوا فاتبعنا ، واختلفوا فوقفنا ، قال المحاسبي : فنحن نقول كما قال الحسن ، ونعلم أن القوم كانوا أعلم بما دخلوا فيه منا ، ونتبع ما اجتمعوا عليه ، ونقف عند ما اختلفوا فيه ، ولا نبتدع رأياً منا ، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله عز وجل[1] .

٣ ـ سأل رجل أحمد بن حنبل عما جرى بين علي ومعاوية فأعرض عنه ، فقيل له : يا أبا عبد الله هو رجل من بني هاشم . فأقبل عليه فقال : اقرأ ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٢٤][2].

٤ ـ وهذا ما جعل الإمام الشاطبي يعدد أنواعاً عشرة يذم فيها السؤال وهي :

أحدها : السؤال عما لا ينفع في الدين : كسؤال عبد الله بن حذافة : من أبي؟[3] .

والثاني : أن يسأل بعد ما بلغ من العلم حاجته : كما سأل الرجل عن الحج أكل عام؟ مع أن قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ [آل عمران : ٩٧]. قاض بظاهره أنه للأبد .

والثالث : السؤال من غير احتياج إليه في الوقت : وكان هذا والله أعلم خاص بما لم ينزل فيه حكم وعليه يدل قوله ﷺ : « ذروني ما تركتكم »[4].

والرابع : أن يسأل عن صعاب المسائل وشرارها : كما جاء في النهي عن الأغلوطات[5].

---

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن القرطبي ج١٦ ص ٣٢٢ .

(٢) انظر : تاريخ بغداد أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي ج ٦ ص ٤٤ دار الكتب العلمية بيروت بدون .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) رواه مسلم في الحج برقم (١٣٣٧) عن أبي هريرة .

(٥) قال الأوزاعي : هي شداد المسائل .

والخامس : أن يسأل عن علة الحكم وهو من قبيل التعبدات التي لا يعقل لها معنى .

والسادس : أن يبلغ بالسؤال إلى حد التكلف والتعمق : ولما سأل الرجل يا صاحب الحوض هل ترد حوضك السباع ؟ قال عمر بن الخطاب : يا صاحب الحوض لا تخبرنا فإنا نرد على السباع وترد علينا[1] .

والسابع : أن يظهر من السؤال معارضة الكتاب والسنة بالرأي : ولذلك قيل لمالك بن أنس : الرجل يكون عالما بالسنة أيجادل عنها ؟ قال : لا . ولكن يخبر بالسنة فإن قبلت منه وإلا سكت .

والثامن : السؤال عن المتشابهات : ومن ذلك سؤال من سأل مالكاً عن الاستواء . فقال : الاستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والسؤال عنه بدعة .

والتاسع : السؤال عما شجر بين السلف الصالح : وقد سئل عمر بن عبد العزيز عن قتال أهل صفين فقال : تلك دماء كف الله عنها يدي ، فلا أحب أن يطلخ بها لساني .

والعاشر : سؤال التعنت والإفحام وطلب الغلبة في الخصام : وفى القرآن ذم نحو هذا ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ** ﴾ [البقرة: ٢٠٤] . [2]

٥ ـ وهذا ما جعل الإمام القرافي يهمس في أذن الدعاة والمفتين قائلاً : ينبغي للمفتي إذا جاءته فتيا في شأن رسول الله ﷺ، أو فيما يتعلق بالربوبية ، يُسأل فيها عن أمور لا تصلح لذلك لكونه من العوام الجلف ، أو يسأل عن المعضلات ، ودقائق الديانات، ومتشابه الآيات، والأمور التي لا يخوض فيها إلا كبار العلماء ، ويعلم أن الباعث له على ذلك إنما هو الفراغ، والفضول، والتصدي لما لا يصلح له ، فلا يجيبه أصلاً . ويظهر له الإنكار على مثل هذا ، ويقول له : اشتغل بما يعنيك من السؤال عن صلاتك وأمور معاملاتك ، ولا تخض فيما عساه يهلكك ، لعدم استعدادك له .

---

(١) رواه مالك في الموطأ (٢٣١)، وقال الألباني في مشكاة المصابيح إسناده صحيح رقم (٤٦٥) .
(٢) انظر : الموافقات ج٤ ص ٣١٩ - ٣٢٠ .

وإن كان الباعث له شبهة عرضت له : فينبغي أن يقبل عليه ، ويتلطف به في إزالتها عنه بما يصل إليه عقله . فهداية الخلق فرض على من سئل .

والأحسن أن يكون البيان له باللفظ دون الكتابة ، فإن اللسان يفهم ما لا يُفهم القلم ، لأنه حي ، والقلم موات . فإن الخلق عباد الله ، وأقربهم إليه أنفعهم لعباده ، ولا سيما في أمر الدين وما يرجع إلى العقائد[1] .

٦ ـ ذكر القاضي عياض في (ترتيب المدارك) أن رجلاً من العراق سأل الإمام مالكاً رضي الله عنه عن رجل وطئ دجاجة ميتة ، فخرجت منها بيضة فأفقست البيضة عنده عن فرخ: أيأكله ؟ .. فقال مالك : سل عما يكون لا ما لا يكون !

وسأل آخر نحو هذا ، فلم يجبه ، فقال له : لم لا تجيبني يا أبا عبد الله ؟ فقال له : لو سألت عما تنتفع به أجبتك !!!

وقال ابن وهب : قال لي مالك وهو ينكر كثرة الجواب للمسائل : يا عبد الله ، ما علمته فقل به ودل عليه ، و ما لم تعلم فاسكت عنه ، وإياك أن تتقلد للناس قلادة سوء .

وقال الأوزاعي : إذا أراد الله أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه الأغاليط .

وعن الحسن قال : إن شرار عباد الله الذين يجيئون بشرار المسائل يعنتون بها عباد الله .

وقال الشعبي : والله لقد بغض هؤلاء القوم إلي المسجد حتى لهو أبغض إلي من كناسة داري ! قلت : من هم يا أبا عمر ؟ قال الأرأيتيون ! قال : ما كلمة أبغض إلي من « أرأيت » . وقد قال أيضاً لداود ألا تحفظ عني ثلاثاً : إذا سئلت عن مسألة فأجبت فيها فلا تتبع مسألتك أرأيت ، فإن الله قال في كتابه ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ [الفرقان : ٤٣]. حتى فرغ من الآية .

---

(١) نقلاً عن فتاوى معاصرة ج١ ص ١٨ ، ١٩ .

والثانية : إذا سئلت عن مسألة فلا تقس شيئاً بشيء ، فربما حرمت حلالاً أو حللت حراماً. والثالثة : إذا سئلت عما لا تعلم فقل : لا أعلم ، وأنا شريكك.

وقال يحيى بن أيوب : بلغني أن أهل العلم كانوا يقولون : إذا أراد الله أن لا يعلم عبده شغله بالأغاليط[1] .

٧ – وهذا ما جعل الإمام البنا يقول في أصوله العشرين : وكل مسألة لا ينبنى عليها عمل ، فالخوض فيها من التكلف الذي نهينا عنه شرعاً ، ومن ذلك : كثرة التفريعات للأحكام التي لم تقع ، والخوض في معاني الآيات القرآنية التي لم يصل إليها العلم بعد ، والكلام في المفاضلة بين الأصحاب رضوان الله عليهم وما شجر بينهم من خلاف ، ولكل منهم صحبته، وجزاء نيته ، وفي التأول مندوحة[2].

الواقعية عند القرضاوي :

تأصلت الواقعية في دعوة الشيخ القرضاوي وبدا ذلك في كتاباته وفتاويه ، وحين حدد الشيخ صفات «جيل النصر المنشود» عد من أهم هذه الصفات : الإيمان بالواقعية والعلمية ، وفي هذا يقول: جيل يتجاوز العشوائية ، ويكفر بالغوغائية ، ويحتكم إلى الحقائق لا إلى الأوهام ، ولا ينسى وهو يتطلع إلى السماء أنه واقف على الأرض ، فلا يجري وراء خيال كاذب أو حلم فارغ ، أو أماني موهومة ، فيسبح في غير ماء ، ويطير بغير جناح !

جيل كبير الآمال ، لكنه واقعي التفكير ، يرنو إلى شاطئ الأحلام ، ولكنه يتوقع هياج البحر ، وغضب الموج ، ومفاجآت الأعاصير ، يعلم أن الدهر قلب ، وأن الدنيا دول، وأن الأيام سجال ، وأن دوام الحال من المحال : ﴿ **وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ** ﴾ [آل عمران : ١٤٠].

---

(١) انظر : كيف نتعامل مع التراث ص ٢٨٦ .

(٢) انظر : مجموع الرسائل الإمام البنا ص ٣٥٧ .

جيل واقعي لا يسبح في البر ، ولا يحرث في البحر ، ولا يبذر في الصخر ، ولا ينسج خيوطاً من الخيال ، ولا يبني قصوراً على الرمال !

ولا ييأس من روح الله ، ولا يقنط من رحمة ربه ، ولكنه يعرف حدود قدرته ، ودائرة إمكاناته ، فلا يبتغي الثمرة قبل أوانها ، ولا يستعجل الأشياء قبل إبانها ، ولا يورط نفسه فيما لا يستطيع ، ولا يدخل نفسه في مأزق لا يعرف الخروج منه ، متمثلاً قول الشاعر:

وأحزم الناس من لو مات من ظمأ لا يقرب الوِرْدَ حتى يعرف الصدرا !

جيل يراعي قوانين الله في كونه كما يراعي أحكامه في شرعه ، يتسبنى سياسة النفس الطويل ، والصبر الجميل ، فهو يصبر على البذرة حتى تنبت ، وعلى النبتة حتى تورق ، وعلى الورقة حتى تزهر ، وعلى الزهرة حتى تثمر ، وعلى الثمرة حتى تنضج ، وتؤتي أكلها بإذن ربها ![1]

وقد كان الشيخ واقعياً كل الواقعية وهو يؤكد على ضرورة تبصير دعاة الحركة الإسلامية الشعوب والجماهير بالحقائق دون السباحة بهم في بحور التخدير والأحلام ؛ يقول الشيخ : وإيماننا بالشعوب وقوة الجماهير لا يعني أن نضللها عن الحقائق المرّة، وأن نخدّرها بالأماني الفارغة .

إن على دعاة الحركة ومفكريها أن يصارحوا الأمة بأمراضها، ولا يكتموها عنها، كما يفعل الناس في مجتمعاتنا مع ذوي الأمراض الخطرة، وأن يبصروا الشعوب بالحقائق وإن كانت مرّة، لا أن يخدروها بالأحلام الوردية، دون أن يسلكوا لتحقيقها أي سبيل[2].

ولهذا فقد كان الشيخ من أشد المنكرين لما شاع في الآونة الأخيرة من أمر العلاج بالقرآن ، أو بالأحرى بلبس الجن للإنسان ، وقد كان الشيخ في هذا الرأي موافقاً شيخه الغزالي ؛ ولكنهما خالفا شيخهما البنا في مثل هذه المسألة ،

---

(١) انظر : جيل النصر المنشود ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) انظر : أولويات الحركة الإسلامية ص ٥٢ .

والشيخ يرى ـ من وجهة نظره ـ أن ما يسمى بلبس الجن هو نوع من الهروب من الواقع وكيفية مقاومته ، لذا يقول: أما أن يدعي أحدهم أنه يعالج بالقرآن ويمسك واحداً فيضربه حتى يخرج منه الجن والشيطان ، فهذا ما أنزل الله به من سلطان ، ولم نر أحداً من الصحابة الأجلاء مثل: ابن عباس أو ابن مسعود فتح عيادات لذلك . فإن ابن عباس كان اسمه ترجمان القرآن . ولكننا ما عرفنا أن أحداً جاء له وقال : يا ابن عم رسول الله عالجني بالقرآن . ولو حدث ذلك ، لقال له : « أعيذك بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة » أو قرأ عليه سورة الفلق أو الناس[1] .

ويقول في موضع آخر : صحيح أن الإسلام قد شرع لنا الأدوية الروحية ، مثل الاستعاذة بالله والرقى والدعاء ، فالإنسان يرقي نفسه أو يرقي مريضه كما كان ﷺ يرقي الأطفال الصغار مثل الحسن والحسين . فالرقى والتعاويذ والأذكار والأدعية مشروعة ، ولكن بجوار الأسباب المادية التي تكملها وتقويها الأسباب الروحية .

وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض الأغذية فيها شفاء ودواء ، مثل عسل النحل ، بقوله تعالى : ﴿ **يخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ** ﴾ [النحل :٦٩]. أما هؤلاء الذين فتحوا عيادات ، كما سمعنا في القاهرة مثلاً ، أن فلان الفلاني يعالج بالقرآن ويذهب المغفلون والذين يصدقون كل ما يقال ولا يمتحنون الأمور بعقولهم ، أرى هؤلاء يذهبون إليهم زرافات ووحدانا ، ويدفعون النقود للشيخ ، وبركة الشيخ الذي يزعم علاج هؤلاء بالقرآن ، أو بإخراج الجن من أجسادهم ، وأحياناً رأيت مناظر فظيعة ، مثل شخص يضرب ضرباً مبرحاً ، أو أشياء من هذا النوع ، وقد نشرت الصحف ووكالات الأنباء أن بعضهم مات من الضرب في يد واحد من هؤلاء، وقُدِّم

---

(١) انظر : لقاءات ومحاورات ج٢ ص ٩٧ .

للمحاكمة ، كل هذا لا أعتبر أنه من الإسلام الصحيح في شيء، إنما يمكن إذا سحر الإنسان أو نحو ذلك أن نعالجه بالاستعاذة والأذكار والرقى[1] .

وحين خاطب الشيخ القرضاوي الحركة الإسلامية بما هو مطلوب منها في مجال التربية والتكوين طالب الشيخ الحركة بإعداد قادة على قدر العمل المنوط بهم ، وكان من أهم خصائص هؤلاء القادة أن يلتزموا بفكر إسلامي منشود أهم صفاته أنه فكر واقعي ، وحين يتحدث الشيخ عن هذا الفكر الواقعي دلل عليه بإباحة الإسلام للمقاتل أن يفر من الزحف إن كان « متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة » وبوجوب الرخصة بالانسحاب من المعركة إذا كان جيش العدو أكثر من ضعف جيش المسلمين ﴿ **الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً** ﴾ [الأنفال: ٦٦]

كما استدل الشيخ بعبقرية خالد حين فر بجيش مؤتة وهو (٣٠٠٠) في مقابل (١٥٠٠٠٠) ولما قال الصحابة لخالد وجيشه: يا فرار . قال النبي ﷺ : « بل هم الكرار إن شاء »[2]،[3].

ولا يقف الشيخ عند التدليل فحسب على مشروعية الواقعية، ولكنه يحذر من جر الناس عامهم وخاصهم إلى الأمور التي لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً، وللتدليل على ما ذكرناه نسوق هذه الأمثلة :

١ ـ إعراض الشيخ في فتاويه عما لا ينفع الناس :

حين شرع الشيخ في التعرض للفتوى كان له منهج واضح وضع الشيخ معالمه في مقدمة فتاويه ، وكان من قواعد هذا المنهج : الإعراض عما لا ينفع الناس ، ولهذا يقول الشيخ: ومن القواعد التي التزمتها : ألا أشغل نفسي ولا جمهوري إلا بما ينفع الناس ويحتاجون إليه في واقع حياتهم .

أما الأسئلة التي يريد بها أصحابها المراء والجدل ، أو التعالم والتفاصح ،

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج ٣ ص ٥٩ ، ٦٠ .
(٢) انظر : الروض الأنف (٣٧٤١).
(٣) انظر : أولويات الحركة الإسلامية ص ٩١ .

أو امتحان المفتي وتعجيزه ، أو الخوض فيما لا يحسنونه ، أو إثارة الأحقاد والفتن بين الناس، أو نحو ذلك فكنت أضرب عنها صفحاً ، ولا ألقي لها بالاً ، لأنها تضر ولا تنفع ، وتهدم ولا تبني ، وتفرق ولا تجمع .

كان بعض الناس يبعثون بأسئلة تتضمن ألغازاً شرعية يريدون حلها من مثل: « نوى ولا صلى، وصلى ولا نوى » و « قوم كذبوا ودخلوا الجنة، وقوم صدقوا ودخلوا النار » وأشباه ذلك ، فكان ردي عليها الإلقاء في سلة المهملات، لأن الاشتغال بمثل هذه المسائل من عمل الفارغين .

ومثل ذلك الأسئلة التي تتعلق بالأمور الغيبية ، مما لا يجيء بتحديده نص معصوم. ومثل ذلك غوامض المسائل الدينية والعقائدية التي لا تحتملها الطاقة العقلية المعتادة لجمهور الناس ، ويخشى من الخوض فيها التشويش على الكثيرين .

فهذا أيضاً مما لا أعتني بالإجابة عنه إلا إزالة لشبهة ، أو رداً لفرية ، أو تنبيهاً على قاعدة ، أو تصحيحاً لفهم . أو نحو ذلك .

ومن الأسئلة التي لم أكن أعبأ بها : ما يتعلق بالمفاضلة بين آل البيت والصحابة ﷺ وما شجر بينهم من خلاف .

ومثل ذلك : أيهما أفضل عند الله : أبو بكر أم عليّ ؟

أيهما أفضل : فاطمة الزهراء بنت رسول الله أم عائشة أم المؤمنين .

ومثل ذلك أيضاً : المفاضلة بين الأنبياء ، مثل إسماعيل وإسحق ، أو موسى وعيسى .

أسئلة لا يترتب على العلم بها ، قوة في دين ، ولا نهضة في دنيا ، ومن جهل الجواب عنها فلا إثم عليه ، ومن كون في كل منها رأياً فهيهات أن يتنازل عنه .

ومن الأسئلة التي أعرضت عنها : ما يتعلق بتفسير الرؤى والأحلام .

وقد أعلنت غير مرة : أن مهمتي بيان الأحكام ، لا تفسير الأحلام [1].

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ص ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .

لذا فإن الشيخ يرى بأن الأسئلة التي لا تنفع الناس غير واقعية ، وأنها من نتائج التخلف الحضاري والفكري يقول الشيخ : ولما تخلف المسلمون ـ حضارياً وفكرياً ـ أكثروا من الأسئلة التي لا يصلح بها دين، ولا ترتقي بها دنيا ، ولا يزكو عليها فرد ، ولا تنهض بها جماعة ، وشغل عوام المسلمين بمسائل وتفصيلات لم تخطر ببال أحد من سلف الأمة .

وكان للمتأخرين من علمائهم المقلدين دور كبير في إذكاء هذه الروح ، ودعم هذا الاتجاه ، لأنهم ضيعوا اللباب ، وشغلوا بالقشور ، وشغلوا الناس معهم بهـا ، حتى أن تدريس الوضوء والطهارة ليستغرق دروس شهر كامل كشهر رمضان .

ولقد بقي من رواسب عصور الانحطاط بقية من الناس ، رأيت من أسئلتهم العجب العجاب ، وقرأت في رسائلهم إلى ما يثير الدهشة ، ويستفرغ الضحك ، وشر البلايا ما يضحك كما قيل .

ما لون كلب أهل الكهف ؟ وهل كان ذكراً أم أنثى ، وأين كانوا ومتى كانوا ؟ مع أن الله تعالى لم ينص على شيء من ذلك ، ولو علم فيه خيراً لنا لذكره .

ومن هذا اللون من الأسئلة ما يثيره بعض المتفقهين حول الأمور الغيبية : بأي لغة يتكلم الناس في القبر ؟ بالسريانية ؟ أم بالعربية ؟ أم بغير هذه وتلك ؟[1] .

٢ ـ إعطاء الحركة الإسلامية نفسها قدراً أكبر من قدرها :

وهذا أمر أخذه الشيخ على الحركة الإسلامية ، حين تعجب بكثرة أتباعها، فتستجيب لعواطفها وتستعرض عضلاتها ، دون أن تحسب لعواقب الأمور قليلاً أو كثيراً ، ولهذا عاتب الشيخ الحركة الإسلامية قائلاً : ومن الخطأ الذي يمكن أن

---

(١) انظر : الفتوى بين الانضباط والتسيب ص ٤٦ ، ٤٧ .

تقع فيه الحركة الإسلامية : استجابتها لعواطف العامة في اتخاذ القرارات المصيرية والهامة .

ففي بعض البلاد قد يدفع الشارع المسلم بعض قادة الحركة إلى خوض المعركة السياسية بكل قوتهم وطاقتهم ، قبل أن تنضج قدرتهم الفكرية والسياسية والفنية لمثل هذه المرحلة [١].

٣ ـ البعد عن الانشغال بالمشكلات التاريخية :

كما حذر الشيخ من الانشغال بالمشكلات التاريخية التي أخذت حيزاً من الفكر الإسلامي في وقت من الأوقات ، لكن أصبح الوقت غير وقتها ، والزمان غير زمانها ، والقوم غير قومها ، والمكان غير مكانها ، فليس من الواقعية أن يزاح ما عليها من تراب، بل الواقعية أن يهال على مثل هذه الأشياء أكواماً عظيمة من التراب ، يقول الشيخ: نريد من الفكر الجديد أن يهيل التراب على المشكلات التاريخية التي شغلت الفكر الإسلامي في وقت من الأوقات ، وبددت طاقته في غير طائل ، مشكلة الذات والصفات ، هل الصفات عين الذات أم غيرها ؟ أو هي لا عين ولا غير ؟ مشكلة خلق القرآن ـ وما يترتب عليه من محنة لأئمة الإسلام ، والمبالغة في الكلام حول التأويل وعدمه بين السلف والخلف ، والطعن على الأشاعرة والماتريدية ومن وافقهم على نهجهم من رجال الجماعات الدينية في العالم الإسلامي : الأزهر والزيتونة والقرويين وديوبند وغيرها .

كل هذا لا ينبغي أن يكون مشغلة الفكر الذي نعده للمرحلة القادمة ، ليواجه الصهيونية والصليبية والماركسية والفلسفات الهدامة القادمة من الغرب والشرق[٢] .

(١، ٢) انظر : أولويات الحركة الإسلامية ص ٩٢ ، ٩٣.

٤ ـ هل الجهاد في الإسلام هجومي أم دفاعي ؟

وهذا أمر آخر شغل الفكر الإسلامي مدة من الزمن ، حتى صار هناك فريقان؛ كل ينفر لرأيه وربما غمز أصحاب الرأي الآخر بالهزيمة النفسية ، أو الرضوخ للأمر الواقع إلى غير ذلك ، وواقعية منهج القرضاوي جعلته يدعو إلى وقف هذه المعركة الجدلية بين الفريقين وذلك لعدة أسباب :

الأول : أننا نحن المسلمين ـ لم نقم بالجهاد المفروض علينا فرضاً عينياً في كثير من بلاد الإسلام لتحرير أرض المسلمين من الغاصبين ، والمعتدين مثل فلسطين وأريتريا وأفغانستان . مما لا يجادل مسلم في وجوب استنقاذه من أيدي القوى المعادية للإسلام .

ولم تقم الأمة المسلمة بهذا الجهاد الدفاعي المفروض عليها ، فكيف تتحدث عن جهاد هجومي ؟؟

الثاني : أن المقصود من الجهاد الهجومي ـ عند من يقول به ـ هو : إزاحة القوى المتسلطة على خلق الله ، والتي تقف حاجزاً أمام المسلمين حتى لا يبلغوا كلمة الله إلى الناس.

واليوم لا تستطيع قوة أن تقف أمامنا إذا صدقت نيتنا ، واتجهت قدرتنا إلى تبليغ دعوتنا إلى العالم ، فالكلمة المسموعة ، والمقروءة والمرئية يمكن توصيلها إلى الدنيا كلها بكل اللغات .

ومع هذا نحن أكثر الناس تقصيراً في هذه الناحية إذا قيس جهدنا بجهود رجال التنصير .

الثالث : أننا عالة على غيرنا في القوة العسكرية ، وإن الذين نريد أن نجاهدهم جهاداً هجومياً هم الذين يصنعون السلاح بكل أنواعه ، ويبيعونه لنا ، ولولاهم لكنا عزلاً لا نقدر على شيء .

فما معنى أن نتحدث عن الهجوم لإخضاع العالم لرسالتنا ، ونحن لا نملك من السلاح إلا ما ملكوه لنا ، وسمحوا ببيعه إيانا ؟[١]

٥ ـ البعد عن الانشغال بالألغاز في المسائل الفقهية وغيرها :

هناك أناس مولعون بإثارة الألغاز شاغلين أنفسهم وغيرهم بها ، ومثل هذه الألغاز ينبغي الإعراض عنها إلا بقدرها وفي مكانها اللائق بها ولهذا اعترض.

وقد استنكر الشيخ على بعض العلماء انشغالهم بما لا فائدة منه فيقول : ومن الغريب : أني وجدت بعض العلماء الكبار من المتأخرين ـ وخصوصاً في علم الفقه – معنيين بهذه الألغاز ، حتى وجدت العلامة ابن نجيم المصري الحنفي (ت ٩٧٠ هـ) صاحب كتاب (البحر الرائق) وغيره ، فقد خصص قسماً من كتابه القيم (الأشباه والنظائر) على مذهب أبي حنيفة في (الألغاز) وجعله (الفن الرابع) في الكتاب.

ووضع ابن نجيم الألغاز في صورة أسئلة ، وأجاب عنها .

ومن ذلك : الاشتغال بإعراب القرآن كله ، كما فعل ذلك بعضهم ، إذ أعرب القرآن من أوله إلى آخره ، وقد نشرته (إدارة إحياء التراث الإسلامي) في دولة قطر في بضعة عشر مجلداً ! [٢]

* * *

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٩٤ ، ٩٥ بتصرف .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٢٧٨ – ٢٧٩ .

المبحث الثالث عشر
الشمـــول

ذكرت فيما ذكرته آنفاً أن الشيخ القرضاوي إخواني المنشأ والمنبت ، وأن فكر جماعة «الإخوان المسلمون» نضح على الشيخ فتأثر به أيما تأثر ، وكـــان لكلمات الإمام الشهيد حسن البنا وقع بليغ في منهج القرضاوي الدعوي ، ومـن هذا التأثر اهتمام الشيخ القرضاوي بشمولية الإسلام ، بعـد أن حفظ من كلام شيخه أن : الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً ، فـهو دولـة ووطـن أو حكومة وأمة ، وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة ، وهو ثقافة، وقانون ، أو علم قضـاء ، وهو مـادة وثروة أو كـسب وغنى ، وهو جـهاد ودعوة أو جيش وفكرة ، كما هو عقيدة صادقة وعبارة صحية سواء بسواء[1] .

وكان من أروع ما قاله الإمام الشهيد عن شمولية الإسلام : إنها الرسالة التي امتدت طولاً حتى شملت آباد الزمن . وامتدت عرضاً حتى انتظمت آفاق الأمم . وامتدت عمقاً حتى استوعبت شؤون الدنيا والآخرة[2] .

والحق أن البنا والقرضاوي وغيرهما من دعاة الشمولية لم يكونوا بدعاً من الأمـر ، ولم يأتوا بجـديد ، لكنهم أظهروا للناس أمراً كاد أن يندثر ، وحقـائق كـادت أن تخفى ، وثوابت كادت أن يغير عليها الأعـداء فيبدلوهـا أو يهملوها أو يهمشوها . ويأبى الله ورسوله والمؤمنون .

لقـد ابتليت الأمـة الإسـلاميـة في عـصرها المنصرم بفرية جـديدة لم تكن معـهودة من ذي قبل ، وهي قضية «فصل الدين عن الدولة »، ومحـاولة جـعل الإسلام مجرد دين لا علاقة له بالدنيا ، حاولوا أن يجعلوا منه نصرانية جـديدة بجعل ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، فكان واجب الدعاة أن يقفوا في وجه هذه

(١، ٢) انظر : مجموع الرسائل ص ٣٥٦ .

الفرية الجديدة ، موضحين حقيقة الإسلام ، وقد كان الشيخ القرضاوي واحداً من هؤلاء .

أدلة الشمول :

لقد امتلأت سور القرآن بآيات تدل على شمولية الإسلام إما بالتصريح وإما بالتلميح، إما بالإشارة وإما بالعبارة، وكذلك سنة المصطفى ﷺ ومن ذلك :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ... ﴾ [البقرة : ٨٥]

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ [البقرة : ٢٠٨]

٣ ـ قوله تعالى : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة : ٤٩] .

٤ ـ في عرض النبي ﷺ نفسه على القبائل ومنهم بني شيبان ، وقد عرض النبي ﷺ نفسه عليهم ليحموه ويحملوا دعوته ، فوافقوا على حمايته من جهة العرب لا من جهة كسرى ، فقال لهم النبي ﷺ : « ما أسأتم في الرد، إذا أفصحتم بالصدق وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه »(١) .

الشمول عند القرضاوي :

والشيخ القرضاوي من دعاة الشمولية لأنه يرى أن الإسلام : يستوعب الزمن كله ، ويستوعب الحياة كلها ، ويستوعب كيان الإنسان كله .

و أنه رسالته لكل الأزمنة والأجيال ، رسالة تخاطب كل الأمم وكل الأجناس وكل الطبقات وكل الشعوب .

رسالة لعقل الإنسان وروحه ، وجسمه وضميره ، وإرادته ووجدانه ، رسالة للإنسان في كل أطوار حياته ، تصحبه طفلاً وشاباً وكهلاً وشيخاً(٢) .

وشمولية الإسلام التي تربى عليها القرضاوي يرى أنه لا حياد عنها لأسباب ثلاثة هي :

---

(١) انظر : البداية والنهاية ج٣ ص ١٤٥ .

(٢) انظر : الخصائص العامة للإسلام ص ٩٥ وما بعدها .

١ ـ أن الإسلام الذي شرعه الله لم يدع جانباً من الحياة دون آخر ، فهو بطبيعته شامل لكل نواحي الحياة ، مادية وروحية ، فردية واجتماعية .

٢ ـ أن الإسلام نفسه يرفض تجزئة أحكامه وتعاليمه ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ.... ﴾ [البقرة: ٨٥].

٣ ـ أن الحياة نفسها وحدة لا تنقسم ، وكل لا يتجزأ ، ولا يمكن أن تصلح الحياة إذا تولى الإسلام جزءاً منها كالمساجد وتركت جوانب الحياة الأخرى لمذاهب وضعية وأفكار بشرية وفلسفات أرضية توجهها وتقودها [١].

وقد كانت كتابات الشيخ قوية في رفض كل دعوة تحاول تجزئة الإسلام أو تقطيعه، وكل فكرة تنقص من الإسلام شيئاً ولو قل .

فحين يتوهم البعض أن الإسلام مجرد تشريعات فقط . يرفض الشيخ ذلك الفهم ويعلن أن الإسلام : عقيدة تلائم الفطرة ، وعبادة تغذي الروح ، وخلق تزكو به النفس وأدب تجمل به الحياة ، وعمل ينفع به الناس ، ودعوة لهداية العالم ، وجهاد في سبيل الحق والخير ، وتواصي بالصبر والمرحمة ، كما أنه في الوقت نفسه تشريع يضبط سير الحياة وينظم علاقة الإنسان بربه وأسرته ومجتمعه ودولته[٢] .

وحين يحاول العلمانيون أن يقنعوا الإسلام بركن أو زاوية في جوانب الحياة لا يتجاوزها ولا يتعداها ، يرفض الشيخ هذا التقوقع لأنه يؤمن : بأن الإسلام يأبى إلا أن يوجه الحياة كلها بأحكامه ووصاياه ، وأن يصبغها بصبغته [٣].

وإذا حاول البعض أن يكون الإسلام فضلة ، أعلن القرضاوي أنه ينبغي أن يكون عمدة ، وإذا أرادوا أن يكون في الهامش ، أبى القرضاوي إلا أن يكون في الصلب ، وإذا شاءوا أن يكون الإسلام تابعاً ومقوداً ، رفض إلا أن يكون قائداً ومتبوعاً .

---

(١) انظر : شمول الإسلام ص ٤٣ ـ ٤٧ بتصرف.

(٢) انظر : بينات الحل الإسلامي ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

(٣) انظر : الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه ص ١٠٣ .

إنه يدرك تماماً أن طبيعة الإسلام أن يكون قائداً لا مقوداً، وسيداً لا مسوداً، لأنه كلمة الله وكلمة الله هي العليا ، ولهذا فهو « يعلو ولا يعلى »[١].

ولهذا فإن الشمولية عند القرضاوي نستطيع أن نقسمها إلى قسمين :

القسم الأول : الشمول الفكري :

القسم الثاني : الشمول في ميدان الدعوة :

* * *

القسم الأول : الشمول الفكري

وهذا واضح في كتابات الشيخ ومحاضراته حيث لم يترك الشيخ باباً من أبواب الفكر إلا وكتب فيه ومن ذلك[٢] .

١ – في العقيدة .

٢ – في العبادة .

٣ – في علوم القرآن .

٤ – في علوم السنة .

٥ – في الأخلاق .

٦ – في الاقتصاد .

٧ – في التربية والسلوك .

٨ – في السياسة الشرعية .

٩ – في الإسلاميات العامة .

١٠ – في رد الشبهات عن الإسلام .

هذا الشمول الفكري عرف به كثير من الدعاة والمصلحين على مر العصور وكر الدهور ، وسوف ألقي الضوء على جانب أساسي يعد أهم عناصر الشمول ألا وهو « السياسة الشرعية » .

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ١٠٣ .

(٢) انظر : الفصل الخاص بمؤهلات القرضاوي الدعوية من هذا الكتاب .

السياسة الشرعية عند القرضاوي :

ظل المسلمون فترة طويلة وقروناً عديدة يؤمنون بأن الإسلام دين ودولة ، دين لا ينفصل عن الدولة ، ودولة لا تقوم بغير دين ، ولم يكن هناك أدنى فصل لأحدهما عن الآخر ، ولم يكن هناك أدنى غضاضة في استخدام لفظة سياسة أو انتشارها بين الناس[1] ، ولقد رأينا إماماً كحجة الإسلام الغزالي يؤكد على ارتباط الدين بالدنيا فيقول : إن الدنيا مزرعة للآخرة ولا يتم الدين إلا بالدنيا ، والملك والدين توأمان ، فالدين أصل ، والسلطان حارس ، ومالا أصل له فمهدوم، ومالا حارس له فضائع[2] .

لقد ظل العالم كله يدرك ارتباط الإسلام بالسياسة والسياسة بالإسلام، حتى أقر أساطين الغرب بهذا كله ، وينقل الدكتور ضياء الدين الريس أقوال المستشرقين في هذا الصدد لأنه يدرك أن من بني جلدتنا من هم عبيد كل أجنبي، لا يؤمنون إلا بما قاله سادتهم وكبراؤهم ، ومن أقوال هؤلاء المستشرقين :

١ ـ يقول الدكتور « فتزجرالد » « Dr.v.fitzgerald » :

« ليس الإسلام ديناً فحسب ، ولكنه نظام سياسي . وعلى الرغم من أنه قد ظهر في العهد الأخير بعض أفراد من المسلمين ، ممن يصفون أنفسهم بأنهم « عصريون » يحاولون أن يفصلوا بين الناحيتين، فإن صرح التفكير الإسلامي كله قد بني على أساس أن الجانبين متلازمان، لا يمكن أن نفصل أحدهما عن الآخر » .

٢ ـ ويقول الأستاذ « نللينو » « C. A. nallino » :

« لقد أسس » محمد « في وقت واحد ديناً ودولة وكانت حدودهما متطابقة طوال حياته » .

---

(١) هناك كتب عديدة كتبها فقهاؤنا الأقدمون ومن هذه الكتب : الأحكام السلطانية للماوردي ، الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء ، غياث الأمم للجويني ، والسياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية لابن تيمية ، الحسبة لابن تيمية ، والطرق الحكمية لابن القيم ، والخراج لأبي يوسف ، والأموال لأبي عبيد ابن سلام وغيرها كثير .

(٢) انظر : إحياء علوم الدين الغزالي ط دار المعرفة بيروت ج١ ص ١٧ .

٣ ـ ويقول الدكتور « شاخت » « Dr. schacht » :

« على أن الإسلام يعني أكثر من دين : إنه يمثل أيضاً نظريات قانونية وسياسية ، وجملة القول : إنه نظام كامل من الثقافة يشمل الدين والدولة معاً » .

٤ ـ ويقول الأستاذ « ستروثمان » « Dr. strothmann » :

« الإسلام ظاهرة دينية . سياسية » ، إذ أن مؤسسه كان نبياً . وكان سياسياً حكيماً ، أو « رجل دولة » .

٥ ـ ويقول الأستاذ « ماكدونالد » « d.b. macdonald » :

« هنا ـ أي المدينة ـ تكونت الدولة الإسلامية الأولى ، ووضعت المبادئ الأساسية للقانون الإسلامي » .

٦ ـ ويقول السير « توماس أرنولد » « sir. T. arnold » :

« كان النبي . في نفس الوقت ، رئيساً للدولة » .

٧ ـ ويقول الأستاذ « جب » :

عندئذ صار واضحاً أن الإسلام لم يكن مجرد عقائد دينية فردية ، وإنما استوجب إقامة مجتمع مستقل ، له أسلوبه المعين في الحكم ، وله قوانينه وأنظمته الخاصة به[1] .

لكنه بعد رضوخ الدول الإسلامية تحت وطأة الاحتلال الأجنبي الغاشم والكافر ، استطاع الغرب أن يجعل من السياسة عدواً للإسلام ، فإما أن يكون المرء مسلماً وإما أن يكون سياسياً ، إما أن يكون ملتزماً ، أما الجمع بينهما فلا ، وألف لا ، حتى رأينا بعضهم يردد كلمة الشيخ محمد عبده : أعوذ بالله من السياسة ، ومن ساس ، ويسوس وسائس ومسوس .

وأصبح انشغال الدعاة بالسياسة أمراً محظوراً ، وخروجاً عن المألوف والمشروع ، وخصوصاً بعد أن حاول الغرب إقناعنا بأن الإسلام دين روحي ، أو دين كهنوتي ، وكانت الطامة الكبرى على يد القاضي الشرعي « علي عبدالرازق » في كتابه « الإسلام وأصول الحكم » الذي ادعى فيه أن الإسلام مجرد

---

(١) انظر : النظرات السياسية الإسلامية ضياء الدين الريس ص ٢٨ ، ٢٩ .

رسالة روحية ، وأن الإسلام دين لا دولة ، وأن محمداً ﷺ لم يكن سوى رسول لدعوة لا ملكاً لدولة .

وكانت خطورة هذا الكتاب أن يصدر من عالم أزهري فهللت له دول الغرب ، وانبرى لتمجيد الكتاب وصاحبه دهاقنة الاستشراق الذين هم مخالب الاحتلال وأنيابه ، وكان للأزهر ورجاله وقفة مشهورة ، فاجتمعت هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف وأصدرت حكماً بالإجماع بأن الكتاب بما فيه من آراء مخالفة للدين ، وقررت إخراج علي عبد الرازق من زمرة العلماء ومحوا اسمه من سجلات الجامع الأزهر ، وفصله من وظيفته [١].

كما انبرى العلماء والدعاة ينقضون كتاب «علي عبد الرازق» وكان من أشهر هذه الردود «حقيقة الإسلام وأصول الحكم» للشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي مصر ، و «نقض الإسلام وأصول الحكم» لمحمد الخضر حسين .

وتوالت فيما بعد كتابات الدعاة والمصلحين والمفكرين في الفقه السياسي ، والسياسة الشرعية[٢] .

وحين خاض الشيخ القرضاوي حفظه الله غمار السياسة الشرعية لم يدخلها الشيخ من باب السياسة ، ولكنه خاضها تديناً وعبادة .

وقد أثرى الشيخ المكتبة الإسلامية بعديد من الكتب في هذا المجال منها :

١ – من فقه الدولة في الإسلام .

---

(١) حدثني فضيلة العلامة الدكتور عبد العظيم الديب ـ حفظه الله ـ بأن الشيخ الغزالي ـ رحمه الله ـ أخبره بأنه لما كان خطيباً للجامع الأزهر جاءه رجل مسن وأثنى على خطبته وحديثه وقال له : أنا علي عبد الرازق صاحب «الإسلام وأصول الحكم» يقول الشيخ الغزالي رحمه الله : فلما توطدت العلاقة بيني وبينه سألته عن كتابه فقال : لقد أرادوا طبع الكتاب فرفضت ، و أخبرني أنه تراجع عما جاء في هذا الكتاب ، ولكن كان من الواجب على الشيخ على عبد الرازق أن يذكر مراجعته كتابة حتى يعلم الناس كلهم هذه المراجعة.

(٢) من هذه الكتب : السياسة الشرعية/ للشيخ عبد الوهاب خلاف ، ونظام الحكم في الإسلام للدكتور /محمد يوسف موسى ، قواعد نظام الحكم في الإسلام/ محمد فاروق النبهان ، النظام السياسي في الإسلام/ د: محمد أبو فارس، في النظام السياسي الإسلامي/ د: محمد سليم العوا ، النظريات السياسية الإسلامية/ د: ضياء الدين الريس ، الإسلام أوضاعنا السياسية/ للشهيد عبد القادر عودة ، الإسلام والاستبداد السياسي/ للشيخ محمد الغزالي ، الدين و الدولة في الإسلام/ د: مصطفى السباعي ، معالم الدولة الإسلامية/ د: محمد سلام مدكور .

٢ – السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشرعية ومقاصدها .
٣ – الإسلام والعلمانية .
٤ – غير المسلمين في المجتمع الإسلامي .
٥ – الأقليات الدينية والحل الإسلامي .
٦ – الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم .
٧ – المسلمون والعولمة .

هذا غير فتاوى الشيخ العديدة في كتابه فتاوى معاصرة ، وخصوصاً المجلد الثاني والثالث ، وقد أفرد الشيخ فيهما فصلاً خاصاً عنون له بـ « في السياسة والحكم » ، فضلاً عن خطب الشيخ التي لا تخلو خطبة من ناحية سياسية ربما تكون محوراً أساسياً للخطبة أو عنصراً من عناصرها[١] .

والسياسة الشرعية وفقهها ليس بدعة جديدة لكنها أمر ثابت في هذا الدين ؛ ولما كانت كلمة « السياسة » تصيب أعداء الدين بالهم والغم فضلاً عن الوصب والنصب ، فقد أنكروا سياسة الدين أو تدين السياسة ، ولهذا حين تحدث القرضاوي عن السياسة الشرعية قال : هي السياسة التي تتخذ من الشرع منطلقاً لها ترجع إليه ، وتستمد منه ، كما تتخذ تحقيقه في الأرض ، وتمكين تعاليمه ، ومبادئه بين الناس هدفاً لها و غاية ، كما تتخذه غاية تتخذه منهجاً وطريقاً ، فغاياتها شرعية ومناهجها شرعية [٢] .

---

(١) خطب الشيخ ليست من الخطب النمطية المعروفة لكنها خطب إن شئت سمها خطباً سياسية اجتماعية اقتصادية أخلاقية عبادية عقدية تاريخية ؛ لكنها خطب تجمع بين الدين والدنيا ، وتربط الدنيا بالآخرة ، لكن الرائحة السياسية لا شك تفوح من هذه الخطب لأن الشيخ إنما فهم الدين كذلك : شريعة وعقيدة ودنيا ودولة ، وانظر عناوين هذه الخطب لتدرك المعنى : زلزال مصر ـ مرض الإيدز ـ توحيد العرب تحت راية الإسلام ـ القمر الصناعي الإسرائيلي ـ الذكرى السنوية للانتفاضة ـ قضية المرتد سلمان رشدي ـ العدوان على الكويت ـ اتفاقية غزة وأريحا ـ حقائق حول أزمة الخليج ـ مأساة المسلمين في البوسنة ـ الصحوة الإسلامية بين المتشائمين والمتفائلين ـ الاستنساخ في البشر وأضراره ـ توضيح الحق في فوائد البنوك ـ حقوق الإنسان في الإسلام ـ معركة الحجاب في فرنسا ـ مؤتمر السكان في القاهرة ـ هدم المسجد البابري ـ القنبلة النووية الباكستانية ـ أمتنا لن تموت ـ واقدساه ـ رسالة إلى المؤتمر الإسلامي التاسع ـ مشروع الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية ـ التنصير في منطقة الخليج ـ المسلمون في أمريكا الجنوبية ، وغيرها من خطبه النافعة الجامعة .

(٢) انظر : السياسة الشرعية ص ٢٧ .

ولقد أكد الشيخ أن الإسلام لا يكون إسلاماً حقيقياً إلا إن كان سياسياً، يقول الشيخ: ولكن ما حيلتنا إذا كان الإسلام ـ كما شرعه الله ـ لا بد أن يكون سياسياً ما حيلتنا إذا كان الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ لا يقبل أن نقسم الحياة والإنسان بين الله تعالى وقيصر وكسرى وفرعون وكل ملوك الأرض عباداً لله وحده[1].

والحق أن الإسلام السياسي كما يسميه البعض ليس إلا الإسلام الذي أراده الله عز وجل إنه الإسلام الفعال، الإسلام المحرك، الإسلام القائد، الإسلام الموجه، إنه الإسلام الذي يرفض الخضوع، ويأبى الذل، ويتمرد على الطغيان، ويثور على الظالم، ويحارب المعتدي، لا إسلام الدروشة والتمتمة، والرقى والتمائم، يقول الشيخ حفظه الله في ديوانه الأول:

فقل لمن ظن أن الدين منفصل ... عن السياسة خذ يا غر برهاناً
هل كان أحمد يوماً حلس صومعة؟ ... أو كان أصحابه في الدير رهبانا ؟
هل كان غير كتاب الله مرجعهم؟ ... أو كان غير رسول الله سلطانا ؟
لا بل مضى الدين دستوراً لدولتهم ... وأصبح الدين للأشخاص ميزانا
يرضى النبي أبا بكر لدينهمو ... فيعلن الجمع : نرضاه لدنيانا [2]

وهذا ما جعل الدكتور حسان حتحوت يقول ساخرا من هذا الصنف:

هذا الكتاب وإن فيه سياسة ... أتراه أمرا في الكتاب غريباً؟
إن كانت تؤذيكم سياسته دعو ... ه ونقبوا عن غيره تنقيبا
أو اعرضوه على الرقيب فربما ... أفتى فغادر نصفه مشطوبا
يا قوم سحقا للرقيب وأمره ... فكفى برب العالمين رقيبا

ولما أراد المتغربون والعلمانيون من عبيد الفكر الغربي أن يشوهوا صورة الإسلام الحقيقي وأخذوا يقسمون الإسلام حسب أمزجتهم وأهوائهم فزعموا أن هناك إسلاماً سياسياً، وآخر لاهوتياً وثالث راديكالياً، وكلاسيكياً، ويمينياً، ويسارياً؛ هنا انبرى الشيخ ليعلنها صريحة مدوية، ليلجم بها كل منافق،

(١) انظر : شمول الإسلام ص ٦٧ .
(٢) انظر : نفحات ولفحات ص ٤٣ .

وليخرص بها كل أفاق ، ويسكت بها كل دعي ، ويفحم بها كل مجادل ، يقول الشيخ : يجب أن أعلنها صريحة مدوية : إن الإسلام الحق ـ كما شرعه الله ـ لا يمكن إلا أن يكون سياسياً ، وإذا جردت الإسلام من السياسة ، فقد جعلته ديناً آخر يمكن أن يكون بوذية أو نصرانية ، أو غير ذلك ، أما أن يكون هو الإسلام فلا [1].

ويؤكد الشيخ بأن الإسلام يرفض إلا أن يكون سياسياً لسببين :

السبب الأول : أن للإسلام موقفاً واضحاً ، وحكماً صريحاً في كثير من الأمور التي تعتبر من صلب السياسة .

فالإسلام ليس عقدة لاهوتية ، أو شعائر تعبدية فحسب ، وأعني أنه ليس مجرد علاقة بين الإنسان وربه ، ولا صلة له بتنظيم الحياة ، وتوجيه المجتمع والدولة .

كلا . إنه عقيدة وعبادة، وخلق وشريعة متكاملة، وبعبارة أخرى: هو منهاج كامل للحياة، بما وضع من مبادئ ، وما أصل من قواعد، وما سن من تشريعات وما بين من توجيهات، تتصل بحياة الفرد ، وشئون الأسرة وأوضاع المجتمع ، وأسس الدولة، وعلاقات العالم.

ومن قرأ القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وكتب الفقه الإسلامي بمختلف مذاهبه ، وجد هذا واضحاً كل الوضوح [2].

ويوضح الشيخ أن قسم العبادات ذاته لا ينفك عن السياسة أبداً فيقول : حتى قسم العبادات من الفقه ليس بعيداً عن السياسة ، فالمسلمون مجمعون على أن ترك الصلاة ، ومنع الزكاة ، والمجاهرة بالفطر في رمضان ، وإهمال فريضة الحج مما يوجب العقوبة ، والتعزير ، وقد يقتضي القتال إذا تظاهرت عليه فئة ذات شوكة ، كما فعل أبو بكر رضي الله عنه مع مانعي الزكاة .

السبب الثاني : أن شخصية المسلم ـ كما كونها الإسلام وصنعتها عقيدته

(١، ٢) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص ٦٢٥ ، وما بعدها بتصرف.

وشرعيته وعبادته وتربيته ـ لا يمكن إلا أن تكون سياسية ، إلا إذا ساء فهمها للإسلام ، أو ساء تطبيقها له .

فالإسلام يضع في عنق كل مسلم فريضة اسمها : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد يعبر عنها بعنوان : النصيحة لأئمة المسلمين ، وعامتهم ، وهي التي صح في الحديث اعتبارها الدين كله ، وقد يعبر عنها بالتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، وهما من الشروط الأساسية للنجاة من خسر الدنيا والآخرة ، كما وضحت ذلك سورة العصر .

ويحرض الرسول المسلم على مقاومة الفساد في الداخل ويعتبره أفضل من مقاومة الغزو من الخارج ، فيقول حين سئل عن أفضل الجهاد : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر »[1] وذلك لأن فساد الداخل هو الذي يمهد السبيل لعدوان الخارج .

ويعتبر الشهادة هنا من أعلى أنواع الشهادة في سبيل الله « سيد الشهداء حمزة ، ثم رجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله »[2] .

ويغرس في نفس المسلم رفض الظلم ، والتمرد على الظالمين حتى إنه ليقول في دعاء القنوت المروي عن ابن مسعود ، وهو المعمول به في المذهب الحنفي وغيره « نشكرك اللهم ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك »[3] .

ويرغب في القتال لإنقاذ المضطهدين ، والمستضعفين في الأرض ، بأبلغ عبارات الحث والتحريض ، فيقول : ﴿ **وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ..** ﴾ [النساء: ٧٥] .

ويصب جام غضبه ، وشديد إنكاره على الذين يقبلون الضيم ، ويرضون

---

(١) رواه النسائي في كتاب البيعة (٧١٦١) وصححه المنذري في الترغيب والترهيب انظر : المنتقى في الترغيب (١٣٦٤) وصححه أيضا النووي في رياض الصالحين. الحديث ١٩٥ طبعة الرسالة وذكره الألباني في صحيح أبي داود برقم (٣٦٥٠) .

(٢) رواه الحاكم (٣١٩٥) وقال : صحيح الإسناد ، وتعقبه الذهبي بأن في إسناده الصفار ، لا يدرى : من هو ؟ ولكن الشيخ الألباني صححه من طريق رواها الخطيب في تاريخه. انظر : الصحيحة حديث (٣٧٤) كما عزاه في الجامع الصغير إلى الضياء عن جابر والطبراني عن علي. وحسنه الألباني أيضا في صحيح الجامع (٣٦٧٦، ٣٦٧٥) .

(٣) رواه عبد الرزاق في مصنفه (١١٠٣) وابن أبي شيبة في مصنفه (٩٥٢) .

بالإقامة في أرض يهانون فيها ويظلمون ، ولديهم القدرة على الهجرة منها والفرار إلى أرض سواها ، فيقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ... ﴾ [النساء: ٩٧] .

وهكذا نجد دائرة المنكرات تتسع لتشمل كثيراً مما يعده الناس في صلب السياسة[١] .

ويؤكد الشيخ أن ما يعتقده البعض من العبادات أنها عبادة بين العبد وربه، أو كونها عبادة محضة قد ينظر إليها بمنظور آخر على أنها درب من دروب السياسة، ويعني الشيخ بذلك عبادة الصلاة وما فيها من تلاوة قرآن، أو دعاء قنوت فيقول :

ثم إن المسلم قد يكون في قلب الصلاة ، ومع هذا يخوض في بحر السياسة حتى يتلو من كتاب الله الكريم وآيات تتعلق بأمور تدخل في صلب ما يسميه الناس « سياسة » .

فمن يقرأ في سورة المائدة : الآيات التي تأمرنا بالحكم بما أنزل الله . وتدمغ من لم يحكم بما أنزل الله بالكفر والظلم والفسوق : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧] . يكون قد دخل في السياسة ، وربما اعتبر من المعارضة المتطرفة ، لأن بتلاوة هذه الآيات يوجه الاتهام إلى النظام الحاكم ، ويحرض عليه ، لأنه موصوف بالكفر أو الظلم أو الفسق أو بها كلها .

ومثل ذلك من يقرأ الآيات التي تحذر من موالاة غير المؤمنين .

ومن قنت « قنوت النوازل » المقرر في الفقه ، وهو الدعاء الذي يدعى به في الصلوات بعد الرفع من الركعة الأخيرة وخصوصاً في الصلاة الجهرية ، وهو مشروع عندما تنزل بالمسلمين نازلة ، كغزو عدو ، أو وقوع زلزال ، أو فيضان، أو مجاعة عامة، أو نحو ذلك . .[٢]

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص ٦٢٥ وما بعدها بتصرف .

(٢) انظر : المرجع السابق ج٢ ص ٦٢٨ بتصرف .

والغريب أن من ينكرون على دعاة الإسلام تدخلهم في السياسة إنما ينكرون عليهم ما أباحوه لأنفسهم ، فهم يسيسون الدين ويدينون السياسة وقت الحاجة ، وحسب أمزجتهم ، يقول الشيخ : وإذا كان هؤلاء المتطاولون ينكرون إدخال الدين في السياسة والسياسة في الدين ، فإنهم يقعون فيما أنكروه على دعاة الإسلام من إدخال السياسة في الدين والدين في السياسة[١] .

ويفضح الشيخ أفعال هؤلاء فيقول : والذين زعموا أن الدين لا علاقة له بالسياسة من قبل ، والذين اخترعوا أكذوبة « لا دين في السياسة ، ولا سياسة في الدين » من بعد ، أول من كذبوها بأقوالهم وأفعالهم .

لا زلت أذكر كيف صدرت الفتاوى في معتقل الطور سنة ١٩٤٨م ، ١٩٤٩م ، بأننا ـ نحن الدعاة إلى تحكيم القرآن وتطبيق الإسلام ـ نحارب الله ورسوله ونسعى في الأرض فساداً فحقنا أن نقتل أو نصلب ، أو تقطع أيدينا وأرجلنا من خلاف ، أو ننفى من الأرض ![٢]

السياسة التي عني بها الشيخ :

والسياسة التي عني بها الشيخ لم تكن هي السياسة المحلية التي تعنى بالشؤون المحلية الداخلية للبلد الذي يقطنه ، أو القطر الذي يعيش فيه ، بل كانت السياسة عند الشيخ سياسة عالمية ، يعي الشيخ من خلالها ما يبيت لأمته الإسلامية بالليل ، وما يكال لها بالنهار . نعم لم تكن سياسة الشيخ سياسة محدودة أو سياسة محلية ، لكنها كانت سياسة عالمية .

وحين تحدث الشيخ عما يسمى بظاهرة « العولمة » كان الشيخ مدركاً لخطورة هذه الظاهرة الأخطبوطية ، التي تريد أمركة العالم سياسياً واقتصادياً وفكرياً وثقافياً ودينياً .

وفي كتابه « المسلمون والعولمة » أوضح الشيخ الرؤية الإسلامية لهذه

(١ ، ٢) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص ٦٣٣ وما بعدها بتصرف .

الظاهرة المبتكرة، أو المصطلح المصطنع ، ويعد الكتاب كتاباً سياسياً أكثر منه كتاباً دينياً ، وقلّ أن يكتب في هذا المجال شيخ « معمم » أو فقيه « مشيخ » .

والمطالع لآراء الشيخ في هذا الكتاب يرى بعمق مدى اضطلاع الشيخ في الشؤون السياسية العالمية ، لذا فإن الشيخ يقرر في الكتاب بأن العولمة : إنما تصب في النهاية لصالح الأقوياء ضد الضعفاء ، ولكسب الأغنياء ضد الفقراء ، ولمصلحة الشمال الغني ضد الجنوب الفقير .

وهذا طبيعي ، لأن التكافؤ مفقود في حلبة المصارعة أو الملاكمة ، بين الأوزان الثقيلة والأوزان الخفيفة ، بل بين المصارع المدرب الممارس ، وبين خصمه الضعيف ، الذي سيسقط لا محالة في بداية اللقاء من أول ضربة .

وماذا يمكن أن نتصور من نتائج سباق يفتح ميدانه لمن يريد المشاركة فيه؟ كيف يكون مصير من يركب الجمل أو الحمار إذا سابق من يركب السيارة؟

إنه الاستعمار القديم بوجه جديد ، واسم جديد ، إن الاستعمار يغير لونه كالحرباء ، يغير جلده كالثعبان ، ويغير وجهه كالممثل ، ويغير اسمه كالمحتال ، ولكنه هو هو ، وإن غير شكله ، وبدل اسمه [١].

وحين يتحدث الشيخ عن عولمة السياسة فيؤكد بأن عولمة السياسة : هي إخضاع الجميع لسياسة القوة العظمى ، والقطب الأوحد في العالم وهو الولايات المتحدة الأمريكية[٢].

ويوضح الشيخ خطورة هذه العولمة للقطب الأوحد فيقول : بيد أن الخطر الحقيقي يتجلى للعيان ، حين يغيب أحد القطبين عن الساحة ، وينفرد القطب الآخر بها ، فيتأله في الأرض ، ويقول ما قال فرعون : أنا ربكم الأعلى، أو ما قال نمروذ لإبراهيم : أنا أحيي وأميت[٣] .

---

(١) انظر : المسلمون والعولمة ص ١٦ ، ١٧ .

(٢، ٣) انظر : المرجع السابق ص ٢١ .

ويضرب الشيخ مثلاً للعولمة السياسية بالغطرسة الأمريكية في حرب الخليج الثانية فيقول: وهذا الذي رأيناه في أزمة الخليج الشهيرة ، حين اعتدى صدام حسين ـ بإغراء من الغرب وإيعاز خفي من أمريكا نفسها ـ بغزو الكويت .

هنا انتهزت أمريكا الفرصة ـ التي هيأتها هي ـ لإثبات قدرة العولمة أو النظام العالمي الجديد بحشد قوى العالم ، وتجميع آليات هائلة على أرض الخليج لتأديب صدام ، وتحجيم العراق .

ويفضح الشيخ العولمة السياسية أو السياسة العالمية متمثلة في القطب الأوحد أمريكا، وعدم نزاهتها، وكيلها بمكيالين، ورضوخ الكل لها لأنها انفردت بقيادة العالم ففعلت ما شاءت بمن شاءت وقتما شاءت فيقول : وأثبت النظام العالمي «العولمي» الجديد قدرته مرة أخرى في الحروب الأهلية بين شعوب يوغسلافيا، في حرب البوسنة والهرسك مع الصرب، وحرب كوسوفو مع الصرب، فهو يتدخل في الوقت الذي يريد ، بالقدر الذي يريد ، لتحقيق الهدف الذي يريد .

فهو لا يتحرك عادة في أول الأمر، بل بعد أن يترك القوى المعادية للمسلمين تمارس إجرامها ، وتقتل الآمنين والمدنيين، وتدمر المنشآت والمساجد والمدارس ، وتحرق المصانع والمزارع ، ولا تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم .. وبعد ذلك يتدخل النظام العالمي .

على حين نرى أمريكا والغرب ضغطوا على أندونيسيا من أجل استقلال «تيمور الشرقية» وهي جزء من أندونيسيا ، وأهلها أندونيسيون ، ولغتهم الأندونيسية ، ولكن عمل «التنصير» فيهم عمله ، حتى كسب أغلبية فيهم[1].

ويؤكد الشيخ على خطورة العولمة السياسية على عالمنا الإسلامي الذي يراد له أن تستأصل شأفته ، وأن يمسح من على الخارطة ، أو يمحى من الوجود ، خدمة لإسرائيل فيقول: إن العولمة السياسية تسكت عن حقوق المسلمين

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٢٣ بتصرف .

المضطهدين في كثير من بلاد العالم: في كشمير، وفي الفلبين ، وفي روسيا ، وفي الجمهوريات الإسلامية في آسيا ، وفي أثيوبيا، وفي أرتيريا، وفي عدد من بلاد أوربا ، وفي بعض الدول العربية . في حين تزعم أن هناك اضطهاداً للأقليات غير المسلمة في مصر وفي السودان، بل تزعم أن الشريعة الإسلامية تظلم الأقليات، وتجور على حقوق المرأة، ولا تعترف بحقوق الإنسان، وتندد بالمملكة العربية السعودية في ذلك، وهذا كله من الحيف والجور عن الحق ، والميل عن الصراط المستقيم .

ومن المهم أن نذكر هنا أن العولمة السياسية إن نسيت شيئاً فلن تنسى أمراً مركزياً مهماً هو خدمة إسرائيل [1].

لقد أطلت الاقتباس من كلام الشيخ في هذه النقطة ، ولكنها إطالة عن عمد لتتضح الرؤية السياسية لدى الشيخ حفظه الله .

* * *

(١) انظر : المسلمون والعولمة ص ٢٥ .

القسم الثاني : الشمول في ميدان الدعوة

لم يهتم الشيخ القرضاوي في دعوته بنوع واحد من المدعوين؛ بل كانت دعوته: دعوة شمولية ، حيث وجه الشيخ دعوته إلى كل من :

١ – الأفراد .

٢ – شباب الصحوة الإسلامية .

٣ – المرأة .

٤ – الدعاة المصلحين .

٥ – الأقليات الإسلامية .

٦ – عموم المسلمين .

٧ – الحكام .

٨ – قضايا الأمة .

٩ – أهل الكتاب .

وسوف نتحدث عن كل نوع من هذه الأنواع بشيء من التفصيل .

أولاً : شمول دعوته للأفراد :

اهتم الشيخ القرضاوي بدعوته للفرد المسلم على أساس أن المجتمع المسلم لا يتكون إلا من مجموعة أسر مسلمة ، وهذه الأسر المسلمة ، لا تتكون إلا من أفراد مسلمين ، ولهذا تعالت صيحات الشيخ لإصلاح الفرد أينما كان وكيفما كان .

يقول الشيخ : وهل المجتمع إلا مجموعة من الأفراد ربطت بينهم روابط معينة ، فكان صلاح الفرد لازماً لصلاح المجتمع فالفرد أشبه باللبنة في البنيان ، ولا صلاح للبنيان إذا كانت لبناته ضعيفة [١] .

وتبدأ دعوة الشيخ القرضاوي للفرد من حيث توضيح النظرة إليه ، ولهذا عارض الشيخ نظرة الماديين للإنسان والتي تصور الإنسان بأنه كتلة من اللحم والدم والعظام والأعصاب والأجهزة والغدد والخلايا ، كما تصوره بأنه جنس من

---

(١) انظر ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده ص ٥ .

الهوام والحشرات والزواحف والقرود غير أنه ترقى أو تطور في سلسلة من حلقات التطور .

هذه هي النظرة المادية للإنسان فهو حيوان ترقّى ، أو حشرة تطورت ، ولكن الشيخ القرضاوي ينظر للإنسان نظرة مغايرة ينظرها بعين الإسلام وروح الإسلام ولذلك فهو يرى أن الإنسان : مخلوق كريم على الله ، خلقه ربه في أحسن تقويم ، وصوره فأحسن صورته ، خلقه بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وميزه بالعلم والإرادة ، وجعله خليفته في الأرض ، ومحور النشاط في الكون ، وسخر له ما في السموات وما في الأرض جميعاً وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، فكل ما في الكون له ولخدمته ، أما هو فجعله تعالى لنفسه.

حقاً إن الإنسان شيء ضئيل بالنسبة لسعة الكون من حيث حجمه وحياة جسمه ، ولكنه من حيث روحه وكيانه المعنوي شيء كبير ، وهل الإنسان إلا ذلك الروح وذلك الكيان المعنوي ؟ (١)

ويقارن الشيخ القرضاوي بين النظرة المادية للإنسان وبين النظرة الإسلامية فيظهر الفرق الواضح بين النظرة المادية؛ التي تشعر الإنسان إما بالتفاهة والضياع وإما بالغرور والكبر ، وبين النظرة الإسلامية التي تشعر الإنسان بالكرامة والرفعة ، يقول الشيخ : إن اعتقاد الإنسان بكرامته على الله ، ومكانه في الملأ الأعلى ، ومركزه القيادي في هذا الكون ، يجعله يشعر بذاته ، ويغالي بقيمة نفسه لأنه يعتز بانتسابه إلى الله ، وارتباطه بكل ما في الوجود ، فيحيا عزيز النفس ، عالي الرأس ، أبياً للضيم ، عصياً على الذل والهوان، بعيداً عن الشعور بالتفاهة والضياع والعدم والفراغ .. وهذا الإحساس الذي يعيش به المؤمن ليس شيئاً هيناً ولا بضاعة مزجاة ، إنه كسب كبير ، ومغنم للإنسان .. كسب له في عالم الشعور والتصور وفي عالم الواقع والسلوك .. (٢)

ثم يصل الشيخ إلى أعظم الفروق بين الفرد المسلم وغيره فيقول : وما أعظم الفرق بين رجلين : يشعر أحدهما وهو يعتقد في نفسه أنه مجرد حيوان من

---

(١) انظر : الإيمان والحياة ص ٥١ ، ٥٢ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٥٩ ومابعدها .

فصيلة راقية ليس له قبل حياته جذور ، وليس له بعد موته امتداد ، وليس له في حياته صلة بالوجود الكبير أكثر من صلة القرود به .. ويعيش الآخر وهو يعتقد أنه خليفة الله في الأرض ونائبه في إقامة الحق وإفاضة الخير وإشاعة الجمال في هذا الكون ! ويشعر بأن الكون كله في خدمته ، والملائكة الكرام في حراسته ، وأن رب الوجود في معيته ، وأنه من فصيلة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وأن وجوده لا ينتهي بالموت ، وداره لا تنتهي بالقبر ؛ فإنما خلق للخلود وللأبد الذي لا ينقطع ولا يزول .

إن المغايرة بين النظرتين تتمثل في أمور جوهرية ثلاثة :

١ – في منزلة الإنسان في هذا الكون .

٢ – وفي طبيعته التي فطر عليها .

٣ – وفي غايته ووظيفته في هذه الحياة [١].

وفي مقال للشيخ تحت عنوان «الإنسان في الإسلام»[٢] رد الشيخ على المستشرق النمساوي الأصل «فون جرونيباوم» الذي يزعم بأن الإسلام لم يعترف للإنسان إلا بقليل من التقدير ، وأن القرآن ينزع إلى إقناع الإنسان بمهانة أصله الجسدي ، ويستشهد المستشرق لكلامه بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون :١٢] .

ولكن الشيخ يرد على المستشرق موضحاً إعلاء القرآن لقدر الإنسان فيقول : لقد عنى القرآن بالحديث عن الإنسان في عشرات من آياته ، وعشرات من سوره، وحسبنا أن أول فوج من آيات الوحي الإلهي استقبله قلب رسول الله ﷺ - وهي خمس آيات - لم تغفل شأن الإنسان ، وعلاقته بربه : علاقة الخلق والإيجاد، وعلاقة التعليم والهداية ، واختارت الآيات لفظ «الرب» لما يشعر به من التربية والرعاية والترقية في مدارج الكمال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ - ٥] .

(١) انظر : المرجع السابق ص ٦٠ .

(٢) نشره الشيخ في كتابه : من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا .

(٣) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ٧١ .

بهذه النظرة المعتدلة وجه الشيخ القرضاوي دعوته إلى الأفراد ، لأنه عاش محنة الفرد المسلم في المجتمعات المعاصرة وعبر عنها بقوله : وقد لمسنا في عصرنا محنة الفرد المسلم في المجتمعات التي تلتزم بالإسلام منهاجاً لحياتها ، ناهيك بالمجتمعات التي تعادي شريعته ، وتطارد دعوته . وكيف يعيش هذا الفرد في توتر وقلق وحيرة ، نتيجة لما يحس به من تناقض صارخ بين ما يؤمن به من أوامر دينه ونواهيه ، من جهة ، وما يعايشه ويضغط عليه من أفكار المجتمع ومشاعره وتقاليده وأنظمته وقوانينه ، التي يراها مخالفة لتوجيهات عقيدته ، وأحكام شريعته ، ومواريث ثقافته ، من جهة أخرى [1].

من هنا كانت توجيهات الشيخ للفرد أينما كان ، وتعد كتب الشيخ جلها موجهة للفرد المسلم ، ودعوة له ، وقد يكون من أخص كتب الشيخ لتكوين الفرد المسلم ما كتبه الشيخ في سلسلته القيمة « في فقه السلوك في ضوء الكتاب والسنة » والتي صدر منها أربعة أجزاء .

وكذلك سلسلة عقائد الإسلام والتي صدر منها أربعة أجزاء .

ومن كلمات الشيخ القرضاوي في دعوته للفرد المسلم قوله : ومن معاني الإيجابية في تربية الأخ المسلم : ألا يكون همه التلذذ بالعبادة الشخصية والانحصار في الأنس بالذكر ، والمتعة بالفكر ، من غير التفات إلى أمراض المجتمع ومشكلات الناس ، وما فشا بينهم من انحراف في العقيدة ، وابتداع في العبادة ، وانحلال في الخلق ، وانهيار في التماسك ، فيقف من هذا كله موقف المتفرج المستسلم ، أو المتحسر المتندم ، أو القانط اليائس ، أو النائح المولول ، دون أن يقوم بخطوة إيجابية لإصلاح الفساد ، وتقويم العوج ، ودعوة الشرار إلى الخير ، والمبتدعين إلى الاتباع ، والمنحرفين إلى الاستقامة ، والمتكاسلين إلى العمل ، والفاترين إلى الحماس .

ويبدو أن الشيخ في دعوته للأفراد إنما يريد بناء رجال لا أشباه رجال ، ولا أنصاف رجال ، إنه لا يريد رجالاً ممن قال فيهم الشاعر :

يثقلون الأرض من كثرتهم ثم لا يغنون في أمر جلل

---

(١) انظر : ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده ص ٥ .

ولا ممن عناهم الشاعر بقوله :

إني لأفتح عيني حين أفتحها . على كثير ولكن لا أرى أحداً

لكنه يريد أن يربي رجالاً ممن عناهم الشاعر بقوله :

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمر عنى

ويقول الشيخ حفظه الله في وصف هذا الفرد المرجو : إن الأمم والرسالات تحتاج إلى المعادن المزخورة ، والثروات المنشورة ، ولكنها تحتاج قبل ذلك إلى الرؤوس المفكرة التي تستغلها ، والقلوب الكبيرة التي ترعاها ، والعزائم القوية التي تنفذها : إنها تحتاج إلى الرجال .

الرجل أعز من كل معدن نفيس، وأغلى من كل جوهر ثمين؛ ولذلك كان وجوده عزيزاً في دنيا الناس .

الرجل الكفء الصالح هو إكسير الحياة، وروح النهضات، وعماد الرسالات، ومحور الإصلاح .

أعد ما شئت من معامل السلاح والذخيرة ، فلن تقاتل الأسلحة إلا بالرجل المحارب، وصغ ما شئت من القوانين واللوائح ، فستظل حبراً على ورق ما لم تجد الرجل الذي ينفذها، وضع ما شئت من مناهج للتعليم والتربية ، فلن يغني المنهج إلا بالرجل الذي يقوم بتدريسه ، وأنشئ ما شئت من لجان ، فلن تنجز مشروعاً إذا حرمت الرجل الغيور !! [1]

ولم ينس الشيخ أن يولي اهتمامه البالغ بالأفراد المسنين؛ الذين هم في مرحلة الشيخوخة، وقد أفرد الشيخ لهذه الفترة العمرية كتيبا صغيرا، أسماه : « حقوق الشيوخ و المسنين في ضوء الشريعة الإسلامية ، صدر تحت سلسلة محاضرات القرضاوي »[2] .

ثانياً : شمول دعوته للمرأة : [3]

أشاع دعاة إنصاف المرأة ـ زعموا ـ بأن المرأة نصف المجتمع ، وأن من حق هذا

---

(١) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ١٤٧ ـ ١٤٨ بتصرف .

(٢) أصل هذا الكتيب : محاضرة ألقاها الشيخ في الكويت، بطلب من المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية.

(٣) تقوم إحدى الباحثات في الجامعة الأردنية بإعداد رسالة عن : المنهج التربوي للمرأة في فكر القرضاوي.

النصف ألا يهمش أو يظلم ، أو يهضم حقه ، ولكن الإسلاميين ودعاة الصحوة الإسلامية رفضوا هذا القول ، فلم يرضوا بأن تكون المرأة نصف المجتمع، ولكنها المجتمع كله؛ لأنها وإن كانت النصف من جهة العدد فهي الكل من جهة التأثير ، لأنها تربي النصف الآخر .

ولذلك لم يغفل الشيخ القرضاوي عن المرأة في منهجه الدعوي بل شملها بكثير من العناية والاهتمام، وقد خصها الشيخ ببعض كتبه إما كلياً وإما ضمنياً، ومن الكتب التي تناول فيها الشيخ قضايا المرأة :

١ – مركز المرأة في الحياة الإسلامية[١] .

٢ – النقاب للمرأة بين القول ببدعيته والقول بوجوبه[٢] .

٣ – فتاوى للمرأة المسلمة [٣].

هذا فضلاً عما تضمنته كتب الشيخ الأخرى كالحلال والحرام، وزواج المسيار وغيرها .

ويعد الشيخ من أنصار المرأة ومن منصفيها ، ومن أبرز الدعاة الذين أنصفوا المرأة ودعوا إلى تحريرها من الظلم الاجتماعي البين الذي نسب أحياناً إلى الدين ، ولكن دعوة الشيخ إلى تحرير المرأة لم يكن من منطلق قاسم أمين ، أو نوال السعداوي ومن على شاكلتهم ، بل إنصاف نابع من كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ .

وقد عد الشيخ من أهم إخفاقات الأمة في القرن العشرين إخفاقها في مجال المرأة ويوضح الشيخ ذلك فيقول : ومن المجالات التي أخفقنا فيها إلى حد كبير : قضية المرأة التي ضاعت بين طرفي التفريط والإفراط أو بين جاهليتين ، كما قال الأستاذ عبد الحليم أبو شقة رحمه الله : جاهلية القرن الرابع عشر ـ ويعني بها : التي ورثت عن عصور الانحطاط في تاريخنا الإسلامي تقاليد التضييق على

---

(١) هذا الكتاب في الأصل : أحد فصول كتاب ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده .

(٢) هذا الكتاب في الأصل : سؤالان أجاب الشيخ عنهما في كتابه فتاوى معاصرة .

(٣) هذا الكتاب في الأصل : مجموعة أسئلة أجاب عنها الشيخ في كتابه فتاوى معاصرة .

المرأة ـ وجاهلية القرن العشرين . ويعني بها : التي نقلت عن الحضارة الغربية تقاليد التحلل للمرأة من فضائل العفة والإحصان والحياء والاحتشام [١].

وتبرز ملامح منهج الشيخ في دعوته إلى المرأة في عدة جوانب أهمها :

١ ـ تكريم المرأة إنساناً ، ويؤكد الشيخ بأن الإسلام كرم إنسانية المرأة فلم ينكر إنسانيتها كما زعم البعض ، ولم يعتبرها مخلوقاً خلق لخدمة الرجل كما زعم آخرون ، وإنما جعلها مع الرجل كجناحي طائر ، أو رئتي إنسان ، فكما أن الطائر لا يطير إلا بجناحيه ، وأن الإنسان لا يجيد الحياة إلا برئتيه ، فكذلك المجتمع لا يصلح إلا بنوعيه الرجل والمرأة ، لأنهما ليسا ندين ولا متنافسين ، ولا متخاصمين ، بل متحابين متعاونين متعاطفين[٢] .

٢ ـ تكريم المرأة أنثى ، حيث اعترف الإسلام بأنوثة المرأة [٣].

٣ ـ تكريم المرأة باعتبارها أماً : فلا يعرف التاريخ ديناً ولا نظاماً كرم المرأة باعتبارها أماً، وأعلى من مكانتها مثل الإسلام، وهذا ظاهر في آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ [٤].

٤ ـ تكريم المرأة بنتاً : ويؤكد الشيخ أيضاً بأن الإسلام حين جاء كرم المرأة بنتاً [٥].

٥ ـ تكريم المرأة باعتبارها زوجة : لقد أوضح الشيخ القرضاوي نظرة الإسلام للمرأة الزوجة فليست رجساً من عمل الشيطان كما يظنها البعض ، وليست آلة متاع للرجل ، أو طاهية لطعامه كما يظنها الآخرون [٦].

٦ ـ تكريم المرأة باعتبارها عضواً في المجتمع : كما أكد الشيخ القرضاوي

---

(١) انظر : أمتنا بين قرنين ص ١٥٥ .

(٢) انظر : ملامح المجتمع المسلم ص ٣٢١ وما بعدها بتصرف ، ومركز المرأة في الحياة الإسلامية ص ٩ وما بعدها باختصار .

(٣) انظر : ملامح المجتمع المسلم ص ٣٦٤ وما بعدها بتصرف ، ومركز المرأة في الحياة الإسلامية ص ٣١ وما بعدها بتصرف.

(٤) انظر : ملامح المجتمع المسلم ص ٣٢٨ وما بعدها بتصرف ، ومركز المرأة في الحياة الإسلامية ص ٦١ وما بعدها باختصار .

(٥) ملامح المجتمع المسلم ص ٣٣٢ وما بعدها بتصرف ، ومركز المرأة في الحياة الإسلامية ص ٦٨ وما بعدها باختصار .

(٦) انظر : ملامح المجتمع المسلم ص ٣٣٧ ، ومركز المرأة في الحياة الإسلامية ص ١٣٠ .

على اهتمام الإسلام بالمرأة كعضو من أعضاء المجتمع له أهميته وله قيمته ، فليست المرأة كما يزعم البعض كماً مهملاً أو عضواً زائداً ، لا بل هي أصل أصيل في المجتمع[١] .

موقف القرضاوي من الشبهات والقضايا المثارة حول المرأة :

منذ زمن والشبهات تثار حول المرأة ، تارة من أعداء الإسلام ، وأخرى من بني جلدتنا؛ ممن تزيوا بزينا وتسموا بأسمائنا ، لكنهم جعلوا قبلتهم إلى باريس أو موسكو أو واشنطن أو لندن ، واستبدلوا بالبيت الحرام البيت الأبيض ، وزعموا أنهم أنصار للمرأة ودعاة لتحريرها .

وقد أثار هؤلاء الشبه ، وألقوا التهم ، وكان في المقابل لهم نفر يدعون إلى الإسلام بإخلاص ، ويدافعون عن المرأة بغيرة وحمية ، دفعتهم هذه الغيرة أو تلك الحمية إلى إجحاف المرأة أحياناً باسم الدين ، وأخرى باسم العرف ، وثالثة باسم المصلحة .

وكان للشيخ القرضاوي موقفاً وسطاً كعادته من هذه القضايا .ومن أهم هذه القضايا :

القضية الأولى : عمل المرأة [٢]:

تعد قضية عمل المرأة من القضايا الشائكة بين الإسلاميين وغيرهم ، فبينما نرى من الناس من يبيح للمرأة العلم بدون قيد ولا شرط [٣] ، نرى في المقابل من يحرم عمل المرأة بالإطلاق[٤] ، ومن باب سد الذريعة ، وغلق باب الفتنة .

---

(١) انظر : المرجعين السابقين ص ٣٨٢، ص ١٣٠ .

(٢) ضربت صفحاً عن قضية تعليم المرأة لأنه وإن كان من الإسلاميين من يرى عدم ذهابها إلى الجامعة ويكتفي بالثانوية وأحياناً بالإعدادية بل وأحياناً بالابتدائية وتعلم القراءة والكتابة، لكن هذا أمر غير ذي بال، والداعون إليه قلة لا تذكر ، وعلى كل فإن رأي الشيخ في تعليم المرأة واضح وبين؛ ولعله يظهر ضمنياً إذا علم رأي الشيخ في عمل المرأة .

(٣) هؤلاء أباحوا للمرأة أن تعمل مضيفة وراقصة وخادمة أو سكرتيرة لرجل عزب ، وأقنعوا المرأة بأحقيتها في ذلك ، حتى اقتنعت هي بهذا العمل الرخيص ، وقد سمعنا «راقصة» تعقب على فوزها بإحدى جوائز أهل العفن الفني قائلة : (إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً) .

(٤) وقد سمعت أحد أنصار هذا الرأي يؤكد على حرمة عمل المرأة، ولكنه ناقض نفسه بأن زوجته حين تمرض فإنه لا يطببها عند طبيب ولكن عند طبيبة ، فيا للعجب !! وكان هذا في قناة قطر الفضائية .

وكعادة الشيخ القرضاوي وقف موقفاً وسطاً ، فلم يذهب إلى الإباحة مطلقاً ، ولا إلى التحريم مطلقاً ، لكنه حدد وظيفة المرأة الكبرى، وعملها الأول والأعظم الذي لا ينازعها فيه منازع ، ولا ينافسها فيه منافس ، ألا وهو تربية الأجيال[1] ، تلك الوظيفة الرئيسية التي هيئت لها المرأة ، وجبلت عليها .

أما عمل المرأة خارج بيتها فيرى الشيخ بأنه :

١ – ليس محرماً شرعاً .

٢ – وأنه في ذاته جائز .

٣ – وقد يكون مطلوباً إذا احتاجت إليه المرأة ، إذا كانت مطلقة أو أرملة وليس لها مورد ولا عائل .

٤ – وقد يكون مطلوباً إذا احتاجت الأسرة إلى عملها كان تعاون زوجها ، كما في مساعدة أسماء بنت الصديق لزوجها الزبير .

٥– أو مطلوباً إذا احتاج المجتمع إلى ذلك كما في تطبيب المرأة وتعليم المرأة[2].

وحين ذهب الشيخ إلى إباحة العمل فقد قيده الشيخ بضوابط ثلاثة :

١ – أن يكون العمل في ذاته مشروعاً .

٢ – أن تلتزم المرأة العاملة إذا خرجت أدب المرأة المسلمة في الزي والمشي والكلام والحركة .

٣ – ألا يكون عملها على حساب واجبات أخرى لا يجوز لها إهمالها ، كواجبها نحو زوجها وأولادها[3].

القضية الثانية: ترشيح المرأة للمجالس النيابية :

وهذه القضية تلحق بالقضية الأولى؛ وقد كان للشيخ القرضاوي رأي وسط بين المانعين بإطلاق والمجيزين بإطلاق، وكان دافع الشيخ للإباحة أموراً ثلاثة :

---

(١) انظر : لقاءات ومحاورات ج١ ص ١٧٧ .

(٢) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ باختصار ، ولقاءات ومحاورات ج١ ص ١٧٧ ، وملامح المجتمع ص ٣٩١ وما بعدها ، ومركز المرأة في الحياة الإسلامية ص ١٤٥ .

(٣) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ باختصار ، ولقاءات ومحاورات ج١ ص ١٧٨ ، ملامح المجتمع ص ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ومركز المرأة في الحياة الإسلامية ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

١ ـ أن المانعين لترشيح المرأة للمجالس النيابية ليس عندهم دليل صريح ثابت يلزم بالمنع .

٢ ـ أن كثيراً من الأحكام والفتاوى ينبغي ألا تنفصل عن عصرها وبيئتها؛ وهذا معناه أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والحال والعرف .

٣ ـ أن العلمانيين يتبارون بقضية المرأة ، ويحاولون أن يلصقوا بالإسلام ما هو منه براء ، وفي الموافقة على منع ترشيح المرأة احتجاج للعلمانيين فيما ذهبوا إليه .

وقد رد الشيخ على أدلة المانعين ، وذهب إلى أن ما ذهبوا إليه من أدلة للتحريم لا يعد نصاً صريحاً صحيحاً في القضية ، وتتمحور أدلة المانعين في أمور أهمها :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ [الأحزاب : ٣٣] : وقد رفض الشيخ الاستدلال بهذه الآية لأنه استدلال في غير موضعه ، إذ أن الآية خاصة بنساء النبي ﷺ ، وعليهن من التغليظ ما ليس على غيرهن ، وأن عائشة خرجت من بيتها كما في « معركة الجمل » ، وأن المرأة الآن خرجت بالفعل إلى المدرسة والجامعة وغيرها ، وأن الحاجة تقتضي من « المسلمات الملتزمات » أن يخضن هذا المضمار .

٢ ـ سد الذرائع : وقد رد الشيخ على هذا الدليل وقال : إن سد الذرائع مطلوب؛ ولكن المبالغة في سد الذرائع كالمبالغة في فتح الذرائع .

٣ ـ منع ولاية المرأة على الرجل : وقد أجاب الشيخ على ذلك بأن المقصود من ولاية الرجل وقوامته أن تكون في بيته ، أما خارج البيت فليست له قوامة على سائر النساء .

٤ ـ حديث « لن يفلح قوم ولوا أمرهم المرأة »[١] : وقد رد الشيخ أيضاً الاستدلال بهذا الحديث لأن المقصود من الحديث الولاية العامة أما الولاية الخاصة فليست مقصودة ، ودليل ذلك أن سبب ورود الحديث : هو أن الفرس بعد وفاة إمبراطورهم ولّوا عليهم ابنته فقال النبي ﷺ حديثه المتقدم [٢] .

---

(١) رواه البخاري في المغازي برقم (٤٤٢٥) عن أبي بكرة .

(٢) فتاوى معاصرة ج٢ ص ٣٧٢ وما بعدها بتصرف .

وقد سبق الشيخ في مثل هذه القضية أئمة أعلام، حكموا للمرأة بتولي المناصب القضائية والسياسية؛ فقد أجاز أبو حنيفة للمرأة أن تتولى القضاء فيما تجوز شهادتها فيه أي في غير الأمور الجنائية، وزاد الطبري وابن حزم جواز توليتها القضاء في الجنايات وغيرها[1].

ومما ينبغي التأكيد عليه أن الشيخ لا يعد ذلك واجباً أو لازم الحدوث، ولكن ينظر إليه في ضوء مصلحة المرأة، ومصلحة الأسرة، ومصلحة المجتمع، ومصلحة الإسلام[2].

القضية الثالثة : الاختلاط :

هذه قضية أخرى ظهر فيها رأيان :

١ ـ رأي للمستغربين من عبيد الفكر الغربي، ودعاة تقليد الغرب في كل شيء، وهؤلاء هم دعاة الاختلاط المفتوح أو الاختلاط المطلق، اختلاط في الزمان وفي المكان، في الحدائق والمنتديات، كما في المدارس والجامعات؛ فضلاً عن كونه اختلاطاً في الأسرة وفي البيوتات.

٢ ـ رأي غلّق الباب وأحكم غلقه، وأوصد « قفله » وألقى المفتاح في اليم مخافة أن يفتح الباب، أو يكسر القفل.

وكان للشيخ رأي لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ؛ لكنه رأي وسط ؛ لم تكن وسطيته من الهوى أو ضغط المجتمع ؛ لكنها وسطية تنطلق من وسطية الدين.

وقد أوضح الشيخ في بداية رأيه في الاختلاط بأن الكلمة نفسها كلمة دخيلة على المعجم الإسلامي لم يعرفها تراثنا الطويل العريض طوال القرون الماضية؛ وربما كان أولى منها كلمة « لقاء » أو « مقابلة » أو مشاركة[3].

وبعيداً عن الأسماء والعناوين فقد كان الشيخ وما يزال يرى بأن المرأة في خير القرون لم تكن حبيسة بيتها أو قعيدة دارها.

بل يؤكد الشيخ : أن المرأة كانت مشاركة للرجل في عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين وأيام السلف، ويستدل الشيخ لما ذهب إليه مما أسماه

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص٣٢٧، ومركز المرأة في الحياة الإسلامية ص ٢٩.

(٢، ٣) انظر : المرجعين السابقين نفس الصفحات وما بعدها.

« الاختلاط المشروع » بحضور المرأة الجماعة والجمعة ، ووقوفهم خلف الرجال في مسجد واحد ومكان واحد، ولا أدل على ذلك من قول النبي ﷺ لأصحابه « لو أنكم جعلتم هذا الباب للنساء »[١] فأصبح لهن، وصار يعرف باسم « باب النساء » إلى يومنا هذا[٢] .

ويؤكد هذا حفظ أم سلمة لسورة « ق »[٣] من فم النبي ﷺ في المسجد .

وخروج وحضور النساء لمجالس العلم حتى مدحتهن عائشة رضي الله عنها .

وطلب النساء تخصيص يوم لهن دون الرجال كما في صحيح البخاري وقد وافقهن النبي ﷺ على ذلك .

بل طمحت المرأة إلى الغزو فغزت في البر كما هو الحال في أم سلمة وعائشة وأم سليم وأم عطية ، بل طمحت بأن تكون غازية في البحر فبشرها النبي ﷺ بذلك وأخبرها بالشهادة كما هو الحال في أم حرام بنت ملحان رضي الله عنها ، وقد عين عمر رضي الله عنه الشفاء بنت عبد الله العدوية محتسبة على السوق[٤] ، وفي هذا كله ما فيه من الاختلاط المشروع دون إبداء العورة أو إظهار السوءة ، أو تميع في مشية ، أو خضوع في كلمة .

ولهذا حين سئل الشيخ عن عيادة المرأة المسلمة للرجل المريض كانت إجابة الشيخ بمشروعية الزيارة ، ولم يكن استدلال الشيخ على مشروعية الزيارة لمجرد مجيء أحاديث الزيارة بألفاظ عامة تشمل الرجل والمرأة ، كما في قوله ﷺ « عودوا المريض »[٥]، لم يكتف الشيخ بعموم مثل هذا الحديث وغيره ، ولكنه اعتمد على ما عنون له الإمام البخاري في صحيحه تحت عنوان : « باب عيادة النساء للرجال »[٦] وفيه روى البخاري : « عادت أم الدرداء رجلاً من أهل المسجد من الأنصار »[٧].

---

(١) رواه أبو داود في الصلاة برقم (٤٦٣) عن ابن عمر وذكره الألباني في صحيح أبي داود رقم (٥٣٤) .

(٢) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص ٢٨٠ .

(٣) الحديث رواه مسلم في الجمعة (٨٧٢) عن عمرة بنت عبد الرحمن عن أخت لعمرة قالت : «أخذت سورة (ق) والقرآن المجيد من في رسول الله ﷺ يوم الجمعة».

(٤) انظر : المرجع السابق ص ٢٧٧ وما بعدها بتصرف .

(٥) رواه البخاري في المرضى رقم (٥٦٤٩) عن أبي موسى.

(٦) انظر : فتح الباري ج ١٠ ص ١١٤ .

(٧) رواه البخاري في كتاب المرضى، باب عيادة النساء للرجال.

ولكن الشيخ قيَّد هذه الزيارات بعدة شروط :

١ ـ أن تكون الزيارة في صورة جماعية لا فردية .

٢ ـ أن تلتزم المرأة بالقواعد الشرعية، والآداب المرعية؛ فلا خلوة، ولا تبرج، ولا تعطر، ولا خضوع بالقول[١] .

وكذلك كان موقف الشيخ من إلقاء السلام على النساء ؛ فقد تعجب الشيخ من امتناع بعض أساتذة الجامعة من إلقاء السلام على الفتيات بحجة أن السلام على النساء غير جائز، وقد رأى الشيخ أن هذا القول يخالف النصوص الصريحة الصحيحة؛ حيث جاءت الأحاديث بجواز إلقاء السلام مطلقاً من الرجال على النساء أو العكس ، بل بوب البخاري في صحيحه لذلك وقال : «باب تسليم الرجال على النساء والنساء على الرجال » وقد ذكر البخاري في الباب حديثين .

وقد أشار الشيخ القرضاوي إلى تقييد بعض العلماء جواز إلقاء السلام بأمن الفتنة ، وذكر الشيخ أقوال العلماء ناقلاً إياها عن ابن حجر رحمه الله [٢].

وذهاب الشيخ إلى جواز إلقاء السلام على المرأة إذا كان الرجل زائراً أو معلماً أو معالجاً، بخلاف المرأة التي تلقى الرجل في الطريق العام ، فقال الشيخ : فهنا لا يحسن السلام عليها؛ ما لم يكن بينه وبينها صلة وثيقة من نسب، أو رحم، أو مصاهرة، أو نحو ذلك[٣] .

وقد سخر الشيخ من دعاة الاختلاط المفتوح في شعره وسنذكره قريباً.

القضية الرابعة : المرأة والعمل النسوي في الحركة الإسلامية :

اهتم الإسلام بالمرأة عضواً عاملاً في المجتمع ، وقدمت المرأة المسلمة على مر العصور وكر الدهور دوراً بالغ الأهمية ، وكان لها في وقت الأزمات دور فعال،

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص ٢٨٧ وما بعدها بتصرف.

(٢) انظر : فتح الباري ج١٢ ص ٢٢١ .

(٣) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص ٢٧٠ وما بعدها بتصرف .

ولم تكن في يوم من الأيام بعيدة عن مشاكل أمتها ، أو ما يدور حولها من أزمات ونكبات .

وقد أشار الشيخ القرضاوي إلى ظاهرة سلبية في الحركة الإسلامية، وهى عدم إفراز أخوات على قدر المسئولية ويرجع الشيخ ذلك إلى أن رجال الحركة الإسلامية يحاولون دائماً أن يسيطروا على توجيه النساء، ولا يدعون لهن الفرصة الكافية للتعبير عن أنفسهن لبروز المواهب والقدرات النسائية الخاصة ، لتقود العمل بمعزل عن تحكم الرجال (١).

ولهذا فإن الشيخ يؤكد على ضرورة رفع الحجر عن النساء ، ورفع الوصاية عنهن؛ فليس من المعقول أن يفكر الرجال للنساء ، وأن يخطط الرجال للنساء في كل كبيرة وصغيرة ، ولا يمنع أن يكون هناك مشاورة ومناصحة ، ولكن لا تصل هذه المشاركة إلى حد التفكير المطلق أو وضع الخطط بأكملها ، دون مراعاة لظروف النساء ومشاعرهن الخاصة (٢).

وكما أوقع الشيخ باللائمة على الرجال الذين أوقفوا الزهرات من التفتح ، والقيادات النسائية من البروز ، والنوابغ النسائية من العمل ، والطاقات (الحوائية) من التنفيس ، فإن الشيخ أوقع باللائمة كذلك على النساء لأنهن كما يقول الشيخ: استسلمن لهذا الوضع، ورضين بحياة الدعة والسكون، وأن يفكر لهن الرجال بدل أن يفكرن لأنفسهن(٣).

القضية الخامسة: دية المرأة:

وفي هذه القضية أيضا وقف القرضاوي بجانب المرأة حيث إن الشيخ رأى القول بأن دية المرأة على النصف من دية الرجل قد اشتهر في تراثنا الفقهي، وأنه شاع بين المسلمين، كما أخذت به مذاهب المسلمين المتبوعة كلها: المذاهب الأربعة الشهيرة، والمذهب الظاهري والمذهب الزيدي ، والمذهب الجعفري، والمذهب الإباضي.

---

(١) انظر : أولويات الحركة الإسلامية ص ٦٤ .

(٢) راجع ما كتبه الشيخ في كتابه أولويات الحركة الإسلامية تحت عنوان « الحركة والعمل النسوي».

(٣) انظر : أولويات الحركة الإسلامية ص ٦٧ .

لكن الشيخ رأى أن هذا الرأي الذي ادعى البعض فيه الإجماع: لا يسنده نص صحيح الثبوت ، صريح الدلالة ، من كتاب ولا سنة ، كما لا يسنده إجماع ولا قياس ، ولا مصلحة معتبرة ، ولا قول صحابي ثابت[1] .

المرأة في شعر القرضاوي :

وكما اهتم القرضاوي بالمرأة في نثره ؛ نرى له اهتماماً بالغاً بها في شعره، والقارئ لشعر القرضاوي يرى أنه يعالج فيه قضايا المرأة ، ويبث ذلك في شعره بثاً، وكان هذا الاهتمام مبكراً، ويظهر ذلك من قصيدة كتبها الشيخ وألقاها في دار الإخوان؛ تعليقاً على ما نشر في الصحف من أن بعض الجمعيات النسائية اجتمع أعضاؤها، وكان لهن مطالب منها: ضرورة حذف «نون النسوة» من لغة الخطاب ، إذ كان مما جاء في هذه القصيدة:

ما الذي طالب النساء به اليو ... مِ : أطالبن انجلترا بالجلاء
طلب الغيد حذف نون إناث ... يا لها من مطالب شماء !
وغداً يطلبن (الذين) و(هذا) ... معرضات عن (هذه) و(اللائي)
وغداً يلتمسن بكراً وعمرا ... بدلاً من سعاد أو أسماء
لا تقولوا : هذا بعيد وناء ... ليس شيء على أولاء بناءِ[2]

وفي ديوان الشيخ الثاني «المسلمون قادمون» سجل الشيخ قصيدتين عن المرأة :

القصيدة الأولى : بعنوان «أم زائرة ولا مزور» وفيها سجل الشيخ قصة أم ترملت، وترك لها زوجها طفلاً وحيداً ، فوهبت شبابها لطفلها، ونذرت حياتها لوحيدها ، ثم شاء الله أن يكون رجلاً من رجال الدعوة ، فساقه زبانية العذاب

---

(١) انظر : دية المرأة في الشريعة الإسلامية نظرات في ضوء النصوص والمقاصد تحت الطبع.
(٢) انظر : ابن القرية والكتاب ج١ ص ٣٠٨ .

إلى سجونهم ، وأذاقوه العذاب الهون حتى مات، ولم تعلم أمه بموته، فلما سمح لها بالزيارة ذهبت لتجد مفاجأة لم تكن في الحسبان، فقد مات وحيدها منذ زمن، فكانت هذه القصيدة والتي بلغت (١٣٨) بيتاً .

القصيدة الثانية : وهي بعنوان «إليك يا ابنة الإسلام » وهي رسالة صادقة ودعوة مخلصة من أب مشفق ، ووالد حنون؛ كما أنها دعوة إيمانية برؤية واقعية من داعية بصير ومرب خبير ؛ يوجه فيها لابنة الإسلام النصيحة الصادقة ، والدعوة الواضحة ، ويحذرها من الدعوات الباطلة، والادعاءات المزيفة ، كما يرسم لها طريقها الواضح، ورسالتها العظمى ، وهدفها الأسمى من خلال آيات القرآن الخالدة وأحاديث المصطفى، وقد بلغت هذه القصيدة (٩٧) بيتاً، ملئت بالحكم والمواعظ والتوجيهات . وأهم أهداف القصيدة :

١ـ تذكير المرأة بمكانتها ومنزلتها :

بدأ الشيخ قصيدته بتعريف المرأة منزلتها ومكانتها فيقول الشيخ :

رسالتي يا ابنة الإسلام والحسب ... إليك من عقل أستاذ وقلب أب
يا من هديت إلى الإسلام راضية ... وما ارتضيت سوى منهاج خير نبي
يا درة حفظت بالأمس غالية ... واليوم يبغونها للهو واللعب[١]

ويظهر هذا كذلك في أبيات أخرى يقول فيها:

أختاه لست بنبت لا جذور له ... ولست مقطوعة مجهولة النسب
أنت ابنة العرب والإسلام عشت به ... في حضن أطهر أم من أعز أب
فلا تبالي بما يلقون من شبه ... وعندك العقل إن تدعيه يستجب
سليه : من أنا ؟ من أهلي ؟ لمن نسبي ؟ ... للغرب أم أنا للإسلام أنتسب ؟
لمن ولائي ؟ لمن حبي ؟لمن عملي ؟ ... لله أم لدعاة الإثم والكذب ؟
وما مكانتي في دنيا تموج بنا ؟ ... في موضع الرأس أم في موضع الذنب ؟[٢]

---

(١) انظر : المسلمون قادمون ص ٣٩ .
(٢) انظر : المرجع السابق ص ٤٢ .

٢ ـ تحذير المرأة من الغرب وأباطيله :

حيث فند الشيخ مزاعم الغرب ، وأوضح خراب فكره، وعفن مبادئه، وخبث نواياه فقال :

يا حرة قد أرادوا جعلها أمة ... غربية العقل ،لكن اسمها عربي
عهد السجود لفكر الغرب قد ذهبت ... أيامه ، فاسجدي لله واقتربي
من كان للغرب عبد الفكر خاضعه ... فليس منا ولسنا منه في نسب
هل يستوي من رسول الله قائده ... دوماً وآخر هاديه أبو لهب
وأين من كانت الزهراء أسوتها ... ممن تقفت خطا حمالة الحطب ؟!
فلتحذري من دعاة لا ضمير لهم ... من كل مستغرب في فكره خرب
أسموا دعارتهم حرية كذباً ... باعوا الخلاعة باسم الفن والطرب
هم الذئاب وأنت الشاة، فاحترسي ... من كل مفترس للعرض مستلب !
هم يبتغونك لحماً فيه مأربهم ... ويطرحونك عظماً غير ذي أرب ![1]

٣ ـ بيان خطورة الاختلاط :

حيث بين الشيخ خطورة الاختلاط الذي يدعو إليه الغرب وأذنابه فقال :

قالوا :اختلاط، وهل في الاختلاط سوى ... وضع الثقاب قريباً من شفا اللهب ؟
فالاختلاط الذي يدعو له نفر ... هو انفتاح بلا قيد ، بلا حجب
فلينظروا ما جناه الغرب قبلهمو ... في النفس،في العقل،في الأجسام،في العصب
ظنوا التحلل فيه حل عقدتهم ... هل تطفأ النار بالبترول والخشب ؟[2]

٤ ـ تذكير المرأة باختيار سبيل الله وإلا فسبيل الشيطان :

حيث أوضح الشيخ أن المرأة ليس لها إلا سبيل الله وفيه النور والخير، أو سبيل الشيطان وفيه الخسارة في الدنيا والآخرة ، فقال :

(١، ٢) انظر : المسلمون قادمون ص ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ .

هما سبيلان يا أختاه مالهما من ثالث، فاكسبي خيراً أو اكتسبي
سبيل ربك ، والقرن منهجه نورمن الله لم يحجب ولم يغب
في ركبه شرف الدنيا وعزتها ويوم نبعث فيه خير منقلب
فإن أبيت سبيل الله فاتخذي سبيل إبليس رأس الشر والحرب![1]

٥ ـ دعوة المرأة إلى الالتزام بالحجاب :

حيث يوصي الشيخ أخته وابنته بالحجاب الذي أمر به الله ، ذاك الحجاب الذي يزين المرأة بالعفة والأدب فيقول الشيخ :

إن الحجاب الذي نبغيه مكرمة لكل حواء ما عابت ولم تعب
نريد منها احتشاماً، عفة، أدبا وهم يريدون منها قلة الأدب
هذا الحجاب الذي جاء الرسول به وليس سجناً من الفولاذ والخشب

٦ ـ الرد على من زعم بأن الدين قيد المرأة وألغى دورها في المجتمع :

حيث أوضح الشيخ أن الالتزام بالدين لم يكن ـ ولن يكون ـ مانعاً للمرأة من القيام بدورها في المجتمع وضرب لها أمثلة فقال :

لم يمنع الدين أن يدعى النساء إلى مجامع الخير والعرفان والقرب
فكم شهدن جماعات، وكم جُمَعٍ وما منعن شهود العيد والخطب
وكم شهدت مع الأبطال معركة لخدمة الجيش في اللأواء والنصب
وكم لأم سليم ، أو نسيبة من مواقف، فاسألوا تاريخكم يجب[2]

٧ ـ رفض قضية المساواة فيما لم يجعله الله من باب المساواة :

حيث أبان الشيخ أن المرأة ستظل امرأة وأن ذلك ليس عيباً لها ، وأن دعوة المساواة بينها وبين الرجل في غير مجال المساواة أمر مرفوض تماماً . يقول الشيخ :

لا تحسبي أن الاسترجال مفخرة فهو الهزيمة أو لون من الهرب

(١، ٢) انظر : المرجع السابق ص ٤٢ - ٤٥ .

مـا بالأنوثة من عـار لتنسلخي منها، وتسعي وراء الوهم في سرب
ولست قـادرة أن تصبـحي رجـلاً فـفطرة الله أولى منك بالغلب
وربما لم تعـودي في الغـد امرأة من عـاند الله لم يفلح ولم يصب
الله سـواك أنثى، تلك حكمتـه وليس من عـبث في الخلق أو لعب
لكل جنـس بدنيـانا رسـالتـه وللأمومة فضل الصبر والتعب
هل كـان آدم لولا زوجـه خلقاً أن ينسل الناس من عجم ومن عرب؟[1]

٨ - ضرورة اختيار صاحب الخلق والدين :

حيث وضح الشيخ ضرورة الحرص على صاحب الخلق ، ووجوب العض عليه بالنواجذ . يقول الشيخ :

تخيري الزوج ذا دين، وذا خلـق ولا يغرك سـحر المال واللقب
من اتقى الله صدقاً فهو أجدر أن يرعى حقوقك من ذي المال والحسب
فارعيه في النفس،في مال،وفي ولد وارعيه في العرض إن يشهد، وإن يغب
وساعديه على الطاعات واستبقا وحـذري من حرام منه مرتكب
كوني له في الرضا عوناً ومؤنسة وإن بدا شـرر للخلـف فانسحبي

٩ ـ دور المرأة في تربية النشئ :

حيث أبان الشيخ للمرأة دورها في تربية النشئ ، فهي المعلم الأول للأبناء ، وهي الحاضن الأساسي لهم ، يقول الشيخ :

والبيت مدرسة للطفل جامعة والأم أول أستاذ لكل صبي
والطفل مزرعة للأم، ما غرست تجني، ولن تجتني شوكاً من العنب
فلتغرسي فيه حب الله، فهو له كنز، إذا خاب حب الناس لم يخب
صليه بالله، في السراء يحمده وفي الشدائد يدعو كاشف الكرب
وذكريه بيوم الدين حين نرى أعمالنا فيه إن نخطئ ، وإن نصب
مريه بالصلوات الخمس في صغر فالغصن أقرب تقويماً من الخشب[2]

---

(١) انظر : المرجع السابق ص٤٥، ٤٦، ٤٧.

ثالثاً: شمول دعوته للدعاة والمصلحين :

لم تكن دعوة الشيخ قاصرة عن هذا الجانب المهم، ذلك أن الشيخ يعي جيداً أن صلاح الأمة بصلاح دعاتها وعلمائها ، وأن الدعاة و العلماء والمصلحين هم قلب الأمة ونبضها الحي ، وصوتها العالي وأملها المرجو ، ودفتها الموجهة ، فكيف إذا فسد القلب ؟ ووقف النبض ؟ وسكت الصوت ؟ وضاع الأمل ؟ وتاه الربان ؟

هنا يكون الأمر كما قال القائل :

يا أيها العلماء يا ملح البلد ما يصلح الملح إذا الملح فسد

وكما قال ابن المبارك رحمه الله :

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها

لقد رتع القوم في جيفة يبين لذي اللب إنتانها

لهذا فقد كان الشيخ حريصاً على أن يوجه دعوته إلى الدعاة والمصلحين ، وتمثلت دعوة الشيخ للدعاة والعلماء المصلحين في محاور أهمها :

١ – تقوى الله سبحانه والتحلي بأخلاق العلماء .

٢ – الاهتمام بواقع المسلمين .

٣ – سد الفجوة التي بينهم وبين الشباب .

٤ – تجميع كلمتهم .

١ – تقوى الله تعالى والتحلي بأخلاق العلماء :

وهذا ضروري لكل عالم ، ملازم لكل داعية ، مصاحب لكل مصلح ، فإن العالم الذي خلا قلبه من تقوى الله تعالى لن تقوم له قائمة ، ولن تقوم به قائمة ، وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : قسم ظهري رجلان ، جاهل مستنسك ، وعالم متهتك؛ ذاك يغرهم بتنسكه ، وهذا يضلهم بتهتكه .

وهذا هو النوع الذي حذر منه رسول الله ﷺ حين قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافق عليم اللسان »[1].

---

(١) رواه أحمد (١٤٣) عن عمر ، وقال محققو السند ، إسناده قوي ، ورواه البزار (٣٠٥) ، والبيهقي في الشعب (١٧٧٧) ، وذكره الألباني صحيح الترغيب برقم (٢٣٣٠) .

وأشنع ما في العالم أو الداعي المصلح الخالي من تقوى الله تعالى أنه يتفقه لغير الدين، ويتعلم لغير العمل ، ويطلب الدنيا بعمل الآخرة ، وهذا الصنف جاء وصفه في الحديث الذي رواه أبو الدرداء مرفوعاً: « أنزل الله في بعض الكتب أو أوحى الله إلى بعض الأنبياء : قل للذين يتفقهون لغير الله، ويتعلمون لغير العمل، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ، يلبسون للناس مسوك الكباش[1] ، وقلوبهم كقلوب الذئاب ، ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ، إياي يخادعون وبي يستهزءون ؛ بي حلفت لأتيحن لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيران »[2].

هذه التقوى وتلك الأخلاق التي جعلت الإمام الشافعي يقول :

أمطري لؤلؤاً جبال سرنديب وفيضي آبار تبريز تبراً
أنا إن عشت لست أعدم قوتاً وإذا مت لست أعدم قبراً
همتي همة الملوك و نفسي نفس حر ترى المذلة كفراً
وإذا ما قنعت بالقوت عمري فلماذا أهاب زيداً وعمراً

ولقد كان الشيخ حريصاً على إسداء النصيحة للعلماء حتى لا يبيعوا دينهم بدنياهم وآجلهم بعاجلهم ، لأنه يرى بأن العلماء : كلمتهم هي العليا؛ لأنها قبس من كلمة الله تعالى، هم الموجهون للحياة والناس ، إلا إذا انقلبت الأوضاع ورضي العلماء أن يسيروا في ركاب الأمراء [3].

كما يؤكد الشيخ على ضرورة تقوى الله والتحلي بأخلاق العلم لأن العلماء : يحفظون في صدورهم كلمات الله ويحملون في أيديهم مصابيح الهداية ، ويملكون في خزائن قلوبهم أغلى الكنوز ، وأثمن الثروات ، وأشرف المواريث ، وهو تراث النبوة ، التي بغيرها يعيش الخلق في تيه المادية ، وظلام الجاهلية وضلالات الأهواء والأوهام ، فمن أقوم منهم قيلاً وأهدى سبيلاً ؟[4].

---

(١) جلود الضأن .

(٢) جامع بيان العلم وفضله ابن عبد البر ج١ ص ٢٣١ . وقال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء : أخرجه ابن عبد البر بإسناد ضعيف (١ / ٦٢).

(٣) انظر : الرسول والعلم ص ٧٥ .

(٤) انظر : المرجع السابق ص ٧٤ .

ويؤكد الشيخ هذا المعنى فيقول : والعلم هنا ليس تحصيل معلومات سطحية من هنا وهناك ، ولكنه نور يقذفه الله في قلب عبده ، فيمنحه اليقين والرسوخ ، ويبعد به عن القلق والاضطراب ، وهذا هو العلم النافع .

العلم النافع حقاً هو الذي يرى الناس أثره على صاحبه : نوراً في الوجه ، وخشية في القلب ، واستقامة في السلوك ، وصدقاً مع الله ، ومع الناس ، ومع النفس [١].

٢ - الاهتمام بواقع المسلمين [٢]:

من العلماء من يكتفي بالانكفاء على الكتب يعلم دقيقها وجليلها ؛ وهذا أمر محمود، وجهد مشكور؛ لكنه لا يكفي وحده ، بل لا بد للعالم والداعية والمصلح أن ينزل إلى واقع الناس، لا ينبغي عليه أن يعيش في برج عاجي ، أو في معزل عن واقع الأمة ، وحاضر الخلق، وهذا ما أطلق عليه قديماً الشهيد سيد قطب رحمه الله « فقه الأوراق »، وهو مقابل لفقه الحركة، أو كما يسميه الشيخ القرضاوي فقه المعركة أو فقه الواقع أو فقه الحياة أو فقه الدين أو الفقه القرآني [٣].

ولهذا فإن الشيخ يرى أن مجرد الاهتمام بالعلم مجرداً عن الواقع ليس فقهاً وليس اجتهاداً لأن الفقه الحق والاجتهاد الحق هو : الذي ينطلق من معايشة الناس ومعرفة ما هم فيه، والفقيه الحق هو الذي يزاوج بين الواجب والواقع « كما يقول الإمام ابن القيم ، فلا يعيش في دائرة ما ينبغي أن يكون ، غافلاً عما هو كائن وواقع بالفعل »[٤].

---

(١) انظر : الرسول والعلم ص ٧٧ .

(٢) للمزيد في هذا الموضوع راجع الفصل الخاص بمرتكزات الدعوة عند القرضاوي مبحث «فقه الواقع».

(٣، ٤) انظر : لقاءات ومحاورات ج١ ص ١٠٩ .

ويؤكد الشيخ هذا المعنى فيقول : فالفقه هنا أعمق وأوسع من مجرد معرفة الأحكام الشرعية الجزئية من أدلتها التفصيلية ، إنما هو إدراك بصير يربط أحكام الله في شرعه بعضها ببعض ، ويربط قوانين الله في أرضه بعضها ببعض ، ولا يكتفي بالنظر إلى السطوح دون الأعماق .

ويزداد هذا الإدراك عمقاً بالخوض في معترك الحياة ، والصراع مع الفراعنة والطغاة ، والدخول في أتون الابتلاء والمحن ، الذي ينفي الخبث ، ويصقل المعادن، ويميز الخبيث من الطيب [١].

٣ - سد الفجوة التي بينهم وبين الشباب :

لقد لاحظ الشيخ القرضاي كما لاحظ غيره من الناصحين للأمة ، أن الشباب الذي وقع في حفرة التكفير والتفسيق والتبديع ، والتي جرته إلى التطرف طوراً أو الإرهاب طوراً آخر ، إنما كان سببه الرئيس هو إعراضه عن العلماء، وعزوفه عن مجالسهم ، ونتج عن ذلك أن غاص هؤلاء الشباب في بطون الكتب مباشرة ، دون أن يتعلموا فن السباحة في عالم يحتاج إلى سباح ماهر ، وغطاس بارع ، فخرج هؤلاء الشباب باللؤلؤ والمرجان من أمهات الكتب مشوباً ومخلوطاً بغيره أو كما يقول الشيخ القرضاوي : دون أن يضعوه على مشرحة التحليل وطرحها على بساط البحث ، ولكنه قرأ شيئاً وفهمه واستنبط منه ، وربما أساء القراءة ، أو أساء الفهم ، أو أساء الاستنباط وهو لا يدري [٢].

لقد نشأت فجوة واسعة بين العلماء والشباب ، وكان السبب الرئيس في عزوف الشباب عن العلماء وحدوث هذه الفجوة أن عدداً من العلماء في كل قطر من أقطارنا العربية والإسلامية ساروا في ركاب السلاطين فسبحوا بحمدهم ، وهتفوا بأسمائهم ، وصفقوا لأهوائهم ، وضحكوا في وجوههم ، ونفخوا البخور بين أيديهم ، فباركوا مظالمهم، وشاركوهم طغيانهم ومفاسدهم .

---

(١) انظر : المرجع السابق ج١ ص ١٠٩ ، ١١٠ .

(٢) انظر : الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ص ٨٩ .

ولقد كان الشيخ محقاً حين وصف هؤلاء بقوله : علماء الدنيا ، الذين يزينون للناس سوء أعمالهم فيرونه حسناً .

رضوا أن يجعلوا العلم خادماً للسياسة ، وأن يبيعوا الدين بالطين ، وأن يكون العلماء أبواقاً للسلاطين ، وإخواناً للشياطين .

وهؤلاء لا يستحون أن يغيروا جلودهم في كل حين كالثعابين ، وأن يلبسوا لكل حالة لبوسها غير متورعين ، ولا خجلين ، فهم مستعدون لأن يحللوا ما حرموه من قبل، وأن يحرموا ما حللوه ، لا تبعاً للدليل والبرهان ، ولكن تبعاً لتغيير السلطان .. فلكل مقام مقال ، ولكل زمان دولة ورجال، ومقالهم جاهز لكل مقام ، وهم دائماً رجال كل دولة ، وكل زمان!

هذا الصنف الخبيث يحاط عادة بهالة من الدعاية تستر جهله ، وتغطي انحرافه ، وتنفخ فيه ليكون شيئاً مذكوراً ، وتحدث حوله ضجيجاً يلفت إليه الأسماع ، ويلوي إليه الأعناق ، وإن كان هذا لا يجعل من جهله علماً ، ولا من فجوره تقوى ، ولكن :

كمثل الطبل يسمع من بعيد وباطنه من الخيرات خال (١)

وحين قال الشيخ القرضاوي لأحد هؤلاء الشباب : يجب أن تأخذوا العلم من أهله ، وتسألوا أهل الذكر من العلماء فيما لا تعلمون .

قال: وأين نجد هؤلاء العلماء الذين نطمئن إلى دينهم وعلمهم ؟ إننا لا نجد إلا هؤلاء الذين يدورون في فلك الحكام ، إن أرادوا الحل حللوا ، وإن أرادوا الحرمة حرموا، إذا كان الحاكم اشتراكياً باركوا الاشتراكية ووصلوا نسبها إلى الإسلام ، وإذا كان رأسمالياً أيدوا الرأسمالية باسم الإسلام !

العلماء الذين إذا أراد حاكمهم الحرب فالسلم حرام ومنكر ، وإذا تغيرت سياسته فأراد السلم ، صدرت الفتاوى بالتبرير والتأييد « يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً » .

---

(١) انظر : الفتوى بين الانضباط والتسيب ص ٧١ ، ٧٢ .

العلماء الذين سووا بين الكنيسة والمسجد ، وبين الهند الوثنية وباكستان الإسلامية[١].

ولقد عذر الشيخ الشباب في عزوفهم هذا عن هؤلاء العلماء ، لأن هؤلاء العلماء في نظر الشيخ منهم : من يحتج بالأحاديث الموضوعة ، ويرد الأحاديث الصحيحة المتفق عليها، رأوا منهم من يستشهد بالإسرائيليات ، ويستدل بالمنامات ، وليس في رأسه إلا القصص والحكايات ! رأوا منهم من يؤيد البدع الرائجة ، ويرفض السنن الثابتة ، ويتملق أهواء العوام، وشهوات الخواص، ولا يلجأ في العلم إلى ركن وثيق ، فلهذا نفضوا أيديهم منهم ، ولم يعد لهم ثقة بما يصدر عنهم[٢].

ولهذا وجه الشيخ دعوته إلى هؤلاء العلماء قائلاً : فالعلماء عليهم أن يصححوا موقفهم أيضاً ، فلقد أعرض الشباب عن كثير منهم لما رأى فيهم عدم الاهتمام بالإسلام ، ورأى فيهم التقرب من سلاطين الجور ، والوقوف مع السلطة في الحق والباطل ، ورآهم سراعاً إلى موائد الظلمة ، رآهم يعرضون عن الشباب ولا يقولون كلمة حق ، رأى هؤلاء انشغلوا عن الدين بالدنيا ، بل عن العلم نفسه ، حتى إن كثيراً منهم لم يكون نفسه التكوين العلمي الصحيح بحيث يستطيع أن يفهم الدين والحياة ، ويعرف قضايا العصر وما تستحقه، فعلى هؤلاء أن يصححوا موقفهم ، وعلى العلماء الذين رزقهم الله الفقه والإخلاص أن يتقربوا من الشباب وألا يبتعدوا بأنفسهم ، فهناك الكثير من العلماء الطيبين، ولكنهم يؤثرون الهرب من المجتمع وما فيه ، ويرون العزلة أسلم طريق . . في البعد عن الحكام والبعد عن الشعب نفسه، لكن الحل ليس في الفرار ، وإنما أن يبحث أولئك الشباب للأخذ بيده وتسديد طريقه[٣] .

٤ - تجميع كلمتهم :

لقد حرص الشيخ دائماً على التجميع [٤]، وفي دعوة الشيخ للعلماء

---

(١) انظر : الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ص ٩١ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٩٣ .

(٣) انظر : لقاءات ومحاورات ج١ ص ١٣٦ .

(٤) انظر : المبحث الخاص بـ« التجميع لا التفريق» من خصائص القرضاوي الدعوية .

حرص دائماً على توحيد كلمتهم، وتقريب وجهات النظر؛ حتى لا تذهب جهودهم سدى ، أو تذهب أعمالهم أدراج الرياح .

كما أن الشيخ كان حريصاً على أن ينتقل في هذا الجانب إلى حيز العمل والتطبيق، وكان حلم الشيخ أن يكون هناك تجمع عالمي لعلماء الأمة، يضم نخبة من صفوة العلماء العاملين ، والفقهاء المخلصين ، والدعاة النابهين ، وقام الشيخ بمراسلة عدد منهم وقد كلل الله جهود الشيخ بالنجاح بعد أن وافقه عدد كبير من هؤلاء العلماء وقاموا بمراسلته ، وكانت العقبة هي اختيار الدولة التي تسمح بقيام هذه الهيئة ونظراً لأن الهيئة كان قيامها بعيداً عن كل حكومة أو هيئة سياسية ، فلم يكن لدولة عربية أو إسلامية أي ترحيب بإنشاء هذه الهيئة بها ، ولكن تم اختيار إحدى الدول الأوربية وهي « انجلترا » لهذا الغرض واختير الشيخ رئيساً لهذه الهيئة .

وقد ذكر الشيخ في كلمته التي ألقاها في افتتاح هذا الاتحاد : أن هذا الاتحاد يسعى إلى : تحقيق هدف كلي، تنبثق منه أهداف جزئية شتى . أما الهدف الكلي الأكبر، فهو الحفاظ على الهوية الإسلامية للأمة، لتبقى كما أراد الله أمة وسطاً، شهيدة على الناس، آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر، مؤمنة بالله . والوقوف في وجه التيارات الهدامة التي تريد أن تقتلع الأمة من جذورها، داخلية كانت أم خارجية، وموالاة الأمة بالتفقيه والتثقيف والتوعية حتى تعرف حقيقة دورها ورسالتها، وتندفع إلى أداء مهمتها بإيمان وإخلاص، موحدة الغاية، موحدة المرجعية، موحدة الدار، مستقيمة للمنهج والطريق[1].

رابعاً : شمول دعوته للحكام :

كان للحكام نصيب وافر من دعوة القرضاوي ، فلم يغفل الشيخ عن هذا الصنف من الناس ، لأنه يدرك خطورته للناس ، فإن صلاحه يعني صلاح الأمة ورحم الله سلفنا الصالح فقد كان من كلامهم «لو كانت لنا دعوة مجابة لدعونا بها للسلطان» [2]وقد أخبر النبي ﷺ عن طغيان ذوي السلطان وأمر بالنصح

---

(١) انظر : كلمة الشيخ التي ألقاها في تأسيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين على موقع الشيخ، وعلى موقع الاتحاد.

(٢) جاء هذا الكلام من الفضيل بن عياض ، وأحمد بن حنبل انظر : مجموع الفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج ٢٨ ص ٣٩٠ .

لهم، ودعوتهم إلى كتاب الله، ومقاومة طغيانهم؛ وقد جاء ذلك في قوله ﷺ: «ألا إن رحى الإسلام دائرة فدوروا مع الإسلام حيث دار، ألا إن القرآن والسلطان سيفترقان، فلا تفارقوا الكتاب، ألا إنه سيكون عليكم أمراء يقضون لأنفسهم ما لا يقضون لكم فإن عصيتموهم قتلوكم، وإن أطعتموهم أضلوكم، قالوا: وماذا نصنع يا رسول الله؟ قال: كما صنع أصحاب عيسى ابن مريم: نشروا بالمناشير، وحملوا على الخشب، موت في طاعة الله خير من حياة في معصية الله»[1].

ولهذا كان الشيخ حريصاً على توجيه الدعوة إلى الحكام والسلاطين من خلال كتبه وخطبه ومحاضراته، وقد سألت الشيخ عن دعوته للحكام هل مارسها مراسلة بمعنى هل وجه إليهم رسائل خاصة؟ فأجاب: لا ولكنه كثيراً ما وجه إليهم النصح مشافهة إن سمحت الفرصة للقائهم[2].

خامساً: شمول دعوته لأهل الكتب[3]:

لأهل الكتاب - يهوداً أو نصارى - نصيب وافر في دعوة الشيخ، ولكن الذي ينبغي التأكيد عليه هنا هو دعوة الشيخ لهؤلاء القوم، وقد سألت الشيخ في لقاء معه هل مارست الدعوة مع غير المسلمين؟ فقال: للأسف لا لأنه ينقصني اللغة وهي تقف عائقاً في هذا الأمر، ثم استدرك الشيخ قائلاً: ولكن أحد الأخوة أخبرني بأن رجلاً من الغرب أسلم وكان سبب إسلامه هو: كتاب «الحلال والحرام» قلت للشيخ «الحلال والحرام»؟ قال: نعم حيث طالع الكتاب ورأى فيه روعة الإسلام في التشريعات والأحكام، فساقه ذلك لقراءة متأنية عن الإسلام فأسلم.

---

(١) رواه الطبراني في الصغير (٢/ ٤٢)، والكبير (٩٠٢)، وقال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني. ويزيد بن مرثد لم يسمع من معاذ، والوضين بن عطاء وثقه ابن حبان وغيره، وضعفه جماعة، وبقيه رجاله ثقات (٢٣٨٥).

(٢) للمزيد من دعوة الشيخ للحكام راجع الفصل الخاص بجبهات الشيخ الدعوية مبحث «مع الحكام» (سيصدر في رسالة منفردة إن شاء الله).

(٣) للمزيد من دعوة الشيخ لأهل الكتاب راجع الفصل الخاص بجبهات الشيخ الدعوية مبحث «مع أهل الكتاب» (سيصدر في رسالة منفردة إن شاء الله).

سادساً : شمول دعوته للأقليات المسلمة[1] والمغتربين في بلاد الغرب :

مصطلح الأقليات المسلمة يطلق على المسلمين الذين يعيشون خارج « ديار الإسلام " بعيداً عن المجتمعات الإسلامية أو عن العالم الإسلامي[2] .

وإذا كان المسلم قدر الله له أن يحيا بعيداً عن ديار الإسلام ، فإنه مطالب بصفة أو بأخرى بإقامة دينه وشعائره، وإلا وجبت عليه الهجرة إلى مكان يأمن فيه إقامة دينه وشعائره، وهذا ما أفتى به شيخ الإسلام ابن تيمية حين قال : فالمقيم في بلاد غير بلاد الإسلام إن كان عاجزاً عن إقامة دينه وجبت الهجرة عليه[3] .

وهذه الإقامة في « ديار الكفر» تتطلب من المسلم إقامة شرع الله على نفسه ومن هم تحت مسئوليته ، وليست إقامته في غير دار الإسلام عذراً يعتذر به لأنه مطالب بتقوى الله حيثما كان .

ويلحق بهذه الأقليات ، المغتربون والمهاجرون إلى ديار الغرب ، ممن تعد غربتهم غربة طارئة بحكم الدراسة والعمل ، كما يلحق بهم المهجرون قصراً ممن ضاقت بهم ديارهم على سعتها ، وأقطارهم على رحابتها ، فاختاروا وطناً غير وطنهم ، وديارا غير ديارهم، باحثين عن الرزق ، أو آملين حرية وأمناً بعد أن تقطعت بهم السبل ، واستطال عليهم الباطل ، عاملين بقول الشاعر :

بلاد الله واسعة فضاها ورزق الله في الدنيا فسيح
فقل للقاعدين على هوان : إذا ضاقت بكم أرض فسيحوا

وقد اهتم الشيخ القرضاوي في دعوته بالأقليات المسلمة والمغتربين من أبناء الإسلام، وكثيراً ما وجه الشيخ كلماته وفتاويه إلى هذه الأقليات ، وكم كانت

---

(١) من الأمور التي ينبغي معرفتها أن :
- الأقليات المسلمة نحو ربع المسلمين أو أكثر .
- أن بعض هذه الأقليات يمثل من الناحية العددية التجمع الثاني للمسلمين في العالم ، وتلك هي الأقلية الهندية التي تفوق المائة مليون .
- أن بعض الإحصاءات العالمية تظهر أقلية مسلمة في بلد ما وهو كذب على الواقع ، والأرقام الحقيقية تقول بأنهم أكثرية كما هو الحال في الحبشة . انظر : أولويات الحركة الإسلامية ص ١٣٩ - ١٤١ باختصار.

(٢) انظر : في فقه الأقليات المسلمة ص ١٧ .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى شيخ الإسلام ج٢٨ ص ٢٤٠ .

فرحة الشيخ وسعادته بانطلاق برنامج « الشريعة والحياة »[1] عبر قناة الجزيرة القطرية ، وكذلك برنامج «المنتدى» عبر قناة أبي ظبي الإماراتية ، حيث استطاع الشيخ أن يصل بصوته إلى هذه الأقليات المسلمة أينما كانت .

ولم يكتف الشيخ القرضاوي في عنايته بفقه الأقليات إلى مجرد التنظير ، بل انطلق الشيخ إلى حيز العمل ، فأصدر الشيخ عدداً من الكتب تؤصل فقه الأقليات وتحل مشاكلهم، وتتناول قضاياهم ، وأجاب على فتاويهم .

وهذا ما دعا الشيخ إلى العمل على إنشاء هيئة الإفتاء الأوربية التي يترأسها الشيخ والتي مقرها دبلن بأيرلندا ، هذا فضلاً عن الكلية الأوربية للدراسات الإسلامية التي ساعد الشيخ على إنشائها والتي مقرها فرنسا .

ومن الكتب التي تناول بها الشيخ قضايا الأقليات المسلمة :

١ – في فقه الأقليات .

٢ – فتاوى معاصرة / الجزء الثالث خصوصاً .

وفي هذا المجلد خص الشيخ الأقليات المسلمة بجزء كبير من هذا المجلد ، تجاوز المائة والأربعين صفحة بثلاث صفحات ، أجاب فيها الشيخ عن واحد وخمسين سؤالاً ، تعددت جنسيات سائليها فمن دول أوربا إلى روسيا إلى اليابان إلى جمهورية التشيك إلى غير هذه الدول المختلفة اللهجات والألوان والأجناس والأوطان .

والشيخ حريص كل الحرص على متابعة أخبار الأقليات المسلمة والمغتربين عن ديارهم والمهجرين عن أوطانهم ، بل حريص كل الحرص على دعوة هؤلاء لغيرهم ، وكم امتلأ قلب الشيخ حزناً حين علم بأن عدداً من اليابانيين رفضوا الدخول في الإسلام لأن الداعين لهم اشترطوا عليهم أن يختتنوا جميعاً على كبر

---

(١) كانت قناة الجزيرة قد أعدت خطة جديدة تبدأ من ١٥ ٦ ٢٠٠٥م، وقامت بتغيير مواعيد برامجها، وبالتالي قامت بتغيير موعد برنامج «الشريعة والحياة» من يوم الأحد إلى يوم الجمعة، وإلى الساعة الثامنة بدلا من الساعة العاشرة، فكان الرفض الجازم من فضيلة الشيخ، وكان من أسباب هذا الرفض: أن وقت البرنامج مبكر، كما أن يوم الجمعة غير مناسب لمسلمي أوربا.

سنهم وتفاوت أعمارهم ، ما حدا بهؤلاء القوم أن يرفضوا الإسلام شكلاً وموضوعاً[١].

ولهذا فإن الشيخ حاول أن يؤصل لهذا الفقه الجديد مبيناً خصائصه وأهدافه ، وتتمحور اهتمامات الشيخ بالأقليات والمغتربين في النقاط الآتية :

١ – أهمية الوجود الإسلامي في الغرب .

٢ – أهداف الفقه المنشود للأقليات المسلمة .

٣ – ركائز هذا الفقه .

٤ – تحذيرات للأقليات والمغتربين .

٥ – نماذج تطبيقية من فتاوى الشيخ .

النقطة الأولى : أهمية الوجود الإسلامي في الغرب :

كثيراً ما يؤكد الشيخ على ضرورة الوجود الإسلامي في ديار الغرب، ويرى أهمية هذا الوجود ضرورة لعدة أسباب أهمها :

* ضرورة لتبليغ الإسلام وإسماع صوته .
* ضرورة لحضانة من يدخل في الإسلام ومتابعته وتنمية إيمانه .
* ضرورة لاستقبال «المهاجرين» حتى يجدوا لهم أنصاراً .
* ضرورة للدفاع عن قضايا الأمة الإسلامية .

ويؤكد الشيخ على ضرورة الوجود وفق فقه الأولويات ، وهذا يعني المكان الأفضل، والعمل الأفضل، والأسلوب الأفضل، على أن يكون للمسلمين تجمعاتهم ومؤسساتهم وشيوخهم وعلمائهم[٢] .

ولذلك فإن الشيخ يرفض السؤال عن جواز الإقامة في ديار الغرب أو ما يسمى «ديار الكفر»، ويرفض الشيخ ذهاب بعض العلماء لعدم الجواز، ووجهة نظر الشيخ أن هذا يضيع فرصة كبيرة للدعوة الإسلامية في أحضان الغرب، مما يؤدي إلى تقوقع الإسلام وعودته إلى الجزيرة العربية كما بدأ، وقراءة

---

(١) انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ١٥٧ .

(٢) انظر : أولويات الحركة الإسلامية ص ١٤٦ ، ١٤٧ بتصرف .

التاريخ تؤكد أن الإسلام ما خرج من دياره وانتشر في غير دياره إلا عن طريق أفراد هاجروا إلى آسيا وأفريقيا[١] .

وهذا ما جعل الشيخ يؤول [٢] الأحاديث التي توجب على المسلم الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام مثل حديث « أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين » وحديث « من جامع مشركاً وسكن معه فهو مثله »[٣] .

فذكر في الحديث الأول : أن لحديث « أنا بريء ... » تأويلاً غير ما يتبادر منه، ومعناه: أنه بريء من ديته إذا قتله المسلمون خطأ ، لأنه أقام بين المشركين المحاربين للإسلام فحكمه حكمهم ، فإذا قتل خطأ فلا يتحمل الرسول ولا المسلمون ديته [٤] .

وفي الحديث الثاني قال الشيخ : بأن كلمة المشرك ليس المقصود منها الكتابي ، ولكن كلمة المشرك في المصطلح القرآني تعني الوثني ولا يدخل فيها الكتابي ، وكيف يحرم الإسلام مساكنة الكتابي في بيت واحد ، وهو يجيز للمسلم أن يتزوج كتابية تكون ربة بيته ؟[٥]

النقطة الثانية : أهداف الفقه المنشود للأقليات المسلمة :

والشيخ القرضاوي يرى أن أهم أهداف هذا الفقه هي :

١ ـ إعانة هذه الأقليات على أن تحيا بإسلامها حياة ميسرة بلا حرج في الدين ولا إرهاق في الدنيا .

٢ ـ المحافظة على جوهر الشخصية الإسلامية المتميزة .

٣ ـ تمكين المجموعة المسلمة من أداء واجب تبليغ رسالة الإسلام العالمية لمن يعيشون بين ظهرانيهم .

---

(١) انظر : من فقه الأقليات المسلمة ص ٣٣ بتصرف.

(٢) وقبل أن يذهب الشيخ إلى تأويل مثل هذين الحديثين فإنه لا يرى صحة الحديثين سنداً . انظر : في فقه الأقليات المسلمة ص ٣٨ هامش رقم ١ .

(٣) انظر : من فقه الأقليات المسلمة ص ٣٨ هامش رقم ١ .

(٤) انظر : المرجع السابق ص ٣٨ هامش ٣ .

(٥) انظر : المرجع السابق ص ٣٨ .

٤ ـ المعاونة على المحافظة بلا انغلاق ، والاندماج بلا ذوبان في هذه المجتمعات الغربية .

٥ ـ المساهمة في تثقيف هذه الأقليات وتوعيتها حتى تحافظ على حقوقها.

٦ ـ الإعانة على أداء الواجبات المختلفة دون إعاقة من تنطع في الدين أو تكالب على الدنيا .

٧ ـ الإجابة على الأسئلة المطروحة والمشاكل المتجددة [١].

النقطة الثالثة: ركائز هذا الفقه :

وهذا الفقه المتعلق بالأقليات المسلمة والمغتربين يرى الشيخ أنه يعتمد على عدة ركائز أهمها :

١ ـ ضرورة فتح الباب لاجتهاد معاصر قويم تماشياً مع الواقع، وإبرازاً لخصوبة الشريعة وصلاحيتها للتطبيق في كل زمان ومكان .

٢ ـ مراعاة القواعد الفقهية الكلية، مثل: الأمور بمقاصد، العادة محكمة، لا ضرر ولا ضرار .

٣ ـ العناية بفقه الواقع المعيش .

٤ ـ التركيز على فقه الجماعة لا مجرد الأفراد ، لأن هذه الأقلية جماعة لها هويتها وأهدافها لا يمكن التغافل عنها .

٥ ـ تبني منهج التيسير ما وجد إلى ذلك سبيل .

٦ ـ مراعاة قاعدة « تغير الفتوى بتغير موجباتها » .

٧ ـ مراعاة سنة التدرج .

٨ ـ الاعتراف بالضرورات والحاجات البشرية .

٩ ـ التحرر من الالتزام المذهبي والخروج إلى ساحة الشريعة الواسعة ، بما فيها المذاهب المنقرضة [٢].

---

(١) انظر: المرجع السابق ص ٣٤ ، ٣٥ بتصرف .

(٢) للتوسع في هذه الركائز انظر : المرجع السابق ص ٤٠ ـ ٦٠ .

النقطة الرابعة: تحذيرات مهمة للأقليات والمغتربين :

وأهم ما حذر منه الشيخ الأقليات المسلمة والمغتربين :

١ ـ النزعة العنصرية والإقليمية لأنها ظاهرة بادية عند الفئات الإسلامية المختلفة حتى في المساجد ، فهذا مسجد الأتراك وذاك مسجد المغاربة ، وهكذا ، والإسلام ما جاء إلا ليذيب هذه الفوارق ويحقق الأخوة [١].

٢ ـ التشدد وإثارة الخلاف ، فهذه وإن ظهرت في ديار الإسلام فينبغي أن تغيب عن الأقليات المسلمة لأنهم في حاجة إلى ما يوحدهم [٢].

النقطة الخامسة: نماذج تطبيقية من فتاوى الشيخ للأقليات المسلمة[٣]:

نظراً للعالمية التي انطلق بها الشيخ من خلال دينه ، فقد تعرض الشيخ لرسائل عديدة وأسئلة كثيرة من المسلمين في غير بلاد الإسلام ، وقد حرص الشيخ على أن يطبق الأهداف والركائز التي وضعها لفقه الأقليات على هذه الفتاوى ومن ذلك :

صلاة الجمعة قبل الزوال وبعد العصر :

وكان الشيخ قد سئل عن حكم صلاة الجمعة قبل الزوال أو بعد دخول وقت العصر، وذلك لضيق الوقت لاستيعاب الخطبة والصلاة في وقت الظهر في بعض البلاد في فترة الشتاء ، أو لعدم وجود فرصة لأداء الجمعة بسبب الدراسة أو العمل .

وكانت إجابة الشيخ على النحو التالي :

١ ـ أن جمهور الفقهاء على أن وقت الجمعة هو وقت الظهر فلا يجوز تقديمها عن هذا الوقت أو تأخيرها عنه .

٢ ـ توسع الحنابلة في أول الوقت فجعلوا أول وقتها وقت صلاة العيد .

---

(١) انظر : أولويات الحركة الإسلامية ص ١٤٩ ، ١٥٠ بتصرف.

(٢) انظر : المرجع السابق ص١٥١ ، ١٥٢ بتصرف .

(٣) تحدثنا في مبحث «رجوعه إلى الحق» عن مسألتين تتعلقان بالأقليات المسلمة وهما شراء بيوت السكن بقرض ربوي، وحكم المرأة التي أسلمت وزوجها على دينه ، فليرجع إليهما .

٣ ـ توسع المالكية في آخر الوقت فجعلوا آخر الوقت إلى ما قبل الغروب بقليل .

وعلى ضوء ما سبق فقد أفتى الشيخ السائلين بأنهم إن استطاعوا أن يصلوا الجمعة في الوقت المتفق عليه فهو الأولى والأحوط ، أما إذا تعارض ذلك مع ظروف المسلمين في بعض البلدان أو في بعض الأوقات فلا حرج في الأخذ بالمذهب الحنبلي في التبكير بالصلاة قبل الزوال ولو في وقت صلاة العيد ، ولا حرج كذلك في الأخذ بالمذهب المالكي بجواز التأخير إلى ما بعد العصر ، على أن يعلن ذلك على المسلمين ويعرفوه ، ويتفقوا عليه ، حتى يجتمعوا عليه[١] .

سابعاً : شمول دعوته لقضايا الأمة الكبرى :

ابتليت الأمة الإسلامية في قرنها الماضي وما قبله ، بمصائب لم يسجل التاريخ مصائب مثلها في مجموعها ، فمن غياب الحكم بما أنزل الله وتنحية الشريعة الإسلامية ، إلى رضوخ العالم الإسلامي جله لوطأة الاحتلال الأجنبي الغاشم والكافر ، إلى ضياع فلسطين ناهيك عن مصائب المسلمين في كشمير والفلبين وأفغانستان وإرتريا والسودان والبوسنة وأخيراً العراق .

ومثل هذه الأحداث لا تغمض للمؤمن جفناً، ولا ترقا له عيناً، ولا تقر له بالاً، ناهيك عن الداعية ، والداعية المجاهد .

إن مراقبة أحداث الأمة من برج عاجي بعيداً عن واقع الأمة الأمر ليس من سيم أهل الإيمان فضلاً عن الدعاة العاملين ، وإن من يحاول أن ينأى بنفسه عن مصائب أمته لا يستحق أن يكون في عداد المسلمين ، ولله در الباقوري حين قال :

إن نفساً ترضى الإسلام ديناً
ثم ترضى بعده أن تستكينا

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٧٢ ـ ٧٦ باختصار، وانظر : فتاوى معاصرة ج٣ ص ٥٤٩ ـ ٥٥٣ باختصار ، وللمزيد من مطالعة رأي الشيخ في مسائل الأقليات المسلمة راجع المرجعين المذكورين .

أو ترى الإســـلام في أرض مـــهـــيناً
ثم تهـــوى العـــيش نفس لن تكونا
في عـــــداد المسلمين العظمـــاء

إن الداعية الصادق لا يمكنه أن يقف صامتاً أو متفرجاً أمام قضايا أمته الكبرى ، بل يتحتم عليه أن يعد نفسه جندياً مجنداً لكل قضية إسلامية ، إذا سمع هيعة طار إليها بقلبه ووجدانه ، قبل أن يكتب فيها بقلمه ، أو يتكلم فيها بلسانه .

والشيخ القرضاوي لم يكن في يوم من الأيام بعيداً عن قضايا أمته الكبرى، وأعني بالأمة هنا الأمة الإسلامية ، فترى الشيخ في كل قضية من القضايا ثائراً متحمساً داعياً ، إنه لا ينفك أن يكون دافعاً للهمم، مقوياً للعزائم ، باعثاً للعمل، وكيف لا وقد عد الشيخ من ثقافة الداعية « الثقافة الواقعية » ومن هذه الثقافة الواقعية ، ثقافة الواقع الإسلامي [1].

إن هذه الحرقة التي تملأ قلب الشيخ كمداً على أمته ، وتلك الغصة التي تؤلم حلق الشيخ ألماً لمصائب الأمة؛ جعلته مع المسلمين في أفغانستان ، وإخوانهم في الفلبين ، وأشقائهم في إرتريا ، وأمثالهم في كشمير والبوسنة والعراق والجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي المنحل ، نعم لقد كان الشيخ مع إخوانه الذين يعانون حكم العسكر في تركيا ، والعلمانية في تونس ، وكأنه كان يعني نفسه في أرجوزته التي سمها « الأصوليون » والتي يتحدث فيها على لسان العلمانيين ورجال الأمن وفيها يقول الشيخ :

تاريخهم أسود كالقطران ... حسبهم الجهاد في الأفغان
كم قاتلوا السوفيت في الجبال ... ليظهروا في صورة الأبطال
وقبلهم إخوان سوء جاهدوا ... فوق فلسطين، وفيها استشهدوا
وشاركوا بالدم في القناة ... تغطية منهم لفصل آت
فكل فعل منهمو مردود ... مهما يكن ظاهره محمود

(١) انظر : ثقافة الداعية ص ١١٩ ، وانظر : الفصل الخاص بـ« مرتكزات الدعوة عند القرضاوي » من هذا الكتاب، مبحث « فقه الواقع » .

واليوم للبوسنة قد تحمسوا كأنهم للمسلمين حرس
وذاك شأنهم على الإطلاق إن شيك مسلم بواق البواق
وذاك ـ والله ـ هو الجنون وللجنون عندهم فنون
فهم مع الجهاد في كشمير وفي الفلبين بلا نكير
أما فلسطين فهم رجالها وإن تنادي بالسلام إلها
قد أيدوا الفتية من حماس دون مبالاة ولا احتراس [1]

والمتتبع لكتابات الشيخ وكلماته في خطبه ومحاضراته يرى هذا الاهتمام البالغ بقضايا الأمة الإسلامية ، وسوف أوضح اهتمام الشيخ بقضايا الأمة من خلال قضية أساسية ألا وهي قضية فلسطين .

القرضاوي وقضية فلسطين :

تعد قضية فلسطين من القضايا الرئيسية في قضايا الأمة الإسلامية ، وتأتي هذه القضية في مقدمة كل القضايا ، وينبع هذا الاهتمام أو ذاك التقديم من مكانة فلسطين الدينية، وما بها من المقدسات الإسلامية ، ولهذا فإن من الضرورة الدينية والفريضة الشرعية أن تلفت الأنظار تجاه هذه القضية ، وتثار حولها الهمم، وتحرك لها الجماهير ، وتجمع حولها الأمة ، وتوحد من أجلها الكلمة .

وقد بدا اهتمام الشيخ القرضاوي بقضية فلسطين منذ أكثر من نصف قرن[2]، من يوم أن عرف جماعة « الإخوان المسلمون » وعرف من خلالها أن دولة الإسلام من المحيط إلى الخليج، ومن الرباط إلى جاكرتا ، ولما شارك الأزهر بكتيبة من شبابه في معارك القتال؛ كان الطالب يوسف وقتها هو ملقي كلمة المعسكر وشباب الأزهر في حفلة التوديع التي أقيمت في قاعة الإمام محمد عبده، وقد ارتجل الطالب فيها كلمة ختمها بقصيدة جاء فيها :

دع المداد وسطر بالدم القاني وأسكت الفم واخطب بالفم الثاني
فم المدافع في صدر العداة له من الفصاحة ما يزري بسحبان
يا أزهر الخير قدها اليوم عاصفة فإنما أنت من نور ونيران

---

(١) انظر : المسلمون قادمون ص ١١٩ ، ١٢٠ .

(٢) عقد في الدوحة في الفترة من ١٠ - ١١ / ٥ / ٢٠٠٦م، مؤتمر بعنوان «ملتقى علماء المسلمين =

هذا شبابك في الميدان منطلق فهل نرى في الشيوخ اليوم كاشاني[1]

وأصبح الشيخ القرضاوي بحق فارساً من فرسان هذه القضية ، وداعية من دعاتها، وعلماً من أعلامها ، بل لا أكون مبالغاً إذا قلت : إن الشيخ القرضاوي هو «**شيخ الانتفاضة**»، ومحرك لشبابها ، وعنصر فعال في هذه القضية التي ينبغي ألا تموت .

وحين نقول بأن الشيخ هو « شيخ الانتفاضة » فليس ذلك من باب التهويل لكنه من باب إقرار الواقع ، وليس الإسلاميون في داخل فلسطين أو في خارجها هم الذين يقرون وحدهم هذا الأمر ، بل هذا ما أكدته صحف إسرائيل وحاخامتها ، وقد أذاع التلفزيون الإسرائيلي حلقة عن أكثر الشخصيات المؤثرة في الانتفاضة الفلسطينية وكان من أبرز هذه الشخصيات الشيخ القرضاوي ، بل هدد الموساد الإسرائيلي بتصفية الشيخ ، وأخيراً أشاع الموساد أنهم يريدون اعتقال الشيخ حفظه الله .

وقد ذكرت صحيفة الراية القطرية في عدد ٣١ / ١٠ / ٢٠٠٠ م ، أن الحاخام الأكبر « يسرائيل لاو » شن هجوماً شديد اللهجة على الشيخ القرضاوي وعدد آخر من علماء المسلمين وقال « لاو »: إن قسم « رصد تفوهات رجال الدين المسلمين » أظهر دوراً للقرضاوي وعددا آخر من العلماء المسلمين لم يسمهم في إشعال نار الكراهية على إسرائيل، وقال لاو : إنه بالاستناد إلى التقرير الذي تسلمه فإن القرضاوي يقف على رأس أكثر رجال الدين المسلمين تحريضاً على إسرائيل ، وأضاف لاو : إن الحديث يدور على رجل دين يحظى باحترام كبير في العالمين الإسلامي و العربي وهذا في حد ذاته يجعل لأقواله المتطرفة وزناً وتأثيراً كبيرين .

ومن ناحية أخرى فإن ضابط الاستخبارات الإسرائيلية « زامير » شدد على أن خطورة الدور الذي يقوم به القرضاوي تتمحور في التأثير الكبير الذي يحظى به في أرجاء العالم الإسلامي ، لا سيما في أوساط الشباب المسلم في أنحاء

=لنصرة شعب فلسطين، وفي مائدة العشاء جلس مع فضيلة الشيخ عدد من الحضور، وكان منهم الشيخ سلمان العودة، وأثناء الحديث قال العودة للقرضاوي: منذ أكثر من خمسين سنة وأنت تتحدث عن فلسطين، من أين تأتي بهذا الكلام وهذه الحماسة؟!

(١) انظر : ابن القرية والكتاب ج١ ص ٤٥١ .

العالم، كما أشار «زامير» أن اللقاءات الأسبوعية التي تعرضها اثنتان من أوسع الفضائيات العربية بالإضافة إلى مواقع الإنترنت التي يجيب من خلالها على أسئلة المسلمين يزيد من خطورة القرضاوي وتجعل له تأثيراً خارقاً للحدود[١].

هذا وقد ضغطت إسرائيل على الدول التي يظهر الشيخ على تلفزيوناتها وقنواتها الفضائية لتمنع الشيخ من الظهور وقد رفضت بعض هذه الدول هذا الطلب كما يقول الشيخ[٢].

ولكن يبدو أن البعض قد استجاب وقد منع برنامج «المنتدى» والذي كان يبث من قناة «أبو ظبي».

هذا الاهتمام البالغ بشخصية الشيخ من بني صهيون إنما كان نابعاً من اهتمام الشيخ بالقضية في كتاباته ومحاضراته وخطبه ومقالاته وبرامجه وفتاويه.

وقد حركت جراحات فلسطين مشاعر الشيخ مراراً وتكراراً وأثارت القريض بخاطره، فبكى الشيخ فلسطين شعراً كما بكاها نثراً.

وللشيخ قصائد رائعة في فلسطين منها:

١ ـ ثورة لاجئ:

وفيها يقول الشيخ:

بني جرحك في قلبي يسيل دماً ... فارحم صباك فما أشجاك أشجاني
جرح العروبة والإسلام في بلد ... الإسراء لم يختلف في شأنه اثنان
فلا تظنك غصناً لا أصول له ... فقد شددت إلى أصل وأغصان
لا تأس إن عشت بعد الأهل منفرداً ... فكلنا لك ذاك الوالد الحاني
وكل أزواجنا أم بها شغف ... لتفتديك بروح قبل جثمان
ودارنا لك دار لو رضيت بنا ... أهلا بأهل، وإخواناً بإخوان[٣]

٢ ـ «يا أمتي وجب الكفاح».

وفيها يقول الشيخ:

يا أمتي وجب الكفاح ... فدعي التشدق والصياح

---

(١) انظر: صحيفة الراية القطرية ٣١ ١٠ ٢٠٠٠م.
(٢) انظر: لقاءات ومحاورات ج٢ ص ٦٦.
(٣) انظر: نفحات ولفحات ص٨٢، ٨٣.

ودعي التقاعس ليس ينصر من تقاعس واستراح
ودعي الرياء فقد تكلـ ـمت المذابح والجراح
كذب الدعاة إلى السلا م ، فلا سلام ولا سماح[1]

٣ ـ سراب السلام :

سلام من بني صهيون؟ عفواً يا بني جنسي
أيرجى السلم من ذئب أيرجى الدر من تيس؟
لقاءات على دخن لشرب الشاي والبيبسي!

إلى أن يقول :

فما معنى فلسطين بلا أقصى ولا قدس؟
فلسطين بلا قدس كجثمان بلا رأس[2]

٤ - نشيد «العودة»: والتي تغنى بها الشباب في فلسطين وفي كل مكان وفيه يقول الشيخ :

يا ثالث الحرمين[3] يا أرض الفدا أليت أجعل منك مقبرة العدا
ذقت الردى إن لم أعد لك سيدا طعم الردى دون الحياة مشرداً[4]

وكتب الشيخ جلها تكاد لا تخلو من الحديث من قريب أو بعيد ، إما بالتصريح أو بالتلميح ، إما بالإشارة أو بالعبارة ، وكذلك خطب الشيخ فقد يخصص الشيخ خطبة كاملة عن فلسطين ورجالاتها وما يدور فيها من بطولات رائعة وتضحيات نادرة؛ وإلا كانت الخطبة الثانية للتذكير بشأن القضية الفلسطينية وحال المسجد الأقصى .

---

(١) انظر : نفحات ولفحات ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٢) انظر : المسلمون قادمون ص ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ .

(٣) المسجد الأقصى ليس حرماً؛ قال ابن تيمية : وليس في الدنيا حرم، لا بيت المقدس، ولا غيره ، إلا هذان الحرمان، ولا يسمى غيرهما «حرماً» كما يسمي الجهالة فيقولون : حرم المقدس، وحرم الخليل ، فإن هذين، وغيرهما ليسا بحرم ، باتفاق المسلمين . والحرم المجمع عليه : حرم مكة . وأما المدينة فلها حرم أيضاً عند الجمهور كما استفاضت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ . ولم يتنازع المسلمون في حرم ثالث ، إلا وجاء، وهو واد بالطائف. وهو عند بعضهم حرم ، وعند الجمهور ليس بحرم . نقلاً عن فقه السنة السيد سابق ط دار الفكر ١٩٩٢م ج ١ ص ٥٨٣ .

(٤) انظر : نفحات ولفحات ص ١١٥ .

وخطب الشيخ التي نشرت يكاد لا يخلو منها جزء من قضية فلسطين .

ولعل من أبرز كتب الشيخ عن فلسطين هو :

١ ـ القدس قضية كل مسلم .

٢ ـ فتاوى معاصرة / ج٣ / وفيه اثنتا عشرة فتوى تتعلق بفلسطين أخذت قرابة اثنتين وستين صفحة .

فلسطين في فكر القرضاوي:

أما عن فلسطين في فكر القرضاوي فنستطيع إجمالها في هذه النقاط السريعة :

١ ـ لفلسطين مكانة عقدية في نفوس المسلمين فهي :

ـ القبلة الأولى : قال تعالى : ﴿ **سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا** ﴾ [البقرة: ٤٢] .

ـ أرض الإسراء والمعراج : قال تعالى : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى** ﴾ [الإسراء: ١] .

ـ ثالث المساجد المعظمة : قال ﷺ : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث مساجد المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا »[١].

ـ أرض النبوات والبركات : قال تعالى : ﴿ **الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ** ﴾ [الإسراء: ١]، وقال: ﴿ **وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ٧١]

ـ أرض الرباط قال ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لعدوهم قاهرين ، لا يضرهم من حاربهم ، إلا ما أصابهم من لأواء[٢] حتى يأتي أمر الله » وهم كذلك . قالوا : وأين هم يا رسول الله ؟ قال : « ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس »[٣]، [٤].

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري في الصوم رقم (١٩٩٥) عن أبي سعيد .

(٢) أي أذى .

(٣) رواه عبد الله بن أحمد في المسند ٥ ٢٦٩ ، وقال وجدت بخط أبي وقال الهيثمي : رواه عبد الله ابن أحمد «وجادة عن أبيه» والطبراني، ورجاله ثقات ٧ ٢٨٨ ، انظر : القدس قضية كل مسلم ص ١٧ .

(٤) انظر : القدس قضية كل مسلم ص ٧ ـ ١٧ باختصار .

٢ ـ أن القدس تهودت جهاراً وذلك تحت عوامل خمسة :

* استسلام فلسطيني .
* عجز عربي .
* وهن إسلامي .
* تفرد أمريكي .
* غياب عالمي [١].

٣ ـ أن المعركة بيننا وبين اليهود ليست حرباً دينية؛ بمعنى أنها ليست لأنهم يهود، ولكن لكونهم غصبوا أرضنا، ودنسوا مقدساتنا، وهتكوا أعراضنا، ولو قدر أنهم لم يفعلوا ذلك لم تكن هذه الحرب، ولعاشوا كما كانوا من قبل في دولة الخلافة على مر السنين [٢].

٤ ـ أن فلسطين ليست ملكاً لرئيس، ولا لأمير، ولا لوزير، ولا لجماعة من الناس، ولا للفلسطينيين وحدهم؛ إنها ملك المسلمين جميعاً عربهم وعجمهم ، وأن التنازل عن القدس أو أي شبر فيها خيانة لله ورسوله وللأمة كلها[٣] .

٥ ـ أن قبول التعويض بالنسبة للاجئين الفلسطينيين ، والتراضي عن ذلك بجزء من المال قل أو كثر هو كبيرة من الكبائر ، قد تصل بصاحبها إلى الكفر الأكبر إن استحلها ، يتساوى في ذلك الأفراد والجماعات وكذلك الدولة ، وذلك لأن الأوطان لا تباع بملء الأرض ذهباً ، وفلسطين ليست ملكاً لأحد بعينه بل ملك الأمة كلها [٤].

٦ ـ أن السلام مع إسرائيل مرفوض شكلاً وموضوعاً ، لأنه وإن سمى سلاماً فهو سلام هزيل نحيل ، لأن إسرائيل فيه تأخذ ولا تعطي ، وأن الجنوح للسلم ليس مع هؤلاء ، لأنهم اغتصبوا الأرض وسفكوا الدماء ، وشردوا الأهل ،

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ١٨ ـ ٣٨ باختصار .
(٢) انظر : المرجع السابق ص ٤٢ ، ٥١ .
(٣) انظر: فتاوى معاصرة ج٣ ص ٤٥١ وما بعدها .
(٤) انظر : المرجع السابق ج٣ ص ٤٩٥ وما بعدها .

وأخرجوا الناس من ديارهم بغير حق ، مع العلم أن هذا السلام إنما الجرم الأكبر فيه أنه اعتراف لليهود بأن الأرض التي اغتصبوها ، وشردوا أهلها ، أصبحت ملكاً لهم وأصبحت لهم السيادة الشرعية عليها[١] .

٧ ـ أن العلاقة بيننا وبين اليهود اليوم ليست هي المودة ولا البر والقسط ، الوارد في قوله تعالى : ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ [الممتحنة : ٨] ، وإنما هؤلاء قاتلونا وأخرجونا من ديارنا فالعلاقة بينهم ليست هي البر ولا القسط أبداً لأنهم سفاحون قتلة[٢] .

٨ ـ أن العمليات الفدائية التي يقوم بها شباب فلسطين ليست عمليات انتحارية بل هي عمليات استشهادية من خلال قنابل بشرية ، باع فيها الشهيد نفسه لله ، ووضع رأسه على كفنه ، اضطر الشهداء إلى هذه الوسيلة لإرهاب العدو ، والأمر كما قال الشاعر :

إذا لم يكن إلا الأسنة مركباً فما حيلة المضطر إلا ركوبها

وهذه العمليات استشهادية ولو قتلت المدنيين؛ لأن المجتمع الإسرائيلي كله هو مجتمع عسكري غاصب[٣].

٩ ـ أن شراء البضائع الإسرائيلية والأمريكية وما له بديل في دول أخرى يحرم تحريماً باتاً على كل مسلم؛ باستثناء المسلمين الذين يعيشون في إسرائيل وأمريكا لأنهم مضطرون للتعامل معهم، فليس من المعقول أن يجاهد أهل فلسطين بدمائهم وأرواحهم وأولادهم ويعجز غيرهم عن هذه المقاومة السلبية التي يمتنع فيها عن شراء البضائع فقط[٤].

* * *

(١) انظر : المرجع السابق ج٣ ص ٤٦٥ وما بعدها .
(٢) انظر : المرجع السابق ج٣ ص ٤٨٢ وما بعدها .
(٣) انظر : المرجع السابق ج٣ ص ٥٠٣ وما بعدها .
(٤) انظر : المرجع السابق ج٣ ص ٤٩٨ وما بعدها .

المبحث الرابع عشر
العالمية

كثيرون هم الدعاة ، وأرض الله لا تخلو من داعية إلى الله بحق وصدق ، يرفع عن الناس جهلهم؛ فيعلم جاهلهم ، ويرد شاردهم ، ويهدي حائرهم ، يجمع قلوبهم على الهدى، وأعمالهم على التقى ، ونياتهم على خير العمل، وعمل الخير .

ولكن القلة القليلة هي التي تكتب لها العالمية ، فلا تقف أمام دعوتهم حدود مصطنعة ، أو حواجز طبيعية ، ولا تقتصر دعوتهم على إقليم معين ، أو جنس خاص ، أو طائفة محددة، أو طبقة معينة ، أو قوم محدودين .

والشيخ القرضاوي من هذا الطراز العالمي ، الذي لم يقبل لنفسه أن يتقوقع في بلده الأم مصر ، ولم يرض أن يحبس نفسه في قفص الإقليمية ، أو يترهب في دولة بعينها؛ تاركاً آفاق العالم الرحبة بجواره تبحث عن قارورة الدواء، ومضخة الإطفاء ، ومن هنا فقد انطلق الشيخ القرضاوي إلى العالمية بدعوته منذ أمد بعيد .

ولهذا لم يكن غريباً أن ترصد الصحافة العالمية بل والجهات الأجنبية خطوات الشيخ وأخباره وعلى سبيل المثال :

١ـ قام السكرتير الأول بالسفارة الأمريكية بقطر وهي « مارغاتيا دايان » بزيارة لفضيلة الشيخ وأجرت معه حواراً طويلاً .

٢ ـ قامت المذيعة والمحررة الأمريكية « جويس ديفيز » وهي محررة للإذاعة الوطنية العامة في واشنطن والتي تبث إلى أكثر من ١٤ مليون مستمع بإجراء حوار مع الشيخ .

٣ ـ أجرت صحيفة « أساهي » اليابانية اليومية حواراً مع الشيخ وهي صحيفة توزع على أكثر من ٩ مليون نسمة يومياً، وقد قام بالحوار مدير مكتب الجريدة

بالشرق الأوسط «دابجي ساداموري»، وقد زار الشيخ في بيته بالدوحة كما زار مسقط رأسه «صفط تراب» بمصر، وقد اختير الشيخ ضمن سبع شخصيات عالمية قدمتهم الجريدة على أنهم رموز القرن الجديد ، وقد نشر الحوار في الصفحة الأولى للجريدة بتاريخ ٢٩ / ٤ / ٢٠٠٠ م .

٤ ـ أجرى الصحفي الأمريكي توماس فريدمان ـ وهو أشهر صحفي مدافع عن إسرائيل مؤيد لمسيرة السلام ـ حوارا مع فضيلة الشيخ القرضاوي يوم الثلاثاء (٢٢ / ١٠ / ٢٠٠٢م) في بيت د. القرضاوي بالدوحة[١].

عوامل ساعدت على عالمية الشيخ :

انطلق الشيخ القرضاوي إلى العالمية مبكراً وكانت هناك عوامل وأسباب دفعت بالشيخ إلى العالمية أهمها :

١ ـ طبيعة الدين : حيث إن هذه الرسالة المحمدية بطبيعتها رسالة عالمية ليست لطبقة، ولا لجنس، ولا لون، ولا دولة؛ ولكنها للعالم كله ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] .

٢ ـ انتماء الشيخ مبكراً لجماعة «الإخوان المسلمون»: حيث غرزت الجماعة في نفس شبلها وداعيها روح العالمية لهذا الدين ، لقد قامت الجماعة يوم أن قامت لتؤكد عالمية الإسلام ، ووحدة بلاده الإسلامية ، ولتعلن أن التخوم الأرضية والحدود الجغرافية حدود مصطنعة ، صنعت في غير ديارنا ، وأريد لها أن تمزق وحدتنا .

ولقد نشأ الإخوان على اعتبار أن كل شبر فيه مسلم يوحد ربه هو وطن لهم ، وقد عبر عن ذلك شاعرهم بقوله :

ولست أدري سوى الإسلام لي وطناً ... الشام فيه ووادي النيل سيان
وكلما ذكر اسم الله في بلد ... عددت أرجائه من لب أوطاني

ولقد عد المرشد الأول الإمام الشهيد «حسن البنا» مراحل سبعة توضح

---

(١) تم جمع هذه الحوارات وغيرها، وقام فضيلة الشيخ بالتعليق عليها تحت عنوان « نحن والغرب أسئلة شائكة وإجابات حاسمة» وتقوم بطبعه دار التوزيع والنشر الإسلامية.

عالمية الدعوة تبدأ بتكوين الرجل المسلم وتنتهي بعودة راية الله خفاقة عالية على بقاع ديار الإسلام بل وتبليغ دعوة الله إلى الناس[١] .

وقد عبر الشيخ القرضاوي عن هذا أيضاً في نشيده الذي تغنى به شباب الإسلام فقال:

يا أخي في الهند أو في المغرب أنا منك أنت مني أنت بي
لا تسل عن عنصري عن نسبي إنه الإسلام أمي وأبي
إخوة نحن به مؤتلفون[٢]

٣ ـ أزهرية الشيخ : حيث إن الأزهر لا يعد جامعة محلية؛ بل هو جامعة عالمية تضم بين أحشائها من كل أجناس الأرض ، فقد خالط الشيخ في الأزهر أجناساً شتى جعلته يمعن النظر في هذه الأجناس وقضاياها .

٤ ـ استقرار الشيخ في قطر : وفيها وجد الشيخ الجو الملائم للدعوة إلى الله تعالى، وقد أحسن الشيخ استغلال هذه الفرصة ، وكما قيل إن الفرصة لا تأتي إلا لمن يستحقها ، فلم يلبث الشيخ بعد سنوات معدودة أن انطلق إلى العالمية .

٥ ـ استخدام الشيخ الوسائل العصرية الحديثة : فبينما رأينا بعضاً من الدعاة يقاطع أجهزة الإعلام قائلاً بحرمة دخول جهاز التلفاز داخل البيوت؛ وجدنا على العكس تماماً الشيخ القرضاوي لا يرى سبباً لحرمة التلفاز ، أو يرى سبباً مقنعاً يدعو إلى مقاطعة هذا الجهاز الفعال ، وكم رأينا برامج الشيخ التلفزيونية وخصوصاً برنامج «الشريعة والحياة» وكذلك «المنتدى» وجدنا لها أثراً فعالاً[٣] .

كما استخدم الشيخ الشبكة العالمية «الإنترنت» وذلك من خلال موقع «إسلام أون لاين» وكذلك «موقع القرضاوي» .

---

(١) انظر : مجموع الرسائل رسالة إلى الشباب ص ١٧٧ ، ١٧٨ .
(٢) نفحات ولفحات ص ١٢٢ .
(٣) انظر : الفصل الخاص بـ «الوسائل والأساليب في منهج القرضاوي الدعوي» من هذا الكتاب .

٦ ـ **اهتمام الشيخ بقضايا الأمة المصيرية** : كقضية فلسطين وأفغانستان وكشمير والعراق[١] .

٧ ـ **تبني الشيخ منهج التيسير في الفتوى والتبشير في الدعوة** [٢].

● **في أي شيء كانت عالمية الشيخ ؟**

والحق أن الشيخ كان عالمياً من جهات متعددة وأهمها :

١ – عالمي الجوائز .

٢ – عالمي الطموح .

٣ – عالمي الهم .

٤ – عالمي الأثر .

٥ – عالمي العداوة .

١ – عالمي الجوائز : حيث إن جوائز الشيخ لم تقتصر على بلد بعينه بل بلاد عدة :

* فمرة يفوز بجائزة الملك فيصل العالمية وهي جائزة سعودية التمويل لكنها عالمية.

* وثانية يفوز بجائزة العطاء المتميز من الجامعة الإسلامية بماليزيا .

* وثالثة بجائزة سلطان بروناي .

* ورابعة بجائزة سلطان العويس بالإمارات .

وهكذا فإن جوائز الشيخ جوائز عالمية [٣].

٢ – عالمي الطموح :

فالشيخ القرضاوي حفظه الله لا يشغله الطموح الشخصي ، فحين جمع المنصرون مبلغ ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار لتنصير العالم الإسلامي، دعا الشيخ لجمع ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار لإنقاذ العالم الإسلامي .

---

(١) انظر : سمة « الشمول » من هذا الكتاب.

(٢) انظر : سمة « التيسير والتبشير ».

(٣) الغريب أن الشيخ كُرِّم خارج بلده مصر ، ولم يكرم بها .

وحين رأى علماء الأمة لا جامع لهم دعا إلى إنشاء هيئة عالمية للعلماء .

وحين رأى الشيخ أثر « الإنترنت » عمل على إنشاء موقع عالمي يوضح صورة الإسلام الحسنة .

وحتى طموح الشيخ الشخصي كان طموحاً عالمياً ، ويؤكد هذا أن الشيخ القرضاوي حين سأله أحد مدرسيه وهو صغير عن أمنيته قال : أتمنى أن أكون شيخاً للأزهر .

٣ - **عالمي الهَمِّ** : إن هم الشيخ ليس هم نفسه، ولا هم شخصه ؛ ولكنه هم أمته التي أصابها الهم من كل جهة؛ إن همه أنواع فمنه :

١- هم التخلف المزري .

٢ - هم الاستغلال أو النظام الاجتماعي .

٣ - هم الاستبداد الداخلي .

٤ - هم التغريب والتبعية الفكرية .

٥ - هم التخاذل أمام العدو الصهيوني .

٦ - هم التفتت المخزي في الوطن الواحد .

٧ - هم التحلل والتسيب الخلقي [١].

وفي قصيدته التي بعنوان « أصولي .... أصولي » يعبر الشيخ عن هَمِّه الذي هو هَمُّ أمته أينما كان فيقول :

أصولي ... أصولي ... فدعني يا وصولي
أصولي ، عميق الجذر ... لا كسواي سطحي
لأصلي أنا مشدود ... بأصلي أنا محمي
هواي وعشقي الإسلام ... لا لُبْنَى ولا مَيِّ
وأهلي أمة الإسلام ... لا قيس ولا طَيِّ
أئنُّ لهم إذا مرضوا ... وأحيا إن همو حيوا
وأشْدُو إن هُمُو فرحوا ... وأبلغ إن هُمُو عيوا

(١) انظر : الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي ص ١٠٢ .

وينـزف منـي الدم حين ... يجـــرح ثَمَّ بُسَنـــي
وأصـــرخ : آه حين يشـــا ... ك جـــامـي وكـردي
ويغلي مـرجلي إن مـس ... حـول القـدس قـدسـي
أليـسوا إخـوتي في الله ... بل هم جـسـدي الحي !
أصـولي .... أصـولـي ... برغـمك يـا ضـلالـي [1]

٤ - عالمي الأثر :

وهذا واضح في كتبه التي شرقت وغربت وترجم منها ما ترجم إلى اللغات الأجنبية الحية وغير الحية.

٥ - عالمي العداوة :

لقد جرت عالمية الشيخ في دعوته كثيراً من العداوات ، فلم تكن عداوة الشيخ عداوة محلية قاصرة على بني جنسيته ، أو بني العروبة ، بل تجاوزت هذه العداوة كل الحدود ؛ والمتابع لأخبار الشيخ يرى المتطاولين على الشيخ من كل جهة[٢]، فتارة من صغار العلم وأنصاف المتعلمين ، كما رأينا ذلك ممن يسمون بالأحبـاش[٣]، وتارة من علماء السلطة وفقهاء السلطان ، وثالثة من أعداء الإسلام ودعاة العلمانية ، ورابعة من أصحاب الكراسي وذوي السلطان ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تجاوزه بكثير ليصل إلى دول تصف نفسها بحرية الرأي وتنادي بالديمقراطية ومن هذه الدول :

١ ـ أمريكا : حين منعت الشيخ من الدخول إلى ديارها وكانت حجة القوم أن الشيخ في آخر زيارة له إلى أمريكا خطب خطبة في ولاية « شيكاغو » أشاد الشيخ فيها بحركة حماس .

وقد أصدر معهد يهودي لشؤون الأمن القومي في أمريكا دراسة جعل أحد

---

(١) انظر : المسلمون قادمون ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٢) للشيخ في أنبياء الله على مر الدهور أسوة وقدوة ، وهل أرسل نبي إلا عذب وأذي وعودي؟ وكذلك له في علماء الأمة الربانيين قدوة حسنة ، ومن من الناس لا يذكر ما حدث لابن تيمية وابن حنبل ، وحسن البنا وسيد قطب وغيرهم كثير .

(٣) سبق التعريف بهم .

أبرز اهتماماته البحثية «موضوع الحركات الإسلامية»[1] وقد تحدث صاحب الدراسة عن الجماعات الإسلامية وخص بالذكر جماعة الإخوان وعدداً من قادتها ومفكريها وكان من بينهم الشيخ القرضاوي وأنقل خلاصة ما ذكره الكاتب كما جاء في الموقع الإلكتروني : «الشبكة الإسلامية» islam web.com:

القرضاوي.. المعلم الجديد :

لم يسلم الشيخ القرضاوي من همز ولمز الباحث، بحيث تعرّض له الباحث بالتفصيل في معرض حديثه عن الإخوان، وترجم عدة اقتباسات من كتبه، ويشير الباحث في البداية إلى الخلفية الفكرية والاجتماعية للقرضاوي، وإلى تميزه عن قادة الإخوان السابقين: البنا وقطب بحصوله على تعليم ديني، ويرى الباحث أن القرضاوي الذي يدرّس في دول الخليج يقوم الإخوان بتسويقه على أنه رمز الاعتدال والوسطية، ويستشهد الإخوان دوما بكتابه الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ، والذي يهاجم فيه التطرف والتشدد الديني، كما يشير الباحث إلى كتاب القرضاوي «الحلال والحرام في الإسلام»، ويرى الباحث أن الكتاب لا يقدم جديداً في الفقه ولا في المجال الذي كتب فيه، لكنه انتشر بشكل كبير في الغرب وبالتحديد في الولايات المتحدة الأمريكية؛ ليس فقط بين أتباع الجماعة ولكن حتى بين الجالية المسلمة، والتي لا تهتم بالدور الخطير الذي يقوم به القرضاوي كمرشد وموجه لجماعات «توتاليتارية» متطرفة! وإنما لحاجتها الشديدة للفتوى والعلم الشرعي[2].

٢ ـ فرنسا : حيث فوجئ العالم في يوم ٥ / ٥ / ١٩٩٥ م بقرار من وزير الداخلية الفرنسي وقتها « شارل باسكوا» بمصادرة كتاب «الحلال والحرام»، ونشر

---

(١) وتأتي خطورة هذه الدراسة أنها صادرة من معهد له تأثيره القوي في أوساط النخب الأمريكية السياسية والمثقفة «المعهد اليهودي لشؤون الأمن القومي» في الولايات المتحدة الأمريكية ، وهو من المراكز المعروفة بانحيازها الأيدلوجي السافر ضد كل الحركات الإسلامية ، الأمر الذي يظهر في أغلب دراسات ومشاريع المركز البحثية حول الإسلام السياسي، وتأتي هذه الدراسة في سياق مجهودات إدارة المركز في بناء تصورات مغلوطة متحيزة أيدلوجيا بغطاء معرفي حول الحركات الإسلامية لدى النخب السياسية والثقافية في الولايات المتحدة .

(٢) نقلاً عن موقع « islam web.com».

القرار في الجريدة الرسمية الفرنسية، واعتبر القرار أن تداول الكتاب في فرنسا شأنه أن يتسبب في أخطار للأمن العام ، نظراً لنبرته المعادية للغرب .

وقد أثار هذا القرار حفيظة المسلمين في فرنسا ، وقاد اتحاد المنظمات الإسلامية حملة قوية ضد هذا القرار ، وتجاوب الإعلام الفرنسي مع القضية ، حتى إن أحد الكتاب الفرنسيين كتب في جريدة « ليموند » يدافع عن الكتاب وينوه بما فيه من سماحة ، كما أن اتحاد الناشرين الفرنسيين قال : إننا سنطبع الكتاب بالفرنسية ونوزعه رغم أنف وزارة الداخلية .

ولم يلبث وزير الداخلية أن تراجع عن قراره وبعث مستشاره إلى عميد مسجد « باريس » يطلب منه أن يلتمس الإفراج عن الكتاب ، حفظاً لماء الوجه ، وذهب الوزير إلى مسجد « باريس » وأعلن أنه سيلغي هذا القرار ووصفه بأنه قرار إداري سخيف .

وكذلك قامت فرنسا بمنع الشيخ من دخولها عند افتتاح الكلية الأوربية للدراسات الإسلامية(١) .

٣ ـ إسرائيل : وقد كتب رجالها عن دور الشيخ في الانتفاضة كما أجرى حوارات تلفزيونية عن دور الشيخ ، ومنهم من دعا إلى اعتقال الشيخ وآخرون دعوا إلى اغتيال الشيخ(٢) .

٤ ـ لندن : حيث ألب اللوبى الصهيونى الصحف على الشيخ فى زيارته الماضية والتى كانت فى صيف ٢٠٠٤م، وهاجت الصحف وماجت، وأرعدت وأزبدت، وطالب البعض بإخراج الشيخ من إنجلترا، وعدم السماح له بالدخول كما فعلت أمريكا، ونوقش الأمر فى مجلس الشيوخ البريطانى، ووقف عمدة لندن موقفاً شجاعاً تاريخياً مع الشيخ. وقضى الشيخ أيامه فى لندن ثم غادرها بعد ذلك وكان فى وداعه عمدة لندن وستة من حاخامات اليهود الذين لا يؤمنون بقيام إسرائيل.

* * *

(١) للشيخ خطبة كاملة عن قصة الكتاب ومنعه انظر : خطب الشيخ ج٢ ص ٢١١ وما بعدها، ولقاءات ومحاورات ج٢ ص ٢٦ وما بعدها .

(٢) انظر : ما ذكرناه عن الشيخ وقضية فلسطين وفيه إشارة إلى هذا بالتفصيل .

المبحث الخامس عشر
الجمع بين النقل[1] والعقل

من أعظم النعم التي من الله بها على خلقه نعمة العقل ، وقد لا تساويها نعمة في جسد الإنسان .

والعقل في اللغة يدور حول الإمساك والاستمساك والمنع[2].

والمتأمل لمادة (ع ق ل) في القرآن يرى أنها جاءت ٤٩ مرة .

تعقلون : ٢٤ .

يعقلون : ٢٢ .

عقل : مرة واحدة.

يعقل : مرة واحدة .

نعقل : مرة واحدة .

هذا فضلاً عن الإشارة إلى العقل بأوصاف منها : أولو الألباب ، أولو النهى، الفؤاد[3].

وأما ما ورد في السنة في شأن العقل فإن أهل الحديث وصيارفته لا يعولون عليه، بل يحكمون عليه بالضعف أو الوضع كما قال الإمام ابن القيم في المنار المنيف[4] .

---

(١) يقصد بالنقل القرآن والسنة ، والشيخ يعترض على جعل النص القرآني والسنة مجرد نصوص نقلية مقابلة للعقل ، بل أكد الشيخ في إحدى محاضراته بأن القرآن ذاته بجانب أنه دليل نقلي فهو دليل عقلي ؛ لأنه يخاطب العقل ويستدل على ذلك بقوله سبحانه : ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون .... ﴾ [الطور ٣٥-٣٩] . أليست هذه كلها أدلة عقلية .

(٢) انظر : القاموس المحيط الفيروزأبادي ص ١٣٣٦ .

(٣) انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن أ: محمد فؤاد عبد الباقي ص ٤٦٨ وما بعدها ط. دار إحياء التراث العربي.

(٤) انظر : المنار المنيف ابن القيم ط مكتبة المطبوعات الإسلامية حلب ص ٦٦ .

ومع هذا فإن القرآن اهتم بالعقل اهتماماً بالغاً ، وكما يقول الأستاذ العقاد : لم يذكر القرآن العقل إلا في مقام التنبيه والتعظيم والإشادة بمكانته [١].

وكم كان الإسلام واضحاً وهو يولي العقل اهتماماً واضحاً، ولسنا في حاجة للتأكيد على أن الإسلام أمر بالتفكر، وإعمال العقل، وعدم تلقي النصوص ببلاهة وغباء وإعراض وتجاهل؛ بل أن نستقبلها بحواسنا كلها ، متدبرين معتبرين، ولقد وصف الله عز وجل عباده بأنهم ﴿ **إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا** ﴾ [الفرقان: ٧٣]، بل يكبون عليها سامعين مبصرين بآذان واعية وعيون واعية [٢].

ولكن الأمة في فترات الدعة والراحة ، وفترات التخلف والخمول ، ابتليت بمن يقدس العقل ويعلي من منزلته، حتى غدا هناك من يؤله العقل، ويجعل النص أو النقل تابعاً له .

وغني عن البيان أن من سلك هذا الطريق من بني جلدتنا كان مقلداً لغيره، ففي القديم قلدوا العقل اليوناني والفارسي ، وفي الحديث قلدوا سادتهم من أساطين الفكر الغربي من أمثال: فرويد، ونيتشه، وسارتر وماركس، وغيرهم.

ولما كان العقل البشري عقلاً قاصراً محدوداً ، فإن عقول هؤلاء القوم وصلت بهم في النهاية إلى طريق مسدود ، شهد بضحالة عقولهم وزيف أفكارهم ، يقول عبد السلام البسيوني نقلاً عن الدكتور رشدي فكار : وبدهي أن الآدمي إذا حمل نفسه ما لا يحتمل فإنه ينوء بحمله ، وقد يقتل نفسه أو يدمر من حوله كما فعل عديد من العباقرة المهاويس الذين اعتدَوا بعقولهم ، وجعلوها فوق وحي السماء وتشريعات الحكيم الخبير سبحانه وتعالى .

والواقع خير شاهد وأنصع برهان .

فأما الألماني كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) الذي كان شديد الذكاء إلى حد جعله يثق كثيراً في عقله الذي أدى به إلى الإلحاد وإنكار الله عز وجل ،

---

(١) انظر : التفكير فريضة إسلامية الأستاذ عباس العقاد ط دار الهلال ص ١٥ .

(٢) انظر : العقلانية هداية أم غواية عبد السلام البسيوني المؤسسة العالمية للطباعة والنشر الطبعة الثانية ١٩٩٢م ص ١٤ .

فقد مات ميتة غامضة ، وبعده انتحرت زوجته وبناته الثلاث ، وكانت إحداهن تمارس الدعارة في الشوارع .

وأما الفرنسي لويس إلتوسير ـ شارح الماركسية ومفسر نظرياتها ـ فقد أحضر سكيناً ، وبهدوء شديد ذبح زوجته الراقدة بجواره ، ثم ذهب ـ في غموضه واضطراب عقله ـ إلى الشرطة ، ليقول بكل برود : لقد قتلت امرأتي وهذا السكين يقطر من دمها . وانتهى به الحال إلى المصح العقلي الذي بقي به حتى توفي عام ١٩٩٠م .

وأما الألماني فردريك نيتشه (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) الذي كان يقول بنظرية الإنسان الكامل « superman » والذي كان شديد الاعتداد بعقله وأحكامه وتصوراته ، فقد آل به اضطرابه العقلي إلى أنه كان يدخل إلى المدرجات الخالية في الجامعة ـ وكان طلابه ينسحبون من المحاضرات أمام ما يرون من اضطرابه ـ ويقول : أيتها الكراسي : تحية ويبدأ بإلقاء محاضراته على الكراسي والجدران . وظل هكذا حتى أمسكوا به وساقوه إلى مصح عقلي .

وأما النمساوي اليهودي فرويد (١٨٥٦ ـ ١٩٣٩) الذي كان ـ كشأن اليهود أجمعين ـ سباباً للأنبياء ، قليل الحياء معهم ، يتهمهم جميعاً بأنهم مصابون بنوع من العصاب يدفعهم إلى ادعاء تلقي الوحي والاتصال بالله تعالى ، فقد مات هو نفسه بالعصاب (neuurosis) الذي اتهم به الأنبياء ، كما مات مدمناً للمخدرات[1] .

والشيخ القرضاوي في منهجه الدعوي وقف من العقل موقفاً وسطاً ، لم يعل به عن مكانته ، ولم ينزل به عن منزلته ، بل جعل العقل مقيداً بالنص إن صح سنده ، وصحت دلالته ، وهذا ما سنوضحه في هذا المبحث على هذا النحو :

أولاً : كيف يتعامل القرضاوي مع النقل .

ثانياً : عدم تعارض النقل مع العقل .

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٢١ ، ٢٢ .

أولاً : كيف يتعامل القرضاوي مع النقل .

١ ـ التأكد من صحة النقل :

صحة النقل المقصود بها هنا صحة الحديث ، أما القرآن فليس هناك مجال لإدخاله في هذا الباب ، فقد تكفل الله بحفظه حين قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] .

والشيخ القرضاوي يؤكد على ضرورة التأكد من صحة النص الحديثي الذي يستدل به في قضية من القضايا ، خصوصاً بعد أن قيض الله لسنة نبيه ﷺ جهابذة أعلاماً، حفظوا هذه السنة ووثقوها؛ يقول الشيخ : «لقد عرف المسلمون منذ عهد الصحابة رضي الله عنهم قيمة السنة ومنزلتها التشريعية والتوجيهية في حياتهم ، فحرصوا على حفظها وتبليغها»(١).

ويقول: وأولى هذه القواعد التي لا يختلف عليها اثنان : وجوب التثبت من صحة الحديث الذي يحتج به على حكم من الأحكام الشرعية الخمسة (٢).

ويؤكد الشيخ على من يتعامل مع السنة النبوية لينفي عنها انتحال المبطلين وتحريف الغالين ، وتأويل الجاهلين أن يستوثق من ثبوت السنة وصحتها؛ حسب الموازين العلمية الدقيقة التي وضعها الأئمة الأثبات ، والتي تشمل السند والمتن جميعاً، سواء أكانت السنة قولاً أو فعلاً أو تقريراً(٣) .

كما يؤكد الشيخ عدم استغناء أي باحث عن الرجوع إلى أهل الذكر والخبرة في هذا الشأن ، وهم صيارفة الحديث الذين أفنوا أعمارهم في طلبه ودراسته ، وتمييز صحيحه من سقيمه ومقبوله من مردوده(٤) .

ويتحدث الشيخ باستفاضة في موضع آخر فيقول : والواجب على كل قارئ للأحاديث النبوية ـ خصوصاً إذا كان من أهل العلم ـ أن يتحرى غاية

---

(١) انظر : المدخل لدراسة السنة ص٧٧ .

(٢) انظر : تيسير الفقه للمسلم المعاصر ص ٥١ .

(٣، ٤) انظر : المدخل لدراسة السنة ص ٩٩ ، وكيف نتعامل مع السنة ص ٣٣ ، والمرجعية العليا في الإسلام ص ٥ ـ ١٢ .

التحري ، ويتثبت كل التثبث ، قبل أن يحكم على حديث بالصحة والقبول ، أو بالضعف والرد ، ناهيك بالحكم عليه بالوضع والكذب .

وهنا لا بد أن يرجع إلى أئمة هذا الشأن ، ولا سيما المحققين منهم ، الذين أتاهم الله علم الرواية ، وعلم الدراية ، وهؤلاء هم فقهاء الحديث وصيارفته ، الناقدون لأسانيده ، العارفون بمتونه ومضامينه ، المميزون لصحيحه من سقيمه .

فلا ينبغي لمسلم أن يحتج بأحاديث لا يعرف لها خطاماً ولا زماماً ، إنما سمعها من خطيب لعله مخرف ، أو قرأها في مجلة تنشر ما يعجب الجمهور لا ما يعجب العلماء ، وهو أكثر ، أو قرأه في كتاب لا يعتمد عليه في تصحيح أو تضعيف[١] .

ولهذا كان الشيخ في رده على المخالفين يطالبهم بصحة ما يستدلون به ، قبل أن يبنوا على دليلهم بناء فيكونون كمن أسس بنيانه على شفا جرف هار .

ولذلك فالقرضاوي يؤكد أن كثيراً من انحراف الأمة في العقيدة أو العبادة والأخلاق؛ إنما هو ناتج من اعتماد أصحاب هذه الأفكار المنحرفة على نصوص واهية لا تثبت لها قدم عند أهل الحديث .

ومن الجدير بالذكر هنا أن نؤكد بأن الشيخ حين يتعامل مع النص الحديثي الثابت قد يتوقف عنده وقفة بل وقفات وخصوصاً إن كان هذا النص ، يتعارض مع حكم القرآن ، بل يرى الشيخ ذلك حقاً ثابتاً فيقول : ومن حق المسلم أن يتوقف في أي حديث يرى معارضته لحكم القرآن [٢].

ولكن الشيخ يشترط لهذا التوقف فيقول : إذا لم يجد تأويلاً مستساغاً[٣].

ولذلك توقف الشيخ في حديث «الوائدة والموءودة في النار »[٤] بل كما

---

(١) انظر : المرجعية العليا ص ١٤٢ ، ١٤٣.

(٢، ٣) المدخل لدراسة السنة ص ١٢٠ ، وكيف نتعامل مع السنة ص ٩٦ .

(٤) الحديث رواه أبو داود برقم (١٤٧١٧) عن ابن مسعود ، ورواه ابن حبان والطبراني عن الهيثم بن كليب وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح (٦ ٣٧١).

يقول الشيخ : حين قرأت الحديث انقبض صدري[١] وتساءل الشيخ كما تساءل الصحابة : هذه الوائدة في النار فما بال الموءودة ؟ ومع هذا فقد توقف الشيخ ولم ير في كلام شراح الحديث ما ينقع الغلة[٢] .

وهذا ما جعل الشيخ يتوقف كذلك في قبول حديث مسلم «إن أبي وأباك في النار»[٣].

لقد توقف الشيخ في قبول الحديث الذي صح سنده ؛ فهو وإن كان في صحيح مسلم إلا أن ظاهره يتعارض مع القرآن ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء :١٥] .

وقد حاول الشيخ أن يجد تأويلاً مستساغاً لهذا الحديث ، فقال : لعله أبوه أبو طالب فيقال للعم أب ، ولكنه وجده رأياً بعيداً ، وموقف الشيخ في مثل هذه الأحاديث هو التوقف فيها دون ردها بإطلاق؛ خشية أن يكون لها معنى لم يفتح عليه بعد [٤].

وليس الشيخ وحده الذي ذهب إلى التوقف في قبول ظاهر الحديث بل سبقه إلى ذلك علمان من أعلام الأمة ؛ وعالمان من أبرز علمائها، ولم يقبلا ظاهر الحديث وهما : الأبي والسنوسي وذلك في شرحهما لصحيح مسلم [٥].

٢ ـ تقديم النص على كل ما سواه :

تقديم النص على ما سواه هو هدي سلفنا الصالح وقد أبرز معاذ رضي الله عنه هذا النهج الطيب حين قال له النبي ﷺ : يا معاذ بما تحكم ؟ قال : بكتاب الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيي ولا آلو[٦] .

ولذا فإن الشيخ القرضاوي حين اعتمد هذا المنهج فهو لا يقدم قول قائل

(١ ، ٢) المدخل لدراسة السنة ص ١٢١ ، وكيف نتعامل مع السنة ص ٩٧ .

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان برقم (٢٠٣) عن أنس.

(٤ ، ٥) انظر : المدخل لدراسة السنة ص ١٢١ ، وكيف نتعامل مع السنة ص ٩٧ ، وشرح الأبي والسنوسي لصحيح مسلم ج١ ص ٣٦٣ ، ٣٧٣ .

(٦) رواه أحمد في مسنده رقم (٢٢١٠٠) وقال محققوه: إسناده ضعيف ، ورواه أبو داود في الأقضية (٣٥٩٣) ، والترمذي في الأحكام (١٣٢٧) وقال : هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وليس إسناده بمتصل وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٧٧٠) .

على نص ثابت مهما كان قائل هذا القول ، وعند حديث الشيخ عن القرآن قال : هذا الكتاب عمدة الملة، وأساس العقيدة وينبوع الشريعة ، وروح الوجود الإسلامي ، اتفق المسلمون جميعاً على الاحتجاج به ، والاستناد إليه ، والتعويل عليه ، فالقرآن بلا ريب هو أصل الأصول ، ومصدر المصادر ، ودليل الأدلة ، فكل الأدلة لابد أن ترجع إليه وتعتمد عليه[١] .

وقد عد الشيخ من مزالق الاجتهاد المعاصر الغفلة عن النصوص فيقول : أول ما يجب على المجتهد أن يرجع إليه هو النص من القرآن إن وجده ، ثم من السنة المبينة للقرآن ، فإن لم يجد فيهما طلبته اجتهد رأيه لا يالو ، وهذا الترتيب هو الذي جاء في حديث معاذ المشهور ، وهو ما جرت عليه سنة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، أما الاجتهاد بالرأي قبل البحث عن النص فهو خطأ ، والخطأ الأكبر منه أن تدع النص المعصوم ، وتجري وراء الرأي الذي لا عصمة له[٢] .

كما عد الشيخ أيضاً من مزالق الاجتهاد المعاصر الغلو في اعتبار المصلحة ولو على حساب النص ، ولذلك استغرب الشيخ ما كتبه أحد المشاركين في « ملتقى الفكر الإسلامي » السابع عشر بالجزائر ، حيث اقترح نقل صلاة الجمعة للمقيمين في أمريكا إلى يوم الأحد ليجتمع على الصلاة عدد أكبر ، وكان من رد الشيخ على هذا الرجل : ماذا تسمى هذه الصلاة المقترحة ؟ صلاة الجمعة أم صلاة الأحد ؟ وماذا نصنع بالسورة التي سماها القرآن « سورة الجمعة » أتغير اسمها وتجعلها « سورة الأحد »؟ وماذا نصنع مع الآية الكريمة في تلك السورة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ .... ﴾ أتضع بدل الجمعة الأحد أم ماذا ترى؟ [٣].

٣ ـ تجميع النصوص المتفرقة التي تتعلق بالموضوع الواحد :

من الأمور التي تؤدي بصاحبها إلى الخطأ عند التعامل مع النصوص، أن يأخذ نصاً واحداً ويكتفي به دون غيره من سائر النصوص ، ويبني على هذا النص حكماً ربما أدى به إلى ضرب آيات القرآن بعضها ببعض، وكذلك أحاديث

---

(١) انظر : تيسير الفقه للمسلم المعاصر ص ٤٤ بتصرف .

(٢) انظر : الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط ص ٤٦ بتصرف .

(٣) انظر : المرجع السابق ص ٧٣ ، ٧٤ بتصرف .

المصطفى بعضها ببعض . وهذا قد يؤدي إلى رمي الدين بالتناقض وهذا محال ، وليس العيب أو التناقض في الدين ولكن في الاستدلال ، ورحم الله أبا الطيب حين قال :

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الأذهان منه على قدر القرائح والفهوم

وكان من منهج الشيخ الدعوي الجمع بين النصوص المتفرقة في الموضوع الواحد؛ ليخرج الشيخ بعدها بنظرة شمولية عند الاستدلال على موضوع ما .

ولذا يقول الشيخ في كيفية فهم السنة : ومن اللازم لفهم السنة فهماً صحيحاً : أن تجمع الأحاديث الصحيحة في الموضوع الواحد ، بحيث يرد متشابهها إلى محكمها ، ويحمل مطلقها على مقيدها ، ويفسر عامها بخاصها ، وبذلك يتضح المعنى المراد منها ولا يضرب بعضها بعضاً[١] .

ويقول : إن الاكتفاء بظاهر حديث واحد ، دون النظر في سائر الأحاديث وسائر النصوص ، كثيراً ما يوقع في الخطأ ، ويبعد عن جادة الصواب ، وعن المقصود الذي سيق له الحديث[٢] .

ويضرب الشيخ مثلاً لذلك بالأحاديث الواردة في إسبال الإزار ، ويلوم المتحمسين في النكير على المسبل مطلقاً؛ ولو كان عالماً؛ حتى يرمى أحياناً المسبل بقلة الدين ، يقول الشيخ : ولو رجعوا إلى مجموع الأحاديث المتصلة بهذه القضية وردوا بعضها إلى بعض في ضوء نظرة شاملة لمقاصد الإسلام لعرفوا المقصود من الأحاديث في هذا المقام ولخففوا من غلوائهم ، ولم يركبوا متن الشطط[٣] .

وهنا يطالب الشيخ بجمع الأحاديث الواردة في الموضوع والمتعلقة به؛ ليتضح هل المراد بالمسبل كل من طال إزاره ولو كان على سبيل العادة ؟ أم يشترط مع الإسبال الخيلاء؟

(١، ٣) انظر : المدخل لدراسة السنة ص ١٢٨ ، وكيف نتعامل مع السنة ص ١٠٣ .
(٢) انظر : المرجعين السابقين ص ١٣٤، ص ١٠٨ .

والحق أن هذا المنهج في هذه القضية هو منهج النووي وابن حجر وغيرهما؛ وهذا ما استدل به القرضاوي حيث يقول: لنقرأ هنا ما ورد في الصحيح من هذه الأحاديث .

روى البخاري في (باب من جر إزاره من غير خيلاء) من حديث عبد الله ابن عمر عن النبي ﷺ ، قال : « من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة . قال أبو بكر : يا رسول الله ، إن أحد شقي إزاري يسترخي ، إلا أن أتعاهد ذلك منه ! فقال النبي ﷺ : لست ممن يصنعه خيلاء »(١).

وروى في الباب نفسه من حديث أبي بكر قال : « خسفت الشمس ، ونحن عند النبي ﷺ ، فقام يجر ثوبه مستعجلاً ، حتى أتى المسجد .... »(٢).

وروى في (باب من جر ثوبه من الخيلاء) عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: « لا ينظر الله إلى من جر إزاره بطراً »(٣).

وعن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « بينما رجل يمشي في حلة ، تعجبه نفسه ، مرجل جمته ، إذ خسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة »(٤).

وعن ابن عمر ـ ونحوه عن أبي هريرة أيضاً : « بينما رجل يجر إزاره ، إذ خسف به ، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة »(٥).

وقد روى مسلم حديث أبي هريرة والذي قبله ، وروى حديث ابن عمر من جملة طرق . منها : سمعت رسول الله ﷺ بأذني هاتين يقول : « من جر إزاره لا يريد بذلك إلا المخيلة ، فإن الله لا ينظر إليه يوم القيامة »(٦) ، ففي هذه الرواية ذكر قيد « الخيلاء » بطريق التصريح « لا يريد بذلك إلا المخيلة » فلم يدع مجالاً لمتأول .

---

(١) رواه البخاري في اللباس رقم (٥٧٨٤) عن ابن عمر .

(٢) رواه البخاري في اللباس رقم (٥٧٨٥) عن أبي بكرة.

(٣) رواه البخاري في اللباس رقم (٥٧٨٨) عن أبي هريرة، والبطر : التكبر والطغيان.

(٤) رواه البخاري في اللباس رقم (٥٧٨٩) عن أبي هريرة، ومعني يتجلجل: يسوخ في الأرض من اضطراب شديد، ويندفع من شق إلى شق.

(٥) رواه البخاري في اللباس رقم (٥٧٩٠) عن ابن عمر .

(٦) رواه مسلم في اللباس والزينة رقم (٢٠٨٥) عن ابن عمر وانظر صحيح مسلم بشرح النووي ط. الشعب ج٤ص٧٩٥. باب تحريم جر الثوب خيلاء.

والإمام النووي ، في شرح حديث (المسبل إزاره) وهو رجل لا يتهم بالتساهل ، بل هو أميل إلى الأخذ بالعزائم والأحوط كما يعرف الدارسون يقول[1]: وأما قوله ﷺ : « المسبل إزاره » فمعناه المرخي له الجار طرفه خيلاء ، كما جاء مفسراً في الحديث الآخر (لا ينظر الله إلى من يجر ثوبه خيلاء) والخيلاء: الكبر ، وهذا التقيد بالجر خيلاء يخصص عموم المسبل إزاره، ويدل على أن المراد بالوعيد من جره خيلاء ، وقد رخص النبي ﷺ في ذلك لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وقال : لست منهم إذ كان جره لغير الخيلاء.

وقال الحافظ ابن حجر في شرحه للأحاديث التي رواها البخاري في الوعيد على إسبال الإزار وجر الثوب :

في هذه الأحاديث : أن إسبال الإزار للخيلاء كبيرة ، وأما الإسبال لغير الخيلاء فظاهر الأحاديث تحريمه أيضاً ، لكن استدل بالتقييد في هذه الأحاديث بالخيلاء على أن الإطلاق في الزجر الوارد في ذم الإسبال محمول على المقيد هنا فلا يحرم الجر والإسبال إذا سلم من الخيلاء .

قال الحافظ الفقيه ابن عبد البر : مفهومه أن الجر لغير الخيلاء لا يلحقه الوعيد ، إلا أن جر القميص وغيره من الثياب مذموم على كل حال [2]، [3].

٤ ـ دفع التعارض المتوهم بين النصوص بعضها وبعض :

كثيراً ما يحاول البعض التطاول على الشريعة الغراء ، فيظهرون تعارضاً حسب ما فهمته عقولهم ، وليس الأمر كما توهموا ، ولكنهم أتوا من سوء قصدهم وفساد نياتهم .

والحق أن الأدلة الشرعية الصحيحة لا يمكن أن تتعارض أبداً ، لأنها خرجت من مشكاة واحدة ، فلن يعارض حديث صحيح آية قرآنية ، كما أنه لا يعارض دليل صحيح دليلاً عقلياً ، وهذا ما أكده الشيخ حين قال : الأصل في النصوص الشرعية ألا تتعارض ، لأن الحق لا يعارض الحق ، فإذا افترض وجود تعارض فإنما

---

(١) المصدر نفسه ج١ ص ٣٠٥ .

(٢) انظر : فتح الباري ج١٠ ص ٢٦٣ .

(٣) انظر : كيف نتعامل مع السنة ص ١٠٤ ـ ١٠٦ ، والمدخل لدراسة السنة ص ١٢٨ .

هو في ظاهر الأمر لا في الحقيقة والواقع ، وكان علينا أن نزيل هذا التعارض المدعى[1] .

ويؤكد الشيخ بأن سمو الشريعة وكمالها إنما يكون في تعاضدها لا تعارضها، وتكاملها لا تناقصها، وأن الإيمان لا يتم إلا بذلك ، يقول الشيخ : ويلزم من إيماننا بكمال الشريعة وسموها ، أن نؤمن بأن أحكامها تتكامل ولا تتناقض ، وأنها تتعاضد ولا تتعارض، لأن مصدرها واحد ، وهو الوحي . وهذا في الواقع مبدأ من المبادئ الهامة هنا لمن يريد أن يفقه عن الله ورسوله ، ويفهم منهما مرادهما، مبدأ يتمم المبدأ السابق الخاص بترابط النصوص ، وهو الاعتقاد بأن النصوص الثابتة من مصدريها المعصومين : القرآن والسنة، لا تتناقض، ولا تتعارض تعارضاً حقيقياً .

وما يُظن من تعارض بين بعضها وبعض ، إنما هو في فهم الباحث أو طالب العلم، أو في ظاهر الأمر ، قبل البحث والتمحيص والتحقيق ، فإذا بحث ومحص وحقق ـ وهو مؤمن بكمال الشريعة وسموها وسلامتها من كل نقص ـ زال عنه كل إشكال ، ولم يجد بينهما إلا التوافق والتكامل والاتساق[2] .

ويرى الشيخ أن دفع التعارض يكون بأمرين :

١ – الجمع بين الأحاديث الموهم ظاهرها التعارض بدون تمحل واعتساف .

٢ – الترجيح بين هذه الأحاديث بأحد المرجحات التي ذكرها العلماء .

على أن الشيخ أكد على ضرورة التثبت والتأمل والتدقيق قبل الحكم بالتعارض فيقول : لا ينبغي أن يُحكم بتعارض النصوص بمجرد تعارض ظواهرها وألفاظها بعضها ببعض ، بل لا بد من التأمل والتدقيق قبل الحكم بتعارضها .

فقد يكون المراد من النص غير ما يفهمه قارئه لأول وهلة ، ويظنه مخالفاً لغيره من النصوص .

فقد يجد في النص وضعاً أو قيداً ملفوظاً أو ملحوظاً يخرجه من دائرة ما فهمه ويدخله في دائرة أخرى .

---

(١) انظر : المدخل لدراسة السنة ص ١٢٨ ، وكيف نتعامل مع السنة ص ١١٣ .

(٢) انظر : المرجعية العليا في الإسلام ١٨٦ .

وهذا ينطبق على كثير مما أطلق عليه اسم «متشابه القرآن» وألفت فيه بعض الكتب قديماً وحديثاً .

كما ينطبق على كثير مما يطلق عليه «مختلف الحديث» وفيه ألف أبو محمد بن قتيبة كتابه «تأويل مختلف الحديث» والإمام أبو جعفر الطحاوي كتابه «مشكل الآثار»(١).

ويضرب الشيخ لذلك مثلاً بأحاديث التحذير من فتنة المال فيقول : خذ مثلاً أحاديث التحذير من فتنة الغنى وحب المال ، مثل قوله ﷺ فيما رواه الشيخان : «قمت على باب الجنة ، فكان عامة من دخلها المساكين ، وأصحاب الجد محبوسون»(٢).

وقوله ﷺ فيما رواه الشيخان عن أبي ذر رضي الله عنه : «هم الأخسرون ورب الكعبة، هم الأخسرون ورب الكعبة »! .... فقلت : من هم ؟ بأبي أنت وأمي يا رسول الله ؟! قال : « الأكثرون أموالاً ، إلا من قال : هكذا وهكذا »(٣).

وقوله ﷺ : «ما ذئبان ضاريان أرسلا في غنم ، بأفسد لهما من حرص المرء على المال والشرف لدينه»(٤).

فهذه الأحاديث وما ماثلها لا تعارض الأحاديث الأخرى التي جاءت في مدح المال والغنى والاستعاذة من الفقر .

مثل قوله ﷺ في دعائه لربه : « اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»(٥).

وقوله ﷺ لسعد بن أبي وقاص : «إن الله يحب العبد الغني التقي الخفي»(٦).

---

(١) انظر : المرجعية العليا ص ٢٠٠ .

(٢) رواه البخاري في النكاح (٥١٩٦) ومسلم في الرقاق (٢٧٣٦) عن أسامة بن زيد.

(٣) رواه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٣٨)، ومسلم في الزكاة (٩٩٠) عن أبي ذر.

(٤) رواه الترمذي في الزهد (٢٤٨٢) عن كعب بن مالك، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وذكره الألباني في صحيح الترمذي (٢٣٧٦).

(٥) رواه مسلم في الذكر والدعاء رقم (٢٧٢١) عن ابن مسعود.

(٦) رواه مسلم في الزهد (٢٩٦٥) عن سعد.

فهذه لا تنافي الأحاديث الأولى : لأن تلك الأحاديث لم تذم المال لذاته ، بل حذرت من شر فتنته ، وتتمثل في أن يُجمع من غير حله ، أو ينفق في غير محله ، أو يشغل مالكه عن ذكر ربه ، أو يطغيه على عباده .

ولهذا جاء في الحديث الذي استعاذ فيه النبي ﷺ من شر فتنة الغنى : الاستعاذة من شر فتنة الفقر . ولفظ الحديث كما روته عائشة : كان النبي ﷺ يقول : « اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار ، وعذاب النار ، وفتنة القبر ، وعذاب القبر ، وشر فتنة الغنى ، وشر فتنة الفقر »(١)، (٢).

٥ ـ وضع النص في موضعه الصحيح :

من أعظم المفاسد أن يستدل المرء على قضية بغير دليلها ، فيأتي بدليل صحيح في غير موضوعه، ويُقَوِّل النص ما لم يقله ، ويلوي أعناق النصوص حسب هواه الشخصي أو فساد نيته .

وهذا ما جعل الخليفة الرابع علياً رضي الله عنه يقول للخوارج حين رفضوا التحكيم وقالوا : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ ﴾ [يوسف : ٤٠] ، فقال علي : كلمة حق يراد بها باطل(٣) .

ولذا فإن الشيخ القرضاوي يؤكد على ضرورة الربط بين الدليل وموضع الاستدلال فيقول : ومن أهم المحاذير التي ينبغي الالتفات إليها ، والتنبيه عليها ، في فهم القرآن والسنة، وما يحتويان من عقائد وشرائع وأحكام وآداب : وضع النص في غير موضعه الصحيح .

فكثيراً ما يكون النص صحيحاً لا مطعن فيه ، ولا خلاف على ثبوته ، فهو آية من كتاب الله ، أو سنة قولية، أو عملية، أو تقريرة ثابتة عن النبي ﷺ ؛

---

(١) رواه البخاري في كتاب الدعوات (٦٣٦٧)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، (٥٨٩) عن عائشة.

(٢) انظر : المرجعية العليا في الإسلام ٢٠٠ - ٢٠٢ بتصرف .

(٣) انظر : أحكام القرآن الجصاص ج ٢ .

ولكن العيب في الاحتجاج بهذا النص على أمر معين ، وهو لا يدل عليه ، لأنه سيق مساقاً آخر[1] .

ويرى الشيخ بأن هذا الخلل : نتيجة للعجلة، والخطف الذي نراه ونلمسه لمساً عند السطحيين من الناس، الذين يتخرصون على النصوص بغير بينة ، ويتطاولون بغير سلطان أتاهم ، ويقولون على الله ما لا يعلمون .

وقد يكون ذلك من الخلل في الضمير ، وفساد النية ، حيث نرى بعض الناس يريد أن يثني أعناق النصوص قهراً لتوافق هواه ، وتنصر رأيه [2] .

ويضرب الشيخ مثلاً لذلك باستدلال بعض المتطاولين بآيات القرآن على منع التعدد، والعجب أن يكون دليل المنع عندهم هو دليل الإباحة نفسه، يقول الشيخ : رأينا من يستدل على منع تعدد الزوجات الذي إباحة القرآن نفسه ، بشرط العدل بآية من السورة نفسها تهدم ـ في نظرهم ـ آية الإباحة ، وتبطل أثرها، وتنسخ حكمها ، وهي آية ﴿ **وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ** ﴾ [النساء : ١٢٩] .

ومعنى هذا : أنهم يتهمون الرسول الكريم والصحابة وسلف الأمة ، بل الأمة كلها خلال أربعة عشر قرناً : أنها لم تفهم كتاب ربها المنزل إليها بلسانها ، أو فهمته وأعرضت عنه عمداً ، واجتمعت على ذلك ، حتى جاء هؤلاء في آخر الزمان يستدركون عليها .

ثم مقتضى كلام هؤلاء : أن القرآن يناقض بعضه بعضا ، فهو يبيح الشيء في آية، ثم لا يلبث أن يحرمه في آية أخرى ، وكذبوا ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً** ﴾ [النساء: ٨٢] . ولو أن هؤلاء أكملوا الآية التي زعموا أنها تبطل إباحة تعدد الزوجات ، لوجدوها ترد عليهم ، لأن تمامها ﴿ **فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ** ﴾ [النساء: ١٢٩] . ومفهوم الآية : أن بعض الميل مغتفر ، وهو الميل العاطفي الذي

(١، ٢) انظر : المرجعية العليا في الإسلام ص ٢٧٧ ، وكيف نتعامل مع القرآن ص ٣١٦ .

لا يتحكم فيه البشر . وهو الذي ورد أن النبي ﷺ كان يقول في شأنه ، بعد أن يقسم فيعدل بين نسائه في الأمور الظاهرة من النفقة والكسوة والمبيت : «اللهم هذه قسمي فيما أملك ، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك» يعني : أمر القلب[١]، [٢].

ثانياً : عدم تعارض النقل مع العقل عند القرضاوي .

بعد أن أوضحنا كيفية تعامل الشيخ مع الأدلة النقلية نوضح الآن نظرة الشيخ إلى العقل في ضوء النقل وهذه النظرة تتضح في الآتي :

١ ـ نظرة القرضاوي إلى العقل :

ينظر الشيخ القرضاوي إلى العقل نظرة معتدلة ، والحق أن هذه النظرة المعتدلة نابعة من النظرة الإسلامية المتزنة ، لذا فإن العقل عند القرضاوي : نعمة عظيمة ولا ريب[٣] .

والعقل الذي يعنيه القرضاوي هو : العقل الحر الباحث عن الحقيقة، الطليق من إسار التقليد، واتباع الظنون والأهواء، أما العقل المكبل بأغلال الانبهار بفلسفة معينة، أو ثقافة بشرية، أو بتقليد الماضين، فهذا عقل غير مأمون على تحصيل المعرفة، والوقوف على الحقيقة الصريحة[٤] .

ولهذا جعل الشيخ من خصائص الخطاب الإسلامي في عصر العولمة ـ وقبل عصر العولمة ـ أنه يؤمن بالوحي ولا يغيب العقل[٥] .

ويؤكد الشيخ بأنه لا يوجد دين غير دين الإسلام كرَّم العقل والفكر، وأشاد بأولي الألباب والنهى، ودعا إلى التفكر والنظر ، وحرص على التعقل والتدبر[٦] .

---

(١) رواه أبو داود في النكاح (٢١٣٤)، والترمذي في النكاح (١١٤٠)، والنسائي في الكبري (١٥٠٨) وابن ماجه في النكاح (١٩٧١)، والحاكم (٢ / ١٨٧) عن عائشة وصححه ووافقه الذهبي، ورجح الترمذي وغيره إرساله، وذكره الألباني في إرواء الغليل رقم (٢ / ١٨٧).

(٢) انظر : كيف نتعامل مع القرآن ص ٣١٨ ، ٣١٩ ، والمرجعية العليا في الإسلام ص ٢٧٩ .

(٣) انظر : المرجعية العليا في الإسلام ص ٣٣١ .

(٤) انظر : خطابنا الإسلامي في عصر العولمة ص ٦٩ .

(٥) انظر : المرجع السابق ص ٦٥ وما بعدها .

(٦) انظر : الحياة الربانية والعلم ص ٧١ .

ويقول: لا يوجد كتاب في الدنيا أشاد بالعقل ونوه به مثل القرآن الكريم، لا يوجد كتاب ديني فيه تمجيد لأولي الألباب ـ ست عشرة آية في القرآن الكريم تتكلم عن أولي الألباب ـ وهناك أحاديث عن أولي النهى، ومادة (عقل ـ يعقل ـ يعقلون) موجودة في القرآن بكثرة [١].

ويقول: وأحب أن أؤكد أن الإسلام يغالي بالعقل، ويعلي من قيمته، ويعتبره مناط كل تكلف شرعي، فلا يخاطب بأحكام الشرع إلا العقلاء، ومن فقد العقل ـ لصغر أو جنون ـ فقد عدم أهلية التكليف [٢].

ويرى الشيخ بأن من أروع ما جاء به القرآن في شأن العقل هو قوله: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا** ﴾ [سبأ: ٤٦]، ويقول الشيخ: ومعناه أنه لا يطلب منهم إلا خصلة واحدة، وهي أن يتوجهوا بعقولهم وقلوبهم إلى الله الذي يؤمنون به، وبخالقيته للكون، وتدبيره لأمره، مخلصين في طلب الهداية إلى الحقيقة بعيداً عن تأثير «العقل الجمعي» [٣].

ويؤكد الشيخ بأن الوحي الإلهي لا يلغي دور العقل الإنساني وإيجابيته في فهم الوحي والاستنباط منه، والقياس عليه، وملئ ما سكت عنه من فراغات تشريعية.

كما يرى الشيخ أن وجود النص الإلهي المقدس ليس عائقاً للعقل عن التحليق والإبداع إذ أن الوحي ترك للعقل أموراً كثيرة في مجالات متعددة منها:

(١) **مجال العقيدة**: فقد ترك الوحي للعقل أن يهتدي إلى أعظم حقيقتين:

الحقيقة الأولى: وجود الله ووحدانيته، فكما تهدي الفطرة السليمة إلى وجود الله كذلك النظر الصحيح والعقل الصريح ﴿ **أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ** ﴾ [الطور: ٣٥].

الحقيقة الثانية: ثبوت الوحي والنبوة والرسالة: فالعقل هو الذي يثبت

---

(١) انظر: لقاءات ومحاورات ج١ ص ١٢٤.
(٢) انظر: المرجعية العليا ص ٣٤.
(٣) انظر: الحياة الربانية والعلم ص ٧١.

إمكان ذلك ووقوعه بالفعل ، العقل هو الحكم الأول والأخير في هذه القضية ، ولا مدخل للاستدلال هنا بالنقل ونصوص الوحي ، إذا كيف يستدل بما لم يثبت بعد ؟

(٢) مجال التشريع : ترك الوحي للعقل في مجال التشريع أن يجول ويصول في فهم النصوص، فيفرع على الأصول، ويقيس على الفروع ، ويستنبط الأحكام، ويكيف الوقائع، ويرعى القواعد في جلب المصالح ، ودرء المفاسد ، ورفع الحرج، وتحقيق اليسر .

(٣) مجال الأخلاق : ترك الوحي للعقل في ميدان الأخلاق أن يصدر حكمه وفتواه في كثير من الأعمال التي يلتبس فيها الخير بالشر، ويشتبه الحلال بالحرام ، ولم يغفل شأنه بجانب الوحي .

(٤) مجال التفكر في الكون : ترك الوحي للعقل بعد ذلك أن يجول في آفاق هذا الكون العريض ما شاء ، صاعداً إلى الأفلاك وهابطاً إلى الأرض ، ومتأملاً في النفس ﴿ **قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [يونس: ١٠١]، و﴿ **وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ** ﴾ [الذاريات: ٢٠] .

(٥) مجال الاختراع ووسائل الدنيا: ترك الوحي للعقل أن يبتكر ويخترع في وسائل الحياة الدنيا ما شاء ﴿ **وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** ﴾ [القصص: ٧٧]

(٦) مجال الاستفادة من تجارب الآخرين : ترك الوحي للعقل أن يستفيد من تجارب الآخرين، وينتفع بتراث السابقين، ومعارف اللاحقين .

بذلك يتبين أن الوحي الإلهي لم يشل الفكر الإنساني ولم يجمده بل كان هادياً ومعيناً في بعض المجالات ، وترك الحرية الكاملة والاستقلال المطلق في مجالات أخرى ، وإنها لكثيرة ورحيبة [١].

---

(١) انظر : الخصائص العامة للإسلام ص ٥٥ ـ ٥٨ بتصرف، والعقل والعلم في القرآن الكريم ص ٢٧٤ وما بعدها .

ويزيد الشيخ القرضاوي الأمر وضوحاً فيؤكد أن الإسلام عمل على تكوين «العقلية العلمية» محارباً بها «العقلية العامية» أو «العقلية الخرافية»، كما حرص القرآن على تكوين هذه العقلية العلمية من خلال سبع نقاط :

النقطة الأولى : رفض الظن في موضع اليقين: ﴿**إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً**﴾ [يونس: ٣٦] .

النقطة الثانية : عدم اتباع الأهواء والعواطف في مجال العلم: لأن الهوى يعمي ويصم، واتباع الهوى قد يضل الإنسان عن الحق وخصوصاً العواطف الهوج ﴿**إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى**﴾ [النجم: ٢٣] .

النقطة الثالثة : رفض التقليد الأعمى للآباء والأسلاف: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ**﴾ [المائدة: ١٠٤] .

النقطة الرابعة : رفض التبعية للسادة والكبراء : لقد ذم القرآن هذه التبعية وحمل الشعوب أوزارها ﴿**فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ**﴾ [الزخرف: ٥٤]

النقطة الخامسة : التعبد بالنظر العقلي ﴿**أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ**﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠].

النقطة السادسة: لا تقبل دعوى بغير برهان : إذ أن كل دعوى بغير برهان مرفوضة ساقطة ﴿**قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [البقرة: ١١١] .

النقطة السابعة : رعاية سنن الله في الكون والمجتمع: لأن هذه السنن ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ﴿**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٧] (١).

ومن هنا فإن القارئ لكتابات الشيخ القرضاوي ، يرى أنه لم يبتعد يوماً عن

---

(١) انظر : العقل والعلم في القرآن الكريم ص ٢٥٠ وما بعدها باختصار .

العقل ، ولم ينظر إليه نظرة « تقديس » ؛ لكن هذا العقل هو العقل الذي يعرف قيمته ولا يتعدى حدوده ، العقل الذي لا يحرم نفسه من نور الله ، ولا يتجاوز حدود ما أباح له الله ، إنه العقل العامل الذي يصول ويجول فيما لا نص فيه ولا دليل ، أما إذا ثبت النص أو وضح الدليل أو قام البرهان فإن العقل يقف خاضعاً لهذا النص ، مستسلماً لهذا الدليل ، ذليلاً لهذا البرهان .

إن هذه النظرة القرضاوية للعقل لا تجعله عقلاً مسيطراً ، لكنها تجعل له حدوداً يقف عندها؛ لأنه العقل مهما كان ينبغي ألا يترك وحده مخافة الزيغ والضلال ، ويوضح هذا قول الشيخ : إن العقل الإنساني وحده لا يؤمن أن يترك وحده ، وإنما ينبغي أن يؤيد وأن يصان بوحي الله تبارك وتعالى ليسدد خطاه ويعصمه من الزلل؛ حتى يستمر في الطريق المستقيم ، فالعقل بدون وحي معرض للخطأ والخطل والخطر ، كما رأينا الذين مشوا وراء عقولهم وحدها بعيداً عن هدى الله تعالى (١).

ومن المعلوم أن الغلو في تقديس العقل أو تقديمه على الوحي هو سبب الانحراف والزيغ ، وهذا واضح على مر التاريخ ؛ بل إن الشيخ يرى تقديس العقل من أخطر أسباب الانحراف والضلالة فيقول: ومن أخطر أسباب الانحراف والضلالة : تقديس العقل البشري ، واعتباره الدليل الذي لا يخطئ ، والهادي الذي لا يضل ، وإعطاؤه حق الحكم في كل قضية، وفي كل مجال ، وإن يكن من اختصاصه ، ولا في حدود سلطانه .

ولهذا نجد عامة المبتدعين والمنحرفين قديماً وحديثاً ، يشركون في هذه الفكرة السائدة لديهم ، وهي : تقديم العقل البشري على نص الوحي الإلهي ، فهذا هو عمدتهم الأولى، وقاعدتهم التي عليها يرتكزون ، وإليها يستندون ، وهو المقدم عندهم ، والمفضل لديهم، بحيث يتهمون الأدلة الشرعية إذا لم توافقهم ، ولا يتهمون عقولهم يوماً(٢).

لهذا فإن من الضروري أن يكون للعقل خطوط حمراء يقف عندها، وأمور

---

(١) انظر : لقاءات ومحاورات ج٢ ص ١٣١ .

(٢) انظر : المرجعية العليا في الإسلام ص ٣٣١ .

لا يتعداها، وحقائق يسلم لها وينصاع فيها للوحي، لأنه سلم بداية للوحي واستدل به على حقيقة النبوة والرسالة ، ومن ثم فينبغي أن لا يكذب نفسه باعتراضه على الوحي بل ينبغي عليه التسليم المطلق للنقل إن صح نقله ؛ يقول الشيخ : الدين قد يأتي بما يستبعده العقل ، ولكنه لا يأتي بما يحيله ، فما يأتي به الدين من غيبيات تتعلق بالعالم غير المنظور ، بالملائكة، والجن، والشياطين ، بالعرش ، بالكرسي ، باللوح ، بالقلم ، ما يأتي به من أحوال الحياة البرزخية : القبر وما فيه من نعيم وعذاب ، أو أحوال الآخرة وما فيها من بعث وحشر وحساب وسؤال وميزان وصحف وصراط وجنة ونار .. هذه الأشياء على العقل أن يسلم بها ما دام الوحي قد جاء بها ..

فالعقل هنا عليه أن يسلم بهذه الأشياء إذا كان يحترم نفسه ، وإلا كذب نفسه في تصديقه للوحي أولاً .. ثم هناك أشياء ينبغي للعقل أن يسلم بها وهي ما كان مقطوعاً به من ناحية الثبوت ومن ناحية الدلالة :.

ما كان قطعي الثبوت والدلالة فعلى العقل أن يسلم له .. لا يقول العقل : لماذا نصلي في اليوم خمس مرات ؟ لماذا لم تكن ثلاثاً أو أربعاً .. ؟ ولماذا كان بعض الصلوات ركعتين وبعضها ثلاثاً وبعضها أربعاً ؟ ولماذا كان الركوع مرة واحدة والسجود مرتين ؟ هذه الأشياء لا يستطيع العقل أن يفصل فيها[1] .

٢ ـ هل يتعارض النقل مع العقل ؟

يحاول دعاة العقلانية في القديم وفي الحديث إعمال عقلهم في كل شيء ، مما يصل بهم عن قصد وبغير قصد إلى معارضة النقل بالعقل ، والعقل بالنقل ، وهذا من فعل أهل الزيغ والبدع ، إن هؤلاء يتعاملون على أن العقل هو الحكم الفصل في كل قضايا الدين ، وأنه إذا تعارض النقل مع العقل ، وجب إخضاع النص للعقل ، لا يفرقون بين نص قطعي الثبوت والدلالة ، وآخر ظني الثبوت والدلالة .

ولقد وقف العلماء في وجه دعاة العقلانية منذ زمن بعيد ، ورفضوا أن يتعارض النقل الصحيح مع العقل الصريح ، يقول الإمام ابن الجوزي في مقدمة

---

(١) انظر : لقاءات ومحاورات ج١ ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

كتابه «الموضوعات»: ما أحسن قول القائل: كل حديث رأيته تخالفه العقول، وتناقضه الأصول، وتباينه النقول، فاعلم أنه موضوع [1].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه القيم «درء تعارض العقل والنقل»: السمع الذي يقال إنه يخالفه - أي العقل - إما حديث موضوع أو أدلة ضعيفة، فلا يصح أن يكون دليلاً لو تجرد عن معارضته العقل الصريح فكيف إذا خالفه صحيح المعقول؟ ونحن نعلم أن الرسل لا يخبرون بمحالات العقول بل بمحارات العقول، فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاءه بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته [2].

ويقول أيضاً: فلا يعلم حديث واحد يخالف العقل أو السمع الصحيح إلا وهو عند أهل العلم ضعيف بل موضوع، ولا يعلم عن النبي ﷺ حديث صحيح أجمع المسلمون على نقيضه؛ فضلاً عن أن يكون نقيضه معلوماً بالعقل الصريح البين لعامة العقلاء [3].

ويقول الغزالي في إحيائه: «وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية، وأن الجمع بينهما غير ممكن؛ هو ظن صادر عن عمى في عين البصيرة ونعوذ بالله منه» [4].

وهذا هو موقف الشيخ القرضاوي أيضاً فهو لا يرى أي تناقض بين النقل والعقل يقول الشيخ: فلا يجوز إذن نصب العقل عدواً للشرع، ولا نصب الشرع عدواً للعقل، ولا يتصور أن يثبت الشرع ما ينفيه العقل «أي ما يقطع باستحالته» ولا أن ينفي ما يثبته العقل، ما لم يقيم البراهين اليقينية على وجوده.

والعكس ثابت أيضاً بمعنى أن العقل لا يتصور أن يثبت ما يقطع الشرع بنفيه، ولا أن ينفي ما يقطع الشرع بثبوته [5].

---

(١) انظر: الموضوعات ابن الجوزي ص ٥.

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل ابن تيميه تحقيق د: محمد رشاد سالم ط جامعة الإمام محمد بن سعود الأولى ١٤٠٠هـ ج١ ص ١٤٧.

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل ابن تيميه ج١ ص ١٥٠.

(٤) انظر: إحياء علوم الدين الغزالي ط دار المعرفة ج٣ ص ١٧.

(٥) انظر: الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه ص ٤٧.

وهنا يظهر رأي الشيخ القرضاوي فيقول : نحن دعاة العقلانية ، نحن المسلمين دعاة العقلانية ، نحن نرفض الخرافات والأباطيل ، ومن خلال هذه العقلية ، قامت حضارة إسلامية شامخة جمعت بين العلم والإيمان ... بين العقل والنقل[١] .

ويؤكد الشيخ هذا فيقول : لم ير علماؤنا إطلاقاً أي تعارض أو تناقض بين صحيح المنقول وصريح المعقول ، وقد ألف في ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية كتاباً ظهر في عشرة أجزاء اسمه « درء تعارض العقل والنقل » فلا يمكن أن يتعارض عقل صريح مع نص صحيح ، وإذا رأيت تعارضاً فلا بد أن ما ظننته نقلاً ليس صحيحا ، أو ما ظننته عقلاً ليس صريحاً[٢] .

ويقول في موضع آخر: ولا توجد عندنا ـ نحن المسلمين ـ مشكلة الصراع بين العقل والوحي، أو بين الحكمة والشريعة، أو بين الفكر والعقيدة، أو بين العلم والدين، فالدين عندنا علم، والعلم عندنا دين.

ومن القواعد المعلومة المقررة عندنا: أنه يستحيل التناقض بين قواطع العقل وقواطع الشرع، لأن الحق لا يعارض الحق أبدا. وإذا وجد شيء من هذا في الظاهر، فلا بد أن يكون لأحدهما تفسير أو تأويل يخرج به عن التناقض[٣] .

ولهذا فإن الشيخ يرى ضرورة النظر في سند الحديث لمعرفة صحته من عدمها ، كما يؤكد الشيخ على ضرورة النظر في متن الحديث ليرى قبول العقل له أم لا ؟ ولكن الأمر ليس متروكاً لكل الناس وإنما لأهله وذويه يقول الشيخ : إن البحث في متن الحديث مقبول بل مطلوب وأن الحديث الذي يرفضه العقل مردود بلا شك .

بيد أن الأمر المهم هنا : هو من الذي ينظر في متن الحديث ليعرف مدى قبوله من عدمه؟ ومن الذي يقول: إن هذا الحديث يرفضه العقل، فهو ضعيف؟

إن إعطاء هذا الحق لكل من هب ودب من الناس غير مقبول شرعاً ولا عقلاً، وإنما يجب أن يعطى للثقات من أهل الاختصاص[٤] .

(١، ٢) انظر : لقاءات ومحاورات ج١ ص ١٢٧ .
(٣) انظر : خطابنا الديني في عصر العولمة ص ٧٢ .
(٤) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص٤٢ .